الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

دراسات في كتب المتشابه اللفظي من القرآن الكريم

-الإسكافي، الكرماني، الغرناطي-

دراسة ونقد

عميد كلية الدراسات العليا

إعداد

عطية صدقي عطية الأطرش

إشراف

الدكتور مصطفى إبراهيم المشني

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التفسير بكلية الدراسات العليا

في الجامعة الأردنية

كانون أول / ١٩٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٧/١٢/٢٤م وأجيزت

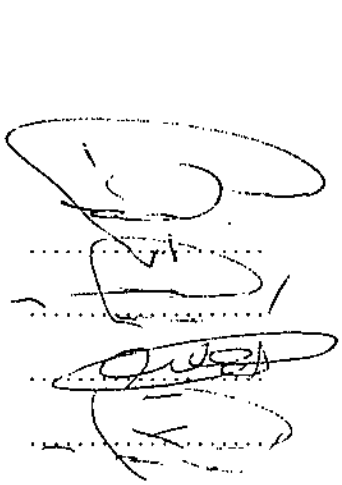

لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور مصطفى إبراهيم المشني	مشرفاً ورئيساً
الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس	عضواً
الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم عبد الحميد	عضواً
الدكتور شحادة حميدي العمري	عضواً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى والديّ المحسنين هديتي، وخالصُ تقديري وفيضُ سلامي
فلولاهما ما كان للعيش نَسْحة وما كنت موجوداً هنا بمقامي
إلى من تعلمت العلوم بفضلهم وأصبح في آي الكتاب كلامي
إلى كل من أبدى إلي مشورة ونصحاً وتوجيهاً بدون خصام
إلى رفقتي في العلم حيث توجهوا وحلّوا كراماً في رضىً وونام
إلى كل من جعل الوفاء شعاره وقام بحمل العبء خير قيام
إلى كل من كان الجهاد سبيله ولم يخش في الأعداء أي ملام
إلى كل من رام الشهادة مطلباً، وخرّ صريعاً في جوىً وهيام
إليكم جميعاً سوف أهدي هديتي، وأجعلها للعلم خير وسام
وأسأل ربي أن يتم نعيمه، قبولاً وتوفيقاً وحسن ختام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر

﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ (الأحقاف ١٥).

يطيب لي أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذي ومعلمي الدكتور مصطفى إبراهيم المشني، لما أسبغه عليّ من التوجيهات الفياضة، والنصائح النافعة، ولما تركه من لمسات رائعة كان لها أطيب الأثر في إتمام هذا العمل على الوجه المطلوب، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

كما وأتوجه بالشكر الجزيل إلى أساتذتنا الفضلاء الذين سعوا في تقويم هذا البحث ممثلاً ذلك في كل من :

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس.

الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم عبد الحميد.

الدكتور شحادة حميدي العمري.

وكل الشكر والمحبة إلى من عرف الوفاء سجية وطبعاً الأخ علي محمد قدادة وذلك على ما قدمه من مساعدات لي فجزاه الله عنّي كل خير.

كما أتوجه بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل إلى زوجتي العزيزة (أم قصي) التي عملت ما في وسعها من أجل مساعدتي، وكانت شديدة الحرص على متابعتي -على مدار اللحظة- منذ البدء بإعداد هذه الرسالة، فجزاها الله عنا خير الجزاء.

كما أشكر الأخ محمود أحمد أبو أصبع الذي عمل على طباعة هذه الرسالة وتنسيقها، وكل من قدم لي العون والمساعدة، راجياً العلي القدير أن يوفقنا لما يحب ويرضى، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر	د
المحتويات	هـ
الملخص بالعربية	ط
المقدمة	١

الباب الأول

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، معناه وأنواعه وموقف العلماء منه ٦

الفصل الأول: معنى المتشابه اللفظي وأهميته والتأليف فيه.	٧
المبحث الأول: معنى المتشابه اللفظي وموضوعه وأهميته.	٨
المطلب الأول: المعنى اللغوي للمتشابه اللفظي.	٩
المطلب الثاني : المعنى الاصطلاحي للمتشابه اللفظي	٩
(أ) المتشابه اللفظي عند أصحاب الكتب الثلاثة المتخصصة في هذا العلم.	٩
(ب) تعريف الإمام الزركشي لعلم المتشابه اللفظي.	١٠
(ج) التعريف المختار لعلم المتشابه اللفظي.	١١
المطلب الثالث: الحكمة من وجود المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.	١٦
المطلب الرابع: علم المتشابه اللفظي والعلوم الأخرى.	١٧
(أ) المتشابه اللفظي وعلم إعجاز القرآن.	١٧
(ب) المتشابه اللفظي وعلاقته بعلم المحكم والمتشابه.	١٨
المبحث الثاني: التأليف والتصنيف في المتشابه اللفظي.	٢١
المطلب الأول: جهود الأقدمين.	٢١
(أ) الجهود المتخصصة في علم المتشابه اللفظي.	٢٢
(ب) الجهود التي لم تفرد المتشابه اللفظي بالتأليف.	٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثاني: جهود المحدثين في خدمة المتشابه اللفظي ونقدها. ٢٨
(أ) البحوث والدراسات القرآنية حول إعجاز وبلاغة القرآن الكريم. ٢٩
(ب) كتب التفسير الحديثة التي عنيت بإدراك الفروق البيانية بين بعض الآيات. ٣٢
الفصل الثاني : كتب المتشابه اللفظي الثلاثة التعريف بها ومصادرها. ٣٤
المبحث الأول: التعريف بالكتب الثلاثة ومؤلفيها. ٣٥
تمهيد. ٣٥
المطلب الأول: الخطيب الإسكافي وكتاب درة التنزيل. ٣٥
المطلب الثاني: الكرماني وكتاب البرهان في متشابه القرآن. ٤١
المطلب الثالث: ابن الزبير الغرناطي وكتاب ملاك التأويل. ٤٥
المبحث الثاني: مصادر كتب المتشابه اللفظي الثلاثة. ٥٢
المطلب الأول: القرآن الكريم. ٥٢
المطلب الثاني: الحديث النبوي. ٥٦
المطلب الثالث: الأقوال المأثورة عن السلف في التفسير عند الكتب الثلاثة. ٥٩
المطلب الرابع: كتب التفسير والآراء التفسيرية. ٦١
(أ) كتب التفسير المعتمدة عند كتب المتشابه اللفظي. ٦٢
(ب) آراء المفسرين في كتب المتشابه اللفظي الثلاثة. ٦٧
المطلب الخامس: فهم السياق القرآني عند الكتب الثلاثة. ٧١
المطلب السادس: علوم القرآن عند الكتب الثلاثة. ٧٢
(أ) علم المناسبات. ٧٢
(ب) معرفة أسباب النزول. ٧٨
(ج) علم القراءات القرآنية. ٨١
(د) ترتيب النزول وأول وآخر ما نزل من القرآن. ٨٤
(هـ) إشارات من المكي والمدني. ٨٥
(و) رسم المصحف. ٨٥
(ز) ترتيب السور في المصحف. ٨٦
(ح) الفاصلة القرآنية عند الكتب الثلاثة ٨٧
(ط) إشارات أخرى من علوم القرآن. ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب السابع: علوم اللغة عند كتب المتشابه اللفظي. ٨٨
(أ) علم النحو عند الكتب الثلاثة. ٨٨
(ب) العلوم البلاغية عند كتب المتشابه اللفظي. ٩٣
(جـ) حروف المعاني في كتب المتشابه اللفظي. ١٠٠
(د) الأسماء الموصولة في كتب المتشابه اللفظي. ١٠٣
(هـ) الاستشهاد بالشعر والأمثال العربية في كتب المتشابه اللفظي. ١٠٦
(و) شرح المفردات اللغوية في كتب المتشابه اللفظي. ١٠٩
المطلب الثامن: العلوم الأخرى عند كتب المتشابه اللفظي. ١١١
(أ) علم أصول الفقه. ١١١
(ب) علم الكلام. ١١٣
(جـ) علوم العقيدة في كتب المتشابه اللفظي. ١١٤
(د) التفسير الموضوعي. ١١٧
(هـ) القصص القرآني. ١٢٠
(و) إشارات من علوم أخرى وقع ذكرها في كتب المتشابه اللفظي. ١٢٤
المبحث الثالث: أصول المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة وصوره ومنهجه. ١٢٧
تمهيد: ١٢٧
المطلب الأول: تقسيم الزركشي في البرهان لصور المتشابه اللفظي وأنواعه. ١٢٧
المطلب الثاني: ما يمكن استدراكه على الإمام الزركشي في صور المتشابه اللفظي. ١٢٩

الباب الثاني
الدراسة التطبيقية على علم المتشابه اللفظي ١٣٢

الفصل الأول: دراسة المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة. ١٣٣
تمهيد. ١٣٣
سورة الفاتحة ١٣٤
سورة البقرة ١٣٧
الفصل الثاني: المقارنة والموازنة بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة. ١٩١
تمهيد ١٩٢
المبحث الأول: منهج الكتب الثلاثة في عرض المتشابهات. ١٩٢
المبحث الثاني: المصادر العلمية لكتب المتشابه اللفظي. ٢٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث: القواعد العامة عند أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه المتشابهات. ٢٠٥

المبحث الرابع: أهداف الكتب الثلاثة ومقاصدها في عرض المتشابه اللفظي . ٢١٧

الفصل الثالث: القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي. ٢٢١

تمهيد ٢٢٢

المبحث الأول: أقوال العلماء وشهاداتهم لهذه المؤلفات وأصحابها. ٢٢٣

المبحث الثاني: المميزات العامة لكتب المتشابه اللفظي. ٢٢٥

المبحث الثالث: أهمية كتب المتشابه اللفظي، واعتبراها مصادر معتمدة، وأثرها في من جاء بعدها. ٢٢٩

الخاتمة ٢٣٣

المراجع ٢٣٦

الملخص بالإنجليزية ٢٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص

تتحدث هذه الدراسة عن علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم من جانبيه:

النظري والعملي التطبيقي. وجاءت في بابين.

ففي الباب الأول تحدثت عن علم المتشابه اللفظي من جانبه النظري. وجاء ذلك في فصلين رئيسين.

أما في الفصل الأول فقد تحدثت في المبحث الأول منه عن تعريف علم المتشابه اللفظي من حيث اللغة والاصطلاح، مبرزاً التعريف المختار في نظري لهذا العلم الجليل.

ثم بينت موضوع هذا العلم، والحكمة من وجوده في القرآن الكريم. ومن ثم كشفت عن العلاقة بين علم المتشابه اللفظي والعلوم الأخرى، وفي هذا الصدد بينت طبيعة العلاقة بين علم المتشابه اللفظي وبين علمين اثنين هما: علم إعجاز القرآن، وعلم المحكم والمتشابه، فقد وجدت أن من الضروري معرفة هذه العلاقات بين هذه العلوم لما لذلك من أهمية.

وفي المبحث الثاني من الفصل الأول تم الحديث عن جهود الأقدمين والمحدثين التي أسهمت في خدمة علم المتشابه اللفظي. فقمت باستعراض سريع لجهود الأقدمين ممثلاً ذلك بكتب المتشابه اللفظي الثلاثة وهي من أشهر ما وصل إلينا في هذا العلم -أعني الدرة للإسكافي والبرهان للكرماني وملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي- هذا بالإضافة إلى كتاب كشف المعاني لابن جماعة الذي تحدثت عنه وكشفت عن ميزاته. هذا بالإضافة إلى حديثي عن الجهود غير المتخصصة في هذا العلم ممثلاً ذلك بنشاط المفسرين ومن كتبوا في إعجاز القرآن.

ثم استعرضت جهود المحدثين ناقداً هذه الجهود وكيف أنها لم تفرد الحديث عن الآيات المتشابهة بالتصنيف.

وفي الفصل الثاني من الباب الأول تحدثت عن كتب المتشابه اللفظي الثلاثة وعن مؤلفيها. ففي المبحث الأول تعرفنا إلى كتب المتشابه اللفظي وذلك من حيث التعريف بمؤلف كل كتاب -الإسكافي فالكرماني فالغرناطي-. وكنت بعد الحديث عن كل واحد من هؤلاء المؤلفين أتحدث عن كتابه وطريقة التأليف فيه.

وفي المبحث الثاني استعرضت مصادر كتب المتشابه اللفظي العلمية ممثلاً ذلك بجوانب المأثور المختلفة، بالإضافة إلى آراء المفسرين وعلوم القرآن واللغة والعلوم الأخرى.

وفي المبحث الثالث استعرضت الصور التي يقع من خلالها التشابه اللفظي في القرآن حاكياً جهد الإمام الزركشي -رحمه الله-، ثم ما استطعت استدراكه في هذا الموضوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء الباب العملي التطبيقي وهو الباب الثاني من هذه الدراسة، وقد استعرضت من خلاله المتشابه اللفظي في جميع القرآن مع توجيه معانيه. فكنت أستعرض آراء أصحاب الكتب الثلاثة في كل موضع من المواضع المتشابهة. وفي نهاية كل سورة كنت أتحدث عن مغفل أصحاب الكتب الثلاثة من الآيات المتشابهة لفظاً.

وفي الفصل الثاني من الباب الثاني قمت بالمقارنة بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة من حيث مناهجها وأساليبها ومصادرها وطرائقها في توجيه المتشابهات، بالإضافة إلى المقارنة بين مقاصدها وأهدافها.

وفي الفصل الثالث قمت بإبراز القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي وذلك من حيث أقوال العلماء وشهاداتهم لهذه المؤلفات، والمميزات العامة لكل كتاب، ثم بينت أهمية هذه المؤلفات وكونها مصادر معتمدة، وكيف كان لها أكبر الأثر فيمن جاء بعدها وفي الخاتمة قمت بتسجيل أبرز النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد: فهذه دراسة لثلاثة من كتب التراث وصلت إلينا في علم المتشابه اللفظي، أولها: كتاب (درة التنزيل) للخطيب الإسكافي، وثانيها: كتاب (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني، وثالثها، (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي.

وكانت هذه الكتب الثلاثة العمود الفقري الذي ارتكز عليه فكر السابقين واللاحقين في فهم الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً وتوجيه معانيها.

وكان من حسن الطالع أن نبّه أستاذنا الدكتور فضل حسن عباس -حفظه الله- في محاضرات له حول إعجاز القرآن- على أهمية دراسة كتب المتشابه اللفظي، ومناقشة أصحابها في ما ذهبوا إليه في توجيه الآيات المتشابهات. ولقد نبّه على هذا وهو يؤكد على ضرورة فهم إعجاز القرآن من حيث التطبيق على النصوص القرآنية-.

ولما تأملت كتب المتشابه اللفظي، وطبيعة ما عرضته موضوعاتها، وجدت النفس تصحو من جديد، بعدما طال بها الركود والسبات. ولطالما حاولت السؤال عن الفرق بين ما تشابه من آي القرآن الكريم، لماذا عبّر هنا بهذه الكلمة، وفي موضع آخر عبّر بكلمة أخرى؟ ما سرّ اختصاص كلّ آية بما خصّت به من الألفاظ؟ وما الحامل على هذا التخصيص، وهذا التكرار الذي جاء على هذه الصورة المتماثلة والمتقاربة؟.

فمثل هذه التساؤلات وغيرها الكثير، دفعت بي إلى دراسة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

واشتملت هذه الدراسة على بابين وخاتمة.

أما الباب الأول فجاء بعنوان: **(المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، معناه، وأنواعه، وموقف العلماء منه)**. وتناولت من خلاله علم المتشابه اللفظي من الناحية النظرية، وجاء في فصلين رئيسين:-

أما الفصل الأول فكان بعنوان: **(معنى المتشابه اللفظي، وأنواعه والتأليف فيه)** وجاء في مبحثين اثنين:-

المبحث الأول: (معنى المتشابه اللفظي وموضوعه وأهميته).

والمبحث الثاني: (التأليف والتصنيف في المتشابه اللفظي).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفصل الثاني فكان بعنوان: (**كتب المتشابه اللفظي الثلاثة، -التعريف بها ومصادرها-**) . وجاء في ثلاثة مباحث هي:-

المبحث الأول: (التعريف بكتب المتشابه اللفظي ومؤلفيها).

المبحث الثاني: (المصادر العلمية لكتب المتشابه اللفظي).

المبحث الثالث: (أصول المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وصوره ومنهجه).

أما الباب الثاني فجاء بعنوان (**الدراسة النقدية التطبيقية على كتب المتشابه اللفظي**). وجاء هذا الباب ليدرس الآيات المتشابهات من الناحية العملية التطبيقية. وجاء في ثلاثة فصول هي:-

الفصل الأول بعنوان: (**دراسة المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة**).

والفصل الثاني بعنوان: (**المقارنة والموازنة بين كتب المتشابه اللفظي**).

والفصل الثالث بعنوان: (**القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي**).

ثم كانت الخاتمة التي عرضت من خلالها أهم ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات.

أهداف هذه الدراسة:-

جاء هذا العمل محققاً كثيراً من المقاصد التي منها:-

أ) محاولة وضع قواعد وأطر ضابطة للتعامل مع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

ب) إثبات أن اختيار كل مفردة أو تركيب من التراكيب القرآنية المتشابهة وغيرها في المواطن المتعددة، تحمل من الأسرار ما يؤكد روعة البيان القرآني، وإعجازه.

جـ) المقارنة والموزانة بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة من حيث المنهج، والمادة العلمية، والأهداف وذلك من أجل نسبة الفضل لأهله ومعرفة ما أضافه اللاحق إلى ما تركه السابق.

د) توجيه الآيات المتشابهات تشابهاً لفظياً، توجيهاً سهلاً ميسراً، يخدم العامة والخاصة على السواء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهجية البحث.

قامت طريقة العمل في هذه الدراسة على أسس منهجية ثلاثة هي: الاستنباط والوصف، والاستقراء.

أما من حيث الاستنباط، فقد قمت بتحديد دقيق لمعنى المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وبينت ضوابطه وموضوعه وموقعه من العلوم الأخرى.

ومن جهة ثانية، فقد قمت بوضع وسائل وقواعد ثابتة يمكن الاعتماد عليها في فهم الآيات المتشابهات وتوجيهها، كالتناسب والسياق وما إلى ذلك.هذا بالإضافة إلى ما بينته من صور أخرى للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم – غير ما ذكره القدماء– وما كنت أحاوله بين الحين والآخر من تقديم آراء جديدة في فهم المتشابهات.

أما من حيث الوصف فقمت بوصف كتب المتشابه اللفظي الثلاثة ومصادرها، بالإضافة إلى وصف ما جاء في خدمة هذا العلم من المصادر القديمة والحديثة.

أما الاستقراء فجاء في خطوتين اثنتين:–

أ) استقراء الآيات المتشابهات في كتب المتشابه اللفظي الثلاثة دون غيرها من الآيات مما ليس من المتشابه اللفظي.

ب) استقراء المتشابه اللفظي من القرآن الكريم، فقد كنت أتحدث عن مغفل كتب المتشابه اللفظي الثلاثة من كل سورة من سور القرآن، وذلك تتميماً لخدمة هذا العلم الجليل.

واستحوذ الفصل الأول من الباب الثاني –أعني توجيه المتشابه اللفظي– استحوذ على مساحة كبيرة من هذه الدراسة، التي تقرب من ثلثي مساحتها الإجمالية. وأرى أن ذلك كان من الضرورة بمكان لاعتبارات عدة:–

أ) أهمية فهم إعجاز القرآن من حيث التطبيق على النصوص القرآنية، فلقد نشط السابقون واللاحقون من قدامى ومحدثين في دراسة علم إعجاز القرآن من الناحية النظرية، فتحدثوا مثلاً عن تاريخ الإعجاز، وأشهر من كتبوا فيه، وكيف يكون التحدي، ومراحله، وغير ذلك من هذه الموضوعات. فكان من الضروري هنا دراسة ما عرضته كتب المتشابه اللفظي دراسة تفصيلية، ذلك أن فهم الآيات المتشابهة يسد جانباً مهما من جوانب فهم هذا البيان القرآني المعجز.

ب) القيام بالدراسة النقدية اللازمة لكثير من الآراء في توجيه الآيات المتشابهة، وكان لا يتحصل هذا إلا بعرض آراء أصحاب كتب المتشابه اللفظي عرضاً مفصلاً لمعظم الآيات المتشابهة. هذا وقمت بإجراء بعض عمليات الموازنة والمقارنة بين آراء أصحاب كتب المتشابه اللفظي في فهم الآيات المتشابهة، بالإضافة إلى مناقشتهم في ما ذهبوا إليه من الآراء، لا سيما إذا ما علمنا أن فهم هذا العلم يقوم على قوة الفهم والاجتهاد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت النظرات النقدية التي قمت بتسجيلها منبعثة مما قاله أهل اللغة والتفسير، بالإضافة إلى ما سطره بعض الكاتبين من قدامى ومحدثين حول فهم إعجاز القرآن. هذا عدا عما كنت أضيفه بين الحين والآخر من الآراء التي كان يفتح الله بها علي مستنداً إلى الطرائق عينها التي ارتكز عليها أهل التفسير، كفهم التناسب والسياق وما شاكل ذلك.

جـ) محاولة استقراء الآيات المتشابهة في جميع القرآن، وهو ما كنت أسعى إلى تحقيقه من خلال فصل التطبيق في دراسة المتشابهات. وقمت بعرض ما يقرب على مائتين وثمانية وسبعين موضعاً من المواضع المتشابهة مما ذكرته كتب المتشابه اللفظي. بالإضافة إلى ما عرضته من مغفلات أصحاب الكتب الثلاثة -مما لم يتحدثوا عنه-، وقمت باستقرائه من كل سورة من سور القرآن، وكنت أعرض للحديث عنه في نهاية كل سورة من سور القرآن بعد أن يتم استعراض ما قاله أصحاب كتب المتشابه. وقد وصل عدد هذه المغفلات على مختلف السور إلى ما يزيد على ستين موضعاً.

وحري بي أن أشير هنا إلى أن ما عرضته من هذه المغفلات لا يمكن أن يشكل استقراء تاماً للآيات المتشابهة في جميع القرآن، وخصوصاً فيما يتعلق بالنصف الثاني من القرآن الكريم، فكثيراً ما كنت أتجنب الحديث عن بعض المتشابهات إما لسهولة فهم وجه التكرير فيها، وإما لضيق الوقت، خصوصاً أن مساحة هذه الدراسة قد طالت كثيراً ولا تتسع لمثل هذا.

وعلى أي حال فإن هذا هو القرآن العظيم الذي لا تنتهي أسراره ومحاسنه، وأرجو أن يكون ما عرضته في فصل التطبيق خير شاهد لهذا البيان القرآني المعجز.

وقد امتازت طريقة العمل في هذه الدراسة بما يأتي:-

أ) الحرص على نقل آراء أصحاب كتب المتشابه اللفظي بمعانيها دون ألفاظها. وهذا على الأغلب. ومما دعاني إلى هذا هو كثرة استطراد بعض هذه الكتب،-وخاصة ابن الزبير- في توجيه المتشابهات، ولا ريب أن نقل مثل هذه الآراء بألفاظها من الممكن أن يستغرق مجلدات ضخمة من غير طائل. ومن جهة ثانية فإن هدف هذه الدراسة؛ هو تقديم خلاصة فكرية لآراء أصحاب كتب المتشابه في فهم الآيات المتشابهة.

ب) الحرص على الترتيب الزمني في نقل آراء كتب المتشابه اللفظي. فقد حرصت دائماً على مراعاة أقوال الخطيب أولاً، يليه الكرماني، فابن الزبير، وذلك حتى نتبين الحجم الحقيقي لما أضافه اللاحق إلى ما تركه السابق.

وهو ما كنت أحرص على مراعاته دائماً -وخاصة في فصل المصادر والتطبيق-.

وكثيراً ما كان الكرماني يوافق رأي صاحب درة التنزيل فكنت أذكره في الحواشي متجاهلاً الإشارة إليه في المتن توخياً للاختصار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ) ترقيم الآيات القرآنية الوارد ذكرها في هذه الدراسة في المتن دون الهوامش، وذلك لأن هذا العمل يقوم على فهم الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً، فلا ريب أن التعويل على هذه الطريقة يجعل القارئ أكثر سرعة في استحضار الآيات المتشابهة على اختلاف السور، ومن جهة ثانية فإن هذا يجنبنا أثقال الحواشي من غير طائل، الأمر الذي يؤدي إلى أحداث البلبلة والتشويش عند كثرة التهميش.

د) تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها المعتمدة، بالإضافة إلى الأبيات الشعرية والتعريف بالأعلام المذكورين في متن هذه الدراسة، وذلك من أجل استكمال جوانب هذا العمل على الوجه المطلوب.

والله أسأل أن يجعل جهودنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يوفقنا إلى المزيد من البذل والعطاء في تدارس هذا القرآن العظيم، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا ينضب بيانه. وأن يغفر لي ما وقعت فيه من الزلات والمزالق، إنه سميع مجيب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

معناه وأنواعه وموقف العلماء منه

يشتمل على فصلين

الفصل الأول : معنى المتشابه اللفظي وأهميته والتأليف فيه.

الفصل الثاني : كتب المتشابه اللفظي الثلاثة؛ التعريف بها ومصادرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

معنى المتشابه اللفظي وأهميته والتأليف فيه

يأتي في مبحثين :

المبحث الأول : معنى المتشابه اللفظي وموضوعه وأهميته :

المطلب الأول: المعنى اللغوي للمتشابه اللفظي.

المطلب الثاني: المعنى الاصطلاحي للمتشابه اللفظي، يشمل :

أ) المتشابه اللفظي عند أصحاب الكتب الثلاثة المتخصصة في هذا العلم.

ب) تعريف الزركشي لعلم المتشابه اللفظي ومناقشته في ذلك.

ج) التعريف المختار لعلم المتشابه اللفظي.

المطلب الثالث : الحكمة من وجود المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

المطلب الرابع : علم المتشابه اللفظي والعلوم الأخرى ؛ يشمل :

أ) علم إعجاز القرآن.

ب) علم المحكم والمتشابه.

المبحث الثاني : التأليف والتصنيف في علم المتشابه اللفظي.

المطلب الأول : جهود الأقدمين ؛ تأتي في قسمين :

أ) الجهود المتخصصة في علم المتشابه اللفظي.

ب) الجهود التي لم تفرد المتشابه اللفظي بالتأليف.

المطلب الثاني : جهود المحدثين في خدمة المتشابه اللفظي ونقدها ؛ تشمل :

أ) البحوث والدراسات في إعجاز وبلاغة القرآن الكريم.

ب) كتب التفسير الحديثة التي عنيت بإدراك بعض الفروق البيانية بين بعض الآيات المتشابهة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الأول

معنى المتشابه اللفظي وموضوعه وأهميته

تمهيد

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانيَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ [الزمر/٢٣].

روى ابن جرير بسنده عن قتادة [١] قال : ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها**﴾ الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف. وعن ابن جبير[٢] قال : ﴿**كتابا متشابها**﴾ يعني يشبه بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا، ويدلّ بعضه على بعض.

ثم يقول ابن جرير في تفسير المثاني[٣]: " تثنّى فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج".

وقال ابن عطية في تفسير هذه الآية [٤] " إنه موضع تثنية للقصص والأقضية والمواعظ تثنّى فيه ولا يملّ مع ذلك، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد ".

من ظلال هذه الدوحة القرآنية أستطيع أن أبدأ المسير لنتعرّف معاً على ضرب من ضروب البيان القرآني، ذلك هو علم المتشابه اللفظي في القرآن، الكريم.

إنه علم جليل اختصّ به كتاب الله تعالى ــ، نستطيع أن نقف من خلاله على سر الإعجاز القرآني، وروعة بيانه.

ولمّا كثر الخلط بين الآيات المتشابهات تشابها لفظيًا من جهة، وبقية الأضرب الأخرى من البيان القرآني من جهة ثانية، آثرت أولا الحديث عن مبادئ هذا العلم، والضوابط التي تعرف من خلالها الآيات المتشابهة تشابهًا لفظيًا دون غيرها من بقيّة صنوف البيان.

---

(١) هو قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، من كبار المفسرين، ت ١١٠ هـ (ابن حجر، تقريب التهذيب، ص ٨٩٧، رقم ٥٣٥٣)

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأزدي، أبو عبد الله، من سادات التابعين وكبار الفقهاء، قتله الحجّاج سنة ٩٥ هـ (الداودي، طبقات المفسرين ١/١٨١، ١٨٢).

(٣) الطبري، جامع البيان ٢٣/٢٠٩.

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، ١٢/٦٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الأول: المعنى اللغوي للمتشابه اللفظي

لا بدّ من التعرّف أولاً على أصل استعمال هذه الصيغة التركيبيّة من حيث اللغة. قال ابن فارس في مادة المتشابه : " الشين والباء والهاء أصل واحد يدلّ على تشابه الشيء وتشاكله لونًا ووصفًا " [١].

وجاء في اللسان : الشِّبه والشَّبه والشبيه المِثْل. والجمع أشباه. وأشبَهَ الشيءُ الشيءَ ماثَلَه[٢].

أما اللفظ فهي كلمة تدلّ على طرح الشيء في أصل استعمالها، وغالب ذلك أن يكون من الفم، تقول : لَفَظ بالكلام، إذا تكلّم به [٣].

وهكذا يتبيّن بوضوح أن معنى هذه الصيغة ـ المتشابه اللفظي من حيث اللغة هو كل ما تماثل من الكلام الملفوظ من الحروف والكلمات والجمل وغير ذلك. فهو شامل لعموم ما تكرّر وتماثل من الألفاظ المنطوق بها.

المطلب الثاني: المعنى الاصطلاحي للمتشابه اللفظي

أ) المتشابه اللفظي عند أصحاب الكتب الثلاثة المتخصصة في هذا العلم :

تعدّ الكتب الثلاثة من أوائل ما وصل إلينا في علم المتشابه اللفظي، وهي : (درّة التنزيل) للخطيب الإسكافي. و(البرهان في متشابه القرآن) للكرماني. و(ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي.

وقد حرص أصحاب هذه المؤلفات على بيان علم المتشابه اللفظي من خلال التعريف بهذه المؤلفات، وطبيعة ما عرضته موضوعاتها. وهو توجيه ما تكرر لفظًا من آي القرآن الكريم، سواء كان ذلك بالألفاظ المتفقة أم المختلفة.

يقول الخطيب –وهو يشير إلى موضوع كتابه– : "إني مذ خصّني الله بإكرامه وعنايته، وشرّفني بقراءة كلامه ودرايته، تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر وروية، في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها دون أشكالها" [٤] .

٤٨٢٥٤٢

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢٤٣/٣، (مادة شبه).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٢٣/٧ (مادة شبه).

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢٥٩/٥، والفيروزأبادي، القاموس المحيط ٣٩٩/٢ (مادة لفظة).

(٤) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الكرماني : "فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، لكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها"[١] .

وقال ابن الزبير : "وإن من معضلات مصنّفي أئمتنا -رضي الله عنهم- في خدمة علومه وتدبّر منطوقه الجليل، ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير"[٢] .

وهكذا يتبين أن أصحاب كتب المتشابه اللفظي -الإسكافي والكرماني والغرناطي- عرّفوا هذا العلم بأنه ما تكرر لفظاً من آي القرآن الكريم، وهذا التكرار إما أن يكون على صور متماثلة أو متقاربة. وهو عين ما أشاروا إليه من المكرر بالألفاظ المتفقة او المختلفة. وقد حرصوا في هذه المؤلفات على توجيه هذا المكرر وبيان معانيه.

ب) تعريف الإمام الزركشي لعلم المتشابه اللفظي

تحدث الإمام الزركشي -رحمه الله- في كتاب البرهان عن علم المتشابه اللفظي، فعرفه بقوله : "هو إيراد القصة الواحدة في سور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنبياء"[٣] .

وبقي هذا التعريف هو المعول عليه عند من جاؤوا بعد الإمام الزركشي [٤] .

مناقشة هذا التعريف :

يحسن هنا أن أناقش معك هذا التعريف لعلم المتشابه اللفظي لنرى هل يشمل جميع الآيات المتشابهة تشابها لفظيا أم لا ؟ ولننظر ما القيود التي يمكن إضافتها حتى نخرج بتعريف شامل لجميع الآيات المندرجة تحت مسمى المتشابه اللفظي في القرآن.

وبناء على ما تمهّد فسأقوم بدراسة هذا التعريف من الجوانب الآتية :

الجانب الأول : قوله : " إيراد القصة الواحدة " أي الموضوع الواحد سواء كان ذلك من القصص أم من الموضوعات القرآنية المختلفة. ومن الملاحظ أن الآيات المتشابهة تتكرر في الموضوعات، لكنها أكثر ما تكون في القصص القرآني، وفي ذكر الأنبياء ـ كما ذكر الزركشي رحمه الله.

الجانب الثاني : قوله : " القصة الواحدة " إنه يخرج بذلك من علم المتشابه اللفظي ما كان واردًا بصيغ لفظية مكررة في قصتين مختلفتين. وهذا لا يعد من المتشابه على حد تعريف الزركشي.

---

(١) الكرماني، البرهان في متشابه القرآن ص١٧،١٨,

(٢) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل ٣/١.

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١١٢/١.

(٤) انظر مثلاً السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ٢٤٨/٢، ومعترك الأقران ٨٧/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمثلة على اختلاف القصتين ممّا ورد بصيغ متشابهة قوله تعالى في الأنعام [١٣٥] خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿**قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار**﴾، وجاء في سورة هود [٩٣] على لسان شعيب خطابا لقومه : ﴿**ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب**﴾.

الجانب الثالث : قوله : " في سور شتى " إنه بذلك يخرج من المتشابه اللفظي ما كان في سورة واحدة. وهذا أمر لا يسلّم به لورود كثير من النظائر المتشابهة في سورة واحدة، فيذكر النظير في السورة، ثم يأتي ما يماثله في السورة نفسها.

من ذلك قوله تعالى في البقرة [٤٨] : ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**﴾، وفي الآية [١٢٣] من السورة نفسها : ﴿**ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة**﴾.

الجانب الرابع : قوله : " وفواصل مختلفة " يخرج بذلك ما تكرر بفاصلة واحدة، وهذا المكرر بفاصلة واحدة لا نستطيع إخراجه من دائرة المتشابه اللفظي لأن هناك الكثير من المكرر بفاصلة واحدة، كالآيات المكررة بنفس الفاصلة كقوله تعالى في المرسلات [١٥] : ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ حيث تم تكريرها عشر مرات. ومثله التكرار الواقع في سورة الرحمن وغيرها من المواضع المكررة بنفس الفاصلة.

ج) التعريف المختار لعلم المتشابه اللفظي

بعد التعرف على علم المتشابه اللفظي عند أصحاب الكتب الثلاثة من جهة، وعند الإمام الزركشي من جهة ثانية، أستطيع أن أسجل أمرين هامين :

الأول : أن كتب المتشابه اللفظي المتخصصة في هذا العلم سلكت إتجاهاً عاماً في توجيه ما تكرر من آي القرآن الكريم، وسواء كان هذا المكرر بالألفاظ المتفقة أم المختلفة.

والثاني : أن الإمام الزركشي –رحمه الله– حد علم المتشابه اللفظي بتعريف أكثر خصوصية وحصراً للآيات المتشابهة، حيث لا ينسحب هذا التعريف على الكثير من المكرر أو المتشابه من آي القرآن الكريم، فيخرج مثلاً الآيات المكررة في أكثر من قصة، والآيات المكررة في السورة الواحدة، هذا عدا عن الآيات التي يردّ الاختلاف بينها إلى غير الفواصل، فهذا كلّه غير داخل في تعريف الزركشي –رحمه الله–.

وبما أن كتب المتشابه اللفظي أحرزت قصب السبق من حيث الكتابة في هذا الموضوع أرى من الأسلم مجاراتها في ما ذهبت إليه في بيان هذا العلم. وقبل أن أخرج بتعريف دقيق لعلم المتشابه اللفظي يحسن أن أمهد لذلك بتسجيل الحقائق التالية :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١) أن المتشابه اللفظي هو عبارة عن آيات قرآنية تكررت بصيغ لفظية متماثلة أو مختلفة لحكم بيانية متعددة.

٢) أن هذا التكرار قد يكون في السورة الواحدة أو في السور المختلفة.

٣) أن هذا التكرار يكون بأساليب بيانية متعددة، فهو غير منحصر بتغير الفواصل كما هو محدد في تعريف الإمام الزركشي -رحمه الله-.

ومن هنا فإنه يمكنني القول؛ إن المتشابه اللفظي هو: إيراد الآية أو الآيات في القصص والموضوعات القرآنية المختلفة في السورة الواحدة أو في سور شتى بأساليب بيانية متعددة.

محترزات هذا التعريف وضوابطه

ومن هذا التعريف يمكن أن أقرر الحقائق التالية :

١) أن كون المكرر هو الآية أو الآيات يخرج بذلك من المتشابه ما كرر من الألفاظ والعبارات القرآنية القصيرة -على ما سيأتي تفصيله في ما بعد-.

٢) وكون المكرر في القصص والموضوعات المختلفة فإنه يشمل بذلك ما كرر في القصة الواحدة، بالإضافة إلى المكرر في قصتين أو موضوعين مختلفين.

٣) وكون المكرر بأساليب بيانية متعددة فإنه بذلك يشمل جميع الصور التي يقع من خلالها التشابه اللفظي كالتكرار بنفس الألفاظ، أو ما كرر بألفاظ متقاربة واختلف بتقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان، وسيأتي تفصيل هذا -بإذن الله-. ويخرج بذلك من المتشابه اللفظي الآيات المكررة بمعناها كتفسير القرآن بالقرآن فلا علاقة له بالمتشابه اللفظي.

الآيات غير المتشابهة في كتب المتشابه اللفظي :

أرى أن من المناسب هنا أن أمضي في دراسة استقرائية لمعرفة الآيات غير المتشابهة في كتب المتشابه اللفظي مبيّنًا السبب في عدم كونها من المتشابه، وقد جعلتها في الأصناف الآتية :

أ- العبارات التي لا نظير لها في القرآن، وهذا لا يعدُّ من المتشابه، ولقد كثر وروده عند الكرماني، حيث كان يورد الآية مكتفيًا بالقول " ليس في القرآن غيره " كقوله تعالى في البقرة : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**﴾ [٢١]، وقوله في النساء : ﴿**والله عليم حليم**﴾ [١٢] وقوله في السجدة : ﴿**أفلا يسمعون**﴾ [٢٦][(١)]، وهذا كثير عند الكرماني.

ب- الألفاظ القرآنية المكرّرة التي تقتضيها استقامة النظم وإعراب الكلام، وهذا ما كثر عند الكرماني أيضا، فتجده يتمحّل إيجاد بعض المتشابهات في سورة الفاتحة [الآيتين /٦،٧] فيذكر مثلا تكرار (الصراط) وتكرار (عليهم) في الآية الأخيرة منها [(٢)]، وهذا ليس من المتشابه. ومثله ما جاء في سورة

---

(١) انظر البرهان ص ٢٢، فقرة ٨، وص ٤٨، فقرة ٦٩، وص ١٦٠، فقرة ٤٠٠.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ٢٠، الفقرتين ٣، ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البقرة ﴿ولا تنكحوا المشركات... ولا تنكحوا المشركين﴾ [٢٢١][١] فكلها أمور يسيرة لا يمكن عدّها من المتشابه اللفظي.

جـ- الفواصل التي تبدو غير مناسبة من حيث الظاهر، فنجد ابن الزبير يبيّن مناسبتها للنظم القرآني، وأنه لا يصلح غيرها مكانها. ومع جلالة هذا العمل إلا أنه يلحق بالأبحاث المتعلّقة بالفاصلة القرآنية وليس بموضوع المتشابه اللفظي [٢].

فمن ذلك قوله تعالى في المائدة : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [١١٨] كما هو عند ابن الزبير حيث يذكر في هذا الصدد آية أخرى في الممتحنة[٣].

د- العبارات القرآنية القصيرة الواردة في أكثر من موطن، حيث تختلف باختلاف المواقف أو اختلاف القائلين، وكثر هذا عند الكرماني، فانظر مثلا إلى حديثه في سورة يوسف، حيث يذكر ما جاء على لسان الملك ويوسف عبارة ﴿معاذ الله﴾ [يوسف/ ٢٣، ٧٩] وقوله: ﴿إنّا نراك من المحسنين﴾ [يوسف/ ٣٦، ٧٨] مرة على لسان صاحبي السجن ليوسف، والثانية على لسان أخي يوسف لملك مصر، وهكذا حيث يكثر من إيراد هذه العبارات القصيرة [٤].

هـ- الدقائق التفسيرية التي كان يعرض لها الكرماني والغرناطي وبخاصة في السور التي لا يوجد فيها تشابه كثير، ويكثر هذا في الأجزاء الأخيرة من القرآن لأن مواطن التشابه قد أستوفي الحديث عنها في مواضع متقدمة [٥]. ومثل هذا لا يعد من المتشابه اللفظي.

الآيات المختلف في كونها من المتشابه اللفظي أو غيره من أضرب البيان القرآني :

من خلال الجولة الاستقرائية التي قمت بها في كتب المتشابه اللفظي، كنت ألاحظ بين الحين والآخر بعض المتشابهات ـ كما عدّها أصحاب تلك الكتب فيلتبس أمرها بالنسبة لي من حيث إدخالها في دائرة الآيات المتشابهات. وقد قمت بتصنيف هذه الآيات في مجموعات مختلفة وأبديت في كل مجموعة منها رأياً صريحا بالنسبة لكونها من المتشابه أو لا، وذلك بعد طول فكر وروية في هذه الأصناف من الآيات الكريمة، وخصوصا أن هذا الموضوع لم يطرق بالبحث والدراسة من قبل. فما كان إلا أن أجمعت أمري وصنّفت هذه الآيات على النحو التالي :

---

(١) انظر البرهان، ص ٣٨، فقرة ٤٤.

(٢) انظر مثلاً السيوطي، معترك الأقران، ١/٤٦، حيث يتحدث عن مثل هذه المواضع من الاختلاف في ضمن حديثه عن الفاصلة القرآنية.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٢٧٦.

(٤) انظر البرهان ص ١٠٠، ١٠١، الفقرة ٢٢٤ و٢٢٩.

(٥) انظر المرجع السابق، ص ٣٣، فقرة ٣٠، حيث يتحدث عن مناسبة قوله في البقرة ١٦٣ ﴿لقوم يعقلون﴾، وانظر كلامه أيضا في سورة العاديات ص ٢١٠، فقرة ٥٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ) الفواصل الختامية المعقّب بها على بديع صنعه تعالى في المخلوقات : مثل الآيات التي في سورة الأنعام ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون**﴾ [٩٧]، ثم قال : ﴿**لقوم يفقهون**﴾ [٩٨]، وبعدها ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ [٩٩]، ومثلها في الرعد والروم. ولقد كثر حديث كتب المتشابه اللفظي عن مثل هذه الفواصل ومناسبتها لما ختمت به من الآيات. والحق أن هذا من المتشابه اللفظي الذي لا بد من بيان وجه التناسب فيه. وسيأتي تفصيل ذلك في الدراسة التطبيقية من الباب الثاني إن شاء الله .

ب) الآيات المتشابهة من حيث المعنى لا من حيث اللفظ : ففي حين يعرض صاحب الدرة للتشابه الواقع بين الآيتين في سورة الملك ﴿**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض**﴾ [١٦] ثم قال في الآية بعدها : ﴿**أن يرسل عليكم حاصبا**﴾ [١٧] فيتحدث عن تقديم الخسف على الحاصب. تلاحظ من جهة ثانية أن ابن الزبير يتكلف الإتيان بموضع مشابه لهذه الآيات من الملك وذلك من سورة الأنعام﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾[٦٥][(١)] فهذا تشابه من حيث المعنى وليس من حيث اللفظ فلا يكون من اللفظي.

ج) متشابهات مردها التكلف في ذكر القراآت القرآنية : ويكثر مثل هذا النوع عند ابن الزبير، فأحيانا نجده يذكر النظائر المتشابهة معلّلا بمجيء قراءتين سبعيتين في بعض الآيات دون بعض، ومثاله ما أورده في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿**مالك يوم الدين**﴾ [٣][(٢)] وستأتي مناقشته بذلك بعد -إن شاء الله-.

وأحيانا أخرى يأتي بقراءة أخرى لبعض النظائر المتشابهة موفقا بينها وبين آية أخرى كحديثه مثلا في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿**ولا يسمع الصمّ الدعاء إذا ما ينذرون**﴾ [٤٥] حيث يجمع بينها وبين آية النمل ﴿**ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين**﴾ [٨٠][(٣)] فهذا يمكن أن يدخل في دائرة المتشابه اللفظي ولكن بتكلف واضح.

د) المتشابهات المعقّب بها على المواقف المختلفة والقصص القرآني : تأتي على وجهين :

الأول : التوجيهات والتعقيبات التي تأتي في وسط الآيات أمثال ما كان يعرض له الكرماني كقوله تعالى: ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى**﴾ [البقرة/١٢٠]، وقوله : ﴿**قل إن الهدى هدى الله**﴾ [آل عمران /٧٣][(٤)] فمثل هذا يمكن عدّه من المتشابه اللفظي.

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٤٩٢، وملاك التأويل ٩٠٨/٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢٤/١ ٢٦.

(٣) انظر المرجع السابق ٦٩٦/٢.

(٤) انظر البرهان للكرماني ص ٤٥، فقرة ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والثاني : الحقائق المعقب بها على القصص والمواقف من الفواصل التي تكون في آخر الآيات، وهذا أيضا من المتشابه اللفظي كقوله تعالى: ﴿**إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون**﴾ [يونس/٦٠]، وقال في أخرى : ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ [غافر/٦١].

وقد تكون هذه التوجيهات مكوّنة من آية واحدة كقوله تعالى : ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾ [البقرة/١٤٧]، وفي آل عمران: ﴿**فلا تكن من الممترين**﴾ [٦٠] بدون تأكيد . فكلها توجيهات وإن تكررت في مواقف مختلفة إلا أن المكرر واحد فيدخل في دائرة المتشابه اللفظي.

هـ) الآيات المتشابهة التي تتحدث عن موصوفين مختلفين كقوله تعالى : ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [البقرة /٥٧]، وفي أخرى: ﴿**ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ [آل عمران /١١٧] فالأولى في سورة البقرة تحدثت عمّن مضى من أهل الكتاب، أما آية آل عمران فتحدثت عمّن كانوا حاضرين فلم يحتج للفظ [كانوا] [(١)]. وهذا يمكن أن يجعل من المتشابه لأنها حقيقة تم تكريرها في أكثر من مقام.

و) الألفاظ المكررة في آية واحدة أو آيتين متجاورتين، وهذا لا يكون إلا من باب التفسير على الأغلب كقوله تعالى : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة /٤]، وقوله: ﴿**فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه**﴾ [النساء/ ٩٥، ٩٦]، حيث يكثر إيراد الكرماني لمثل هذه المواضع [(٢)].

فمثل هذه الآيات ليست بالقصص ولا الموضوعات المكررة وإنما هناك أغراض بيانية وراء تكرارها يمكن أن تدرك من خلال الفهم التحليلي للنصوص القرآنية.

ز) التكرار الحاصل في القصة الواحدة لكنّه بين مشهدين متقابلين، كذكر مشهد النعيم في مقابلة مشهد العذاب والموضوع واحد وهو الحديث عن الجزاء الأخروي. من ذلك قوله تعالى في الزمر [٧١] في وصف الكفار حين يأتون إلى النار : ﴿**حتّى إذا جاؤوها فتحت أبوابها**﴾، وقال في شأن المتّقين الآية [٧٣] : ﴿**حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها**﴾.

ح) وقد تكون القصة واحدة لكن المشاهد مختلفة وغير متقابلة، وتكرّر بنفس الألفاظ، وهذا كسابقه من المتشابه لاتحاد القصة. من ذلك ما جاء من الاختلاف بين الآيات في وصف أهوال القيامة، ففي الزخرف [٣٨] : ﴿**حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين**﴾، وفي فصلت [٢٠] : ﴿**حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون**﴾.

---

(١) انظر البرهان للكرماني ص ٢٧، فقرة ١٦.

(٢) انظر البرهان ص ٢٠، فقرة ٢، و ص ٤٩، فقرة ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلكم هي الأمور المختلف في كونها من المتشابه اللفظي أو غيره. وآثرت أن أستقرئ هذه الآيات لأعطي فيها رأيا واضحا في كونها من المتشابه أو لا، ولا يرجع هذا الأمر إلا لنسبة اعتبارية محضة فالبيان القرآني واحد من حيث الإعجاز سواء كان ذلك من المتشابه اللفظي أم غير المتشابه من أضرب البيان القرآني الأخرى.

المطلب الثالث : الحكمة من وجود المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

إن من وراء وجود المتشابه اللفظي في القرآن الكريم حكمة عامة، وهي تحقيق إعجاز القرآن الكريم. جاء في البرهان و " حكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدئا ومتكررا "[١]. فلا ريب أن في ذلك مزيدا من التحدي. ومعلوم أن القرآن حينما تحدى العرب إنما تحداهم من حيث النظم والتأليف، فقد قال الله تعالى : ﴿**قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾ [هود/١٣][٢] أي مكذوبات في معانيها بشرط أن تكون في نظم يشبه نظم القرآن الكريم. فموضوع هذا العلم دراسة الآيات المتشابهه وإيجاد ما بينها من فروق بيانية حتى يتحقق بذلك الإعجاز البياني للقرآن.

أما الحكم الخاصة التي تكمن من وراء معرفة المتشابه اللفظي في القرآن فهي كثيرة أجملها في ما يأتي :

١) الإعانة على حفظ القرآن الكريم، حيث إن معرفة هذه الأماكن المتشابهة تبعد عن الحافظ لكتاب الله الوقوع في الخلط واللبس بين المواضع المختلفة من السور القرآنية.

٢) التصدي للشبهات المثارة حول القرآن الكريم، فبمعرفة المتشابه اللفظي والحكم البيانية من وراء تكرير الآيات المتشابهات يتمكن المرء من الذب عن القرآن الكريم والدفاع عنه أمام المطاعن كدحض شبهة التكرار الخالي من الفائدة وإثبات الحكم البيانية والمعالجات الواقعية التي يقدمها القصص القرآني لكل ما نواجه من مصاعب وأهوال.

٣) تحصيل العلوم المختلفة في توجيه الآيات المتشابهات من علوم لغوية وغيرها.

٤) تقوية ملكة الاجتهاد والتخلص من ظلمة التقليد عند من يريد دراسة الآيات المتشابهة تشابها لفظيا، حيث إن الأفهام تتفاضل والعقول تتفاوت في فهم الأغراض البيانية الكامنة خلف هذا التكرار للقصص والموضوعات القرآنية. ولا ريب أن في ذلك فسحة للعقول في أن تنطلق مفتشة عن أسرار

---

(١) الزركشي، البرهان، ١/١١٢.

(٢) الجرجاني، الرسالة الشافية، انظر ص ١٢٩-١٣١، (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البيان القرآني من دون زيغ أو انحراف عن الثوابت والأصول العامة التي لا ينبغي للمفسر أن يخرج عنها [١].

المطلب الرابع : علم المتشابه اللفظي والعلوم الأخرى

علم الآيات المتشابهات هو من فروع علوم القرآن المهمة التي ينبغي أن توظف في خدمته سائر آلات العلوم المختلفة من علوم لغوية كالنحو والبلاغة ومفردات القرآن وغير ذلك من العلوم اللغوية. وكذلك الحال بالنسبة لعلوم القرآن الأخرى من المناسبات وأسباب النزول وترتيب الآيات والسور، فكل ذلك يمكن أن يكون آلة صالحة يعوّل عليها في فهم الآيات المتشابهات. وهذا ما سوف أفصل الحديث فيه حين أحدثك عن مصادر كتب المتشابه اللفظي التي اعتمدوا عليها في توجيه ما تكرر من القرآن.

ولكن الذي أردته هنا شيء آخر، ذلك هو الحديث عن علمين : الأول منهما له صلة وثيقة بعلم المتشابه اللفظي، والثاني لا صلة له بهذا العلم مع أن الكثيرين يخلطون بينهما. فالأول هو علم إعجاز القرآن. والثاني هو علم المحكم والمتشابه.

أ) المتشابه اللفظي وعلم إعجاز القرآن :

يعد علم المتشابه اللفظي أصلا مهما من الأصول التي تقوم عليها الدراسات في علم إعجاز القرآن. ولقد علمت من قبل كيف أن علم الآيات المتشابهات هو من الركائز المهمة التي يتحقق بها الإعجاز في ثوبه البياني.

ومن هنا فإن دراسة المتشابه من الناحية التطبيقية على نصوص القرآن تعد الرافد الأصيل والمنبع الأم الذي يغذي علم إعجاز القرآن من حيث التطبيق. وبهذا يكون بين العلمين عموم وخصوص من هذا الوجه، حيث إن فهم الآيات المتشابهات يصبح جانبا مهمًا من جوانب فهم الإعجاز البياني من الوجهة التطبيقية.

هذا وقد تصدى بعض القدماء الذين كتبوا في الإعجاز لبعض الشبهات الطاعنة في ما تشابه من القرآن. وعلى رأسهم أبو سليمان الخطّابي رحمه الله ـ، فقد أجاب عن شبهة التكرار مقسما في البداية التكرار إلى ضربين : الأول ما يستغنى عنه في الكلام وهو هجين مذموم. والثاني ما لا يستغنى عنه وهو محمود، ومثّل له بشيء من أشعار العرب. ثمّ قال : " وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله

---

(١) تم استنباط مثل هذه الحكم في معرفة علم المتشابه اللفظي من كلام الرازي حول الآية السابعة من آل عمران ﴿وأخر متشابهات﴾، ومع أن كلام الرازي كان في المتشابه الذي هو ضد المحكم إلا أنه لا يمنع من اشتراك هذين النوعين في بعض الحكم أعني المتشابه اللفظي من جهة، والمتشابه الذي يعرفه العلماء والعامة من جهة ثانية- (انظر الرازي، مفتاح الغيب، ١٧٢/٣، والزرقاني، مناهل العرفان ٢٨٥/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن، فقال سبحانه : ﴿ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ [القصص/٥١]، ثم يجيب عن التكرار الواقع في سورة الرحمن فيقول: " وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإنس والجن وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدّد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه. وهي أنواع مختلفة وفنون شتى. وكذلك هي في سورة المرسلات، ذكر أحوال القيامة وأهوالها فقدّم الوعيد فيها وجدّد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ في القرآن وآوكد لإقامة الحجة والأعذار ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة". (١)

و لم يكتف الخطابي بدفع شبهة التكرار غير المفيد في القرآن بل افترض شبهة أخرى قد تفهم من كلامه المتقدم حول التكرار في آية الرحمن، فها هو يقول مستدركا : " فإن قيل : إذا كان المعنى في تكرير قوله : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن/١٣] تجديد ذكر النعم في هذه السورة واقتضاء الشكر عليها، فما معنى قوله : ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ [الرحمن/٣٥] ثم أتبعه قوله : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فأي موضع نعمة ها هنا وهو إنما يتوعدهم بموضع لهب السعير والدخان المستطير ؟ قيل : إن نعمة الله في ما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها (٢).

وهكذا تلاحظ كيف أن علماءنا قد عنوا عناية فائقة بفهم الآيات المتشابهة والمتكررة في أكثر من موضع من القرآن. كما تلاحظ من جهة ثانية كيف أن الدراسات حول الآيات المتشابهات كانت بمثابة الأم التي تمخّض عنها دراسة الإعجاز من حيث التطبيق وسائر العلوم الأخرى المرتبطة بفهم القرآن الكريم.

ب) المتشابه اللفظي وعلاقته بعلم المحكم والمتشابه :

أرى أن فهم العلاقة بين علم المتشابه اللفظي من جهة، وعلم المحكم والمتشابه من جهة ثانية، بات من الضرورة بمكان. فكثيرا ما يخلط الناس بين هذين العلمين حتى على مستوى الفئة المتخصصة منهم. فإذا ما سألت أحدهم عن كتاب في المتشابه اللفظي أرشدك إلى كتاب القاضي عبد الجبار الهمذاني الذي هو بعنوان متشابه القرآن (٣).

---

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص ٤٧، ٤٨، ضمن الرسائل الثلاث.

(٢) الخطابي، بيان إعجاز القرآن ص ٤٩.

(٣) هو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الهمذاني الازدأبادي، شيخ المعتزلة ، وكتابه (متشابه القرآن) يعتبر في باب المحكم والمتشابه وتقرير مذهب المعتزلة في هذا الموضوع. ت ٤١٥ هـ. (السيوطي، طبقات المفسرين ص ٤٨، رقم ٤٧).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتلاحظ من جهة ثانية أن البعض حينما يتناولون علم المتشابه اللفظي بالدراسة والتقديم سرعان ما يتجهون للحديث عن أقسام المتشابه وأنواعه التي ذكرها الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن [١].

والأدهى والأمر أن فريقا ثالثا يخلط بين المتشابه اللفظي والمحكم والمتشابه وعلوم أخرى كالآيات الموهمة للتعارض والاختلاف المذكورة في كتب علوم القرآن، ويطلقون عليها اسما مشتركًا ألا وهو متشابهات القرآن [٢].

وبناء على ما تقدم، وإزاء هذا الخلط الواضح رأيت أن من الضروري أن أوضح العلاقة بين هذين العلمين، مع أن الأمر لا يخفى على ذي لب عنده اطلاع يسير في مباحث علوم القرآن. ومن هنا فإن الفرق بين هذين العلمين يكمن في ما يأتي :

١) إن المتشابه هو ما يقابل المحكم وهو ما أشكل تفسيره وخفيت دلالته على المعنى [٣]. في حين أن المتشابه اللفظي ما تكرر من القرآن بألفاظ متقاربة أو متماثلة و لم يشكل معناه لمن يطلب معرفة توجيهه.

٢) يكون الخفاء في المتشابه الذي يقابل المحكم في اللفظ أو في المعنى أو هما معا [٤]، بينما في المتشابه اللفظي يكون التكرار في اللفظ بمعاني جديدة.

٣) إن معنى المتشابه اللفظي من الناحية الاصطلاحية أقرب إلى الأصل اللغوي لمادة التشابه وهي المماثلة. في حين أن معنى المتشابه الذي يقابل المحكم يأخذ مسلكا أكثر بعدا عن المماثلة في الناحية الاصطلاحية.

٤) إن المتشابه اللفظي يمكن إدراك حكمة التكرار فيه بالتدبر لكتاب الله مستعينين بآلات من العلوم المختلفة. بينما المتشابه الذي في مقابل المحكم منه ما استأثر الله بعلمه ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما يعرفه العامة والخاصة.

المتشابه المعنوي، أما المتشابه المعنوي فهو في الأصل ما كان خفاؤه من جهة المعنى كآيات الصفات كقوله تعالى : ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ [الفتح/١٠]، وقوله : ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ [الأعراف/٥٤]، فمثل هذه الآيات أشكل فهم معانيها، وللعلماء فيها مذاهب مختلفة ما بين التأويل أو

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، انظر ص ٤٤٣-٤٤٥.

(٢) من الكتب التي مزجت بين المتشابه اللفظي وموهم التعارض والاختلاف كتاب خليل ياسين (أضواء على متشابهات القرآن)، كما كتب الشيخ الشنقيطي في الجزء العاشر من أضواء البيان كتابا سماه (دفع إيهام الاضطراب عن فهم آي الكتاب)، وذكر أنه في المتشابه لكنه في الآيات المتعارضة، وانظر مقدمة الطالب صديق موسى أحمد على كتاب (كشف المعاني) لابن جماعة، ص ٥٢-٥٦، تجد لديه الجم الغفير من الخلط الكثير بين هذه الموضوعات حيث يدمجها في موضوع واحد وهو المتشابه في القرآن على حد قوله-.

(٣) الراغب، مفردات القرآن، ص ٤٤٤.

(٤) الراغب، مفردات القرآن، ص ٤٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحمل على الظاهر أو التفويض [١]. والصحيح مذهب التأويل فتحمل اليد على القدرة والاستواء بمعنى الاستيلاء والله أعلم بمراده.

وهناك ضرب آخر من الآيات المتشابهة، وهو ما يقابل المتشابه اللفظي، وهي الآيات التي تباعدت ألفاظها وتقاربت معانيها. ونستطيع أن نسميه متشابها في المعنى من حيث العرف اللغوي وليس من حيث العرف الاصطلاحي. ويمكن أن يدخل في هذا اللون ما تشابهت معانيه دون ألفاظه، وهي الآيات التي يصدّق بعضها بعضا، كقوله تعالى : ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾ [الأنعام/٦٨]، وقوله : ﴿**وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾ [النساء /١٤٠]، ومثله في القرآن كثير.

أما الآيات المتعارضة من حيث الظاهر كالتي أفردها بعض المحدثين بالتصنيف كالشنقيطي في (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، فهذا ليس من المتشابه اللفظي ولا المعنوي، إنما أطلق عليه السلف اسما آخر وهو الآيات الموهمة للتعارض والاختلاف [٢]. وهو ما لا دخل له في المتشابه اللفظي.

تلكم هي إصطلاحات متفرقة أحببت أن أبدي فيها رأيا منذ البداية، ليتم استبعاد بعضها من ساحة هذه الدراسة، باستثناء الآيات المتشابهة تشابها لفظيا، لأنه موضوع هذا العمل.

ويجدر بي أن أقرر في نهاية هذا المبحث أن استبعاد الآيات المتعارضة من حيث الظاهر وما شاكلها مما هو ليس من المتشابه اللفظي من ساحة هذه الدراسة لا يعني الحط من قيمة ما كتب الآخرون في الدراسات القرآنية، وإنما الذي أردته أن أدرس المتشابه اللفظي على حدة، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

---

(١) الزرقاني، مناهل العرفان ٢/٢٨٦-٢٩٣.

(٢) انظر مثلا السيوطي، الإتقان ٢/٥٧-٦٦، حيث يتحدث عن الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض والاختلاف، وهي قريبة مما ذكره الشيخ الشنقيطي في الجزء الأخير من كتابه (أضواء البيان).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني

التأليف والتصنيف في المتشابه اللفظي

المطلب الأول : جهود الأقدمين

كادت المصادر وكتب التراجم تجمع على أن كتاب درة التنزيل للخطيب الاسكافي هو من أقدم ما وصل إلينا في هذا العلم، يليه كتاب البرهان للكرماني ثم ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي.

ويحسن هنا أن أذكر عبارة كلّ من الزركشي والسيوطي في هذا الشأن، جاء عن الإمام الزركشي قوله : " وقد صنّف فيه جماعة، ونظمه السخاوي [١] وصنّف في توجيهه الكرماني كتاب البرهان والرازي كتاب درة التأويل، وأبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها في مجلّدين" [٢].

وقال السيوطي : " أفرده بالتصنيف خلق، أولهم فيما أحسب الكسائي [٣] ونظمه السخاوي وألف في توجيهه الكرماني كتاب البرهان في متشابه القرآن. وأحسن منه كتاب درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله الرازي وأحسن من هذا ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير و لم أقف عليه. وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سمّاه كشف المعاني في المتشابه المثاني ". وفي كتاب أسرار التنزيل المسمى قطف الأزهار في كشف الأسرار من ذلك الجم الغفير [٤].

ومما تقدم يمكنني أن أسجل الحقائق التالية :

١) اتفاق الزركشي والسيوطي في ذكر أسماء ثلاثة من الكتب في علم المتشابه اللفظي، هي منظومة السخاوي وكتاب البرهان للكرماني وكتاب ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير، مع أن الزركشي أشار إلى الأخير باسم صاحبه دون أن يسم الكتاب صراحة. وقد وصل إلينا كتابا الكرماني وابن الزبير و لم تصل إلينا المنظومة السخاوية [٥].

---

(١) السخاوي هو علي بن محمد بن عبد الصمد، علم الدين أبو الحسن الهمذاني السخاوي المصري، الإمام العالم المقرئ المحقق المفسر، ت ٦٤٣ هـ (السيوطي، طبقات المفسرين، ص ٧٢، ٧٣، برقم ٧٨).

(٢) الزركشي، البرهان، ١/١١٢.

(٣) الكسائي هو شيخ القراء والعربية، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي، ت ١٨٩ هـ. (الذهبي، السير ٩/١٣١ ١٣٤ رقم ٤٤).

(٤) السيوطي، الاتقان، ٢/٢٤٨.

(٥) يظهر أن المقصود بالسخاوية منظومة شعرية للسخاوي في الآيات المتشابهات، وقد أشار الأستاذ سعيد الفلاّح إلى ذلك وذكر أن اسمها (هداية المرتاب) (انظر النسخة الأخرى من ملاك التأويل ١/١٠٨ من تحقيق سعيد الفلاح، وانظر حاجي خليفة، كشف الظنون ٢/١٠٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢) ونلحظ من جهة ثانية اختلاف الزركشي والسيوطي في ذكر كتاب درة التنزيل. فقد سماه الزركشي درة التأويل ونسبه للرازي، وسماه السيوطي درة التنزيل وغرة التأويل ونسبه لأبي عبد الله الرازي. فهل هما كتابان مختلفان ؟ وهل أبو عبد الله الرازي هو الرازي نفسه كما أشار الإمام الزركشي ؟ هذه تساؤلات جديرة بالاهتمام والعناية، وسوف أتناول الحديث عنها في موضع آخر من هذه الدراسة بإذن الله.

٣) ومما يلحظ هنا إضافة السيوطي لكتب أخرى، وهي كتاب الكسائي، وبنى العلم فيه على الظن، وهذا الكتاب غير موجود - في ما أعلم. وكتاب كشف المعاني لابن جماعة وسيأتي الحديث عنه وكتاب أسرار التنزيل المسمى بـ " قطف الأزهار " الذي لم أعثر عليه أيضا.

هذا ومن الملاحظ أن عبارة كل من الزركشي والسيوطي رحمهما الله جاءت مختصرة مقتضبة للجهود التي قامت على خدمة المتشابه اللفظي. لذا آثرت أن أفصل الحديث عن جهود الأقدمين في هذا الفن في قسمين : الأول : في الدراسات المتخصصة، والثاني : في غير المتخصصة.

أ) الجهود المتخصصة في علم المتشابه اللفظي :

وتشمل الكتب الآتية :

١ – درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات من كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ) برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، وهو من أقدم ما وصل إلينا من المصنفات في هذا العلم.

٢ – البرهان في توجيه متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت ٥٠٥ هـ)، وهو أكثر اختصارا، وغالب ما جاء من مادته العلمية اقتباس من أقوال الخطيب في درة التنزيل.

٣ – كتاب ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ)، وهذا الكتاب وسابقاه هي الكتب المعول عليها في علم المتشابه اللفظي، وتشكل الأصول لهذه الدراسة.

٤ – كتاب كشف المعاني في المتشابه المثاني للقاضي بدر الدين بن جماعة[1] ،وهذا من الكتب المتخصصة في توجيه المتشابه اللفظي، إلا أن عبارته مختصرة في توجيه الآيات المتشابهات، ويمتاز بما يلي :

(١) يحتوي كتاب كشف المعاني على مسائل الآيات المتشابهات تشابها لفظيا مضافًا إليها مسائل أخرى في بعض الدقائق التفسيرية أو في حل بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض والاختلاف، من ذلك على سبيل المثال ما تعرض له من التفسير قوله : " مسألة : قوله تعالى : ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾ [البقرة /١٦] و لم يقل خسرت مع أن الخسران أبلغ في التوبيخ. جوابه : إنّ همّ المشتري

(١) هو ابن جماعة، قاضي القضاة محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، من ٦٣٩-٧٢٣ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من التجارة هو حصول الربح وسلامة رأس المال فبدأ بالأهم فيه وهو نفي الربح ثم أتى بما يدل على الخسران بقوله : ﴿**وما كانوا مهتدين**﴾ فنفى ما هما المقصودان من التجارة "[١].

ومن توفيقه بين بعض الآيات المتعارضة من حيث الظاهر " قوله تعالى : ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات**﴾[البقرة /٢٩]، وفي النازعات ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ [٣٠] ظاهر آية البقرة وحم السجدة تقدم خلقه الأقوات وظاهر النازعات تأخره. جوابه : أنّ [ثم] هنا وفي السجدة لترتيب الأخبار لا لترتيب الوقوع، ولا يلزم من ترتيب الأخبار ترتيب الوقوع كقوله تعالى :﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ثم آتينا موسى الكتاب**﴾ [الأنعام /١٥٣، ١٥٤] ولا ريب في تقدم إيتاء موسى الكتاب على وصيته لهذه الأمة "[٢].

أما القسم الأكبر من كتاب ابن جماعة فكان في توجيه الآيات المتشابهات بشكل موجز موفٍ للغرض. ومن الواضح تأثر ابن جماعة بكتب المتشابه اللفظي كالدرة والبرهان وإن لم يصرح بهذا.

وأكتفي الآن بمثال واحد أبين من خلاله كيف قام ابن جماعة بتوجيه بعض المتشابهات من الآيات، فمن ذلك قوله في سورة البقرة : " مسألة : قوله تعالى : ﴿**بغير الحق**﴾ [البقرة /٦١]، وقال في آل عمران : ﴿**بغير حق**﴾ [١١٢]. فعرّف هنا في البقرة ونكّر هناك في آل عمران. جوابه : أن آية البقرة نزلت في قدماء اليهود بدليل قوله تعالى : ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله**﴾ والمراد بغير الحق الموجب للقتل عندهم بل قتلوهم ظلما وعدوانا. وآية آل عمران في الموجودين زمن النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ [آل عمران/٢١]، وقوله تعالى :﴿**إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون**﴾، وبدليل قوله في الثانية : ﴿**لن يضروكم إلا أذى**﴾ [آل عمران/١١١]. إنهم كانوا حرصاء على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك سمّوه، ولكن الله عصمه منهم فنجّاه فجاء منكرا ليكون أعمّ فقوّى الشناعة عليهم والتوبيخ لهم لأن قوله تعالى:﴿**بغير حق**﴾بمعنى قوله:﴿**ظلما وعدوانا**﴾ وهذا هو جواب من قال ما فائدة قوله بغير الحق وبغير حق؟ والأنبياء لا تقتل إلا بغير حق[٣].

فبهذه الروح كان ابن جماعة رحمه الله يأتي في توجيه بعض المتشابهات، وسنلمّ بالكثير من أفكار الرجل في هذا الشأن في باب الدراسة التطبيقية لنرى ما هو الجديد الذي أضافه في توجيه المتشابه إضافة إلى ما ذكرته الكتب الثلاثة المتقدمة المراد إفرادها بالدراسة والبحث.

---

(١) ابن جماعة، كشف المعاني، ص٩١، مسألة ١٦.

(٢) ابن جماعة، كشف المعاني، ص ٩٥، مسألة ٢٠، والمقصود بآية السجدة قوله تعالى : ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين... إلى قوله : ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ [فصلت / ٩ - ١٢].

(٣) ابن جماعة، كشف المعاني، ص ١٠٨، مسألة ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢) تركيز ابن جماعة على فكرة التفنّن في الفصاحة حينما يوجّه بعض المتشابهات كحديثه عن الانفجار والإنبجاس ما بين البقرة والأعراف، والفرق بين (السين) و (سوف) بين الأنعام والشعراء [١]. وهذا كلام يؤخذ عليه، ذلك أن كلام البلغاء تكمن من ورائه حكم بيانية أخرى غير محصورة بالتفنّن في الفصاحة، بل لا بدّ من قيمة معنوية أخرى كانت وراء التنويع في التعبير القرآني.

(٣) إغفال ابن جماعة لبعض المتشابهات ممّا جاء في كتب المتشابه اللفظي الثلاثة، وفي هذا الصدد يلاحظ حديثه بشكل مقتضب عن القصص المكررة كقصة موسى بين الأعراف والشعراء أو بين طه والنمل والقصص حيث يعرض لها بشكل أكثر اختصارا من كتب المتشابه اللفظي. ففي أول سورة الأعراف مثلا يورد سبب اختلاف الألفاظ في القصص القرآني بشكل مقتضب [٢] وكأنه يكتفي بهذه المسألة ولا يريد الإطالة في هذا الموضوع.

(٤) ومما يمتاز به ابن جماعة أيضا تنبيهه على بعض المتشابهات مما ليس في كتب المتشابه اللفظي، مثال ذلك ما جاء بين آيتي آل عمران [١٩٠] ويونس [٦] ففي الأولى قال : ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾، وفي الثانية قال : ﴿**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**﴾، ومثله بين آيتي الفرقان [٥٨] والشعراء [٢١٧] الأولى قوله تعالى : ﴿**فتوكل على الحي الذي لا يموت**﴾، والثانية قوله : ﴿**وتوكل على العزيز الرحيم**﴾[٣] فمثل هذه المغفلات من كتب المتشابه كان ابن جماعة يتعرض للحديث عنها. وهذا ما سأبينه بالتفصيل إن شاء الله عندما أتحدث عن مغفل كل سورة من سور القرآن مما لم تتنبه كتب المتشابه اللفظي إلى ذكره.

(٥) ومما يذكر لابن جماعة أيضا تكرار الحديث حول بعض المتشابهات كالآيات التي تقدم النفع على الضر أو بالعكس في ذلك حيث كرر ابن جماعة الحديث عن هذه المواضع في نحو من سبع مسائل[٤].

(٦) ويلحظ أن ابن جماعة كسلفه من أصحاب كتب المتشابه يتبنى أراء تقليدية في حل بعض المتشابهات كتقديم موسى على هارون في الأعراف والشعراء وعكس ذلك في سورة طه [٥].

(٧) الإيجاز وعدم الاستطراد في الفروع الأخرى، لهذا جاء الاستشهاد بالحديث والشعر عنده على الندرة، حيث لم يورد ذلك إلا مرتين أو ثلاثاً في جميع مادة كتابه.

---

(١) كشف المعاني، ص ١٠٧، مسألة ٣١. وص ١٩٣، مسألة ١١٢.

(٢) انظر كشف المعاني ص ٢٣٣، مسألة ٤١ حيث يبين ابن جماعة أن المعبّر عنه هو المعاني لهذه القصص، وما اختلف من ألفاظ هذه القصص وأنما هي معاني جديدة تنفرد بعض السور بإضافتها دون بعض.

(٣) ابن جماعة، كشف المعاني، ص ١٦٦، مسألة ٨٥. وص ٣٨٤، مسألة ٢٩٩.

(٤) المرجع السابق ص ١٨٨، ٢٠٤، ٢٤٥، ٢٦٦، ٢٩٣، ٣٨١، ٣٨٣، وهي المواضع التي تم فيها الحديث عن تقديم الضر على النفع أو عكس ذلك.

(٥) انظر كشف المعاني، ص ٢٤٣، مسألة ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالجملة فإن كتاب كشف المعاني يعد من الكتب النافعة في هذا العلم، حيث جاء ملبيا حاجة الطلبة الذين ألف الكتاب من أجلهم. كما يصرح بهذا ابن جماعة في مقدمته حيث قال إن سبب تصنيفه لهذا الكتاب هو تزايد حاجة طلاّب المدارس وكثرة أسئلتهم حول متشابه القرآن، الأمر الذي دعاه إلى إعداد هذا الكتاب [١] حيث جعله بأسلوب سهل وميسر يتناسب مع حال السائلين.

ب) الجهود التي لم تفرد المتشابه اللفظي بالتأليف :

وهذه الجهود تتمثل فيما ذكرته كتب علوم القرآن والإعجاز وكتب التفسير المختلفة، ويمكن تصنيفها في ما يأتي :

١ – كتب علوم القرآن :

ومن أوائل من تعرض لذكر المتشابه اللفظي من ناحية التقعيد النظري لهذا العلم الإمام الزركشي، وقد مزج الزركشي حين تعرض لمسائل هذا العلم بين النظرية والتطبيق كعادته في ذكر علوم القرآن.

أما من الناحية النظرية فقد عرّف المتشابه اللفظي وذكر من صنّفوا فيه وحكمة وجوده في القرآن وأنواعه التي كان أول من أشار إليها [٢].

وسيأتي الحديث عن أنواع المتشابه اللفظي التي ذكرها الزركشي عند الحديث عن منهج القرآن الكريم في عرض الآيات المتشابهات وصور هذا المنهج.

أما من الناحية التطبيقية فقد قام الإمام الزركشي بتوجيه بعض المتشابهات وذلك في حدود ما يتناسب مع الموضوع الذي عرض له، فنجده يوجّه آيتي البقرة [٤٨، ١٢٣] ﴿**واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا**﴾ كما ويتحدث عن الآيات التي قدم فيها اللهو على اللعب والآيات التي هي على العكس من ذلك، وغير ذلك من الآيات التي سنتعرض لها في الدراسة التطبيقية [٣]، وسنكون أكثر إلماما بآرائه التي جاءت في معظمها مزجا بين النظرية والتطبيق.

وجاء السيوطي الذي سار على سنن سلفه، لكنه ذكر علم الآيات المتشابهات من جانبه النظري بشكل مقتضب معناه وحكمته ومن صنّفوا فيه ثم اختصر كلام الزركشي في بيان أنواعه. أما من حيث التطبيق فاكتفى بتوجيه بعض الآيات المتشابهات. ومن ذلك مثلا تفريقه بين الآيتين ﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض**﴾ [التوبة /٦٧]، وقوله تعالى : ﴿**المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء**

---

(١) انظر مقدمة كشف المعاني ص ٧٥.

(٢) الزركشي، البرهان، انظر ١/١١٢ ١٥٤.

(٣) الزركشي، البرهان، انظر ١/١٢١ ١٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض﴾ [التوبة /٧١][1]. ومما يلحظ هنا أن كثيرا مما أورده السيوطي في الاتقان كان منقولا عن البرهان للكرماني.

٢ـ الكتب التي كتبت حول إعجاز ولطائف القرآن :

حيث كانت تأتي في بعض فصولها على ذكر المتشابه اللفظي، وأخص من ذلك كتابين :

الأول : كتاب " معترك الأقران " للسيوطي، وقد جعل فيه الإمام السيوطي الآيات المتشابهات وجهًا سادسًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم حيث أوصل هذه الوجوه التي تحدث عنها إلى خمسة وثلاثين وجها، وعد منها تناسُبَ الآيات والفواصل والتقديمَ والتأخيرَ، ومعظمْ هذه الوجوه بما فيها الآيات المتشابهة يمكن أن يندرج تحت دائرة الإعجاز البياني بوجوهه وأشكاله المختلفة.

ويمتاز حديث الإمام السيوطي عن علم المتشابه اللفظي في كتاب معترك الأقران بأنه كان أكثر اتساعا مما جاء في الإتقان كما مرّ. فبعد أن أعاد تعريف المتشابه ومن صنّفوا فيه، تحدّث عن توجيه الآيات المتشابهات في معظم سورة البقرة وبعض المختارات من سور أخرى. ولم يكتف رحمه الله بهذا بل زاد على ذلك موجّها لبعض الآيات في باب الفواصل حيث بيّن الفروق بين بعض الآيات المتشابهات التي تغيرت فواصل الآي فيها وذلك في القسم الأول من أقسام الفاصلة وهو التمكين [2].

هذا وعلى الرغم من أن الإمام السيوطي قد سبق في معظم ما ذكره من العلوم سواء في توجيه المتشابهات أم غير ذلك إلا أن له اليد الطولى في تجميع ما تفرّق من تراث هذه الأمة، ولعلّ ظروف ذلك العصر كانت تقتضي هذه الطريقة في البحث العلمي.

الثاني : أما الكتاب الثاني فهو للفيروزأبادي (ت ٨١٧ هـ)[3] المسمّى بـ(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، جمَع فيه صاحبه أشتات العلوم كما أشار إلى ذلك في المقدمة عند حديثه عن سبب تأليف الكتاب.

هذا وقد بنى الفيروزأبادي كتابه هذا على ستين مقصدا من مقاصد العلوم، أولُها ذكر اللطائف في تفسير كتاب الله تعالى، وقد كان في هذا الصدد يذكر كل سورة من سور القرآن بالحديث ويتحدث عنها من جوانب مختلفة من حيث موضع النزول وعدد الآيات والكلمات والحروف، والآيات التي تختلف فيها القرّاء، ومجموعة فواصل الآيات والسور، وما كان للسورة من اسم أو اسمين فصاعدًا واشتقاقه، ومقصود السورة وما هي متضمنة له، وآيات الناسخ والمنسوخ منها، والمتشابه منها، وبيان ما ورد في فضلها من الحديث [4].

---

(١) السيوطي، الاتقان، انظر ٢/٢٤٨ ٢٥١.

(٢) السيوطي، معترك الأقران، انظر الآيات المتشابهة ١/٨٧ـ٩٤، وموضوع التمكين ١/٤١ـ٤٥.

(٣) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت ٨١٧ هـ. (الزركلي، الأعلام، ٧/١٤٦).

(٤) الفيروزأبادي، البصائر، انظر ١/٣٥ـ٤١، وانظر أيضا ١/٥٦ من المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي يهمني من هذه الجوانب المتعددة التي جمعها الفيروزأبادي في كتابه هو جانب ذكر الآيات المتشابهات. ومع هذا فلن أقف طويلا مع ما ذكره من الآيات المتشابهة أيضا، لأن ما ذكره من هذا الجانب منقول بنصه عن كتاب البرهان في متشابه القرآن للكرماني كما سيأتي تفصيله، وهو من الكتب الأصيلة التي سأقوم بدراستها. ولا يخفى ما بين الرجلين من بعد زمني يزيد على ثلاثة قرون.

ولعل عذر الفيروزأبادي رحمه الله هو ما قطعه على نفسه في مقدمة كتابه وهو جمع أشتات العلوم، لكنّ ما يؤخذ عليه أنه لم يشر في مقدمته إلى نقل كتاب الكرماني في توجيه المتشابه اللفظي، فلعله سها عن بيان ذلك والله أعلم.

وحيثما أنعمت النظر وقلّبت البصر ما بين عبارات الكتابين أعني البرهان والبصائر، فلن تجد كبير اختلاف، حتى بين الجمل على الأغلب. وهناك بعض الزيادات اليسيرة عند الثاني أي صاحب البصائر من ذلك ما جاء في الآية الثالثة من الفاتحة ﴿الرحمن الرحيم﴾ حيث تعد من المكرّر في مذهب من عدّ البسملة آية. تلاحظ أن الكرماني يذكر في تكريرها ثلاثة أقوال بينما يزيد الفيروزأبادي على ذلك فيذكر نحوًا من أربعة أقوال يفصل فيها القول. على رغم هذا فإنه لا يخفى ما بين عبارات الاثنين من تقارب واضح [١].

وقلّما تجد الفيروزأبادي يصرّح بالنقل عن تاج القرّاء الكرماني، إذ لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة وذلك في آية آل عمران ﴿إن الله ربي وربكم﴾ [٥١] حيث صرح بقوله : " قال تاج القرّاء " حاكيًا كلامه في هذا الموطن [٢].

وبالجملة فإن منهج الفيروزأبادي ومن عاصره من العلماء ممن جاءوا في القرن الثامن الهجري فما بعده كان جل همهم جمع ما تفرق من أشتات العلوم نتيجة النكبات المتلاحقة التي أصابت العالم الإسلامي وقد تمثّل ذلك بالهجمات الصليبية والتترية.

٣- كتب التفسير المختلفة :

وهي أيضا من الجهود غير المتخصصة التي عنيت بتوجيه بعض المتشابهات في ما رأته ضروريا ولا بد منه لاستكمال جوانب التفسير.

ويعدّ أول من تعرض لمثل ذلك من المفسرين هو العلامة الزمخشري في تفسير الكشاف، فأحيانا ما تجده يتصدى لحل بعض المتشابهات التي يحدث حولها إشكال ظاهر، وخصوصًا من أساليب التكرار المختلفة التي وقعت في القصص القرآني. فمثلا تجده يحل بعض المتشابهات التي ذكرت في قصة موسى ما بين سورتي البقرة والأعراف [٣].

---

(١) انظر البرهان للكرماني، ص ١٩، الفقرة الأولى. وإلى ما قاله الفيروزأبادي في الآية نفسها (البصائر ١/١٢٩).

(٢) الفيروزأبادي، البصائر، ١/١٦٣، وانظر الكرماني البرهان ص ٤٤، فقرة ٥٩.

(٣) انظر الزمخشري، الكشاف، ٢/١٧٠، حيث يفرق بين آيتي البقرة [٥٨]، والأعراف [١٦٠] ، في قصة موسى مع بني إسرائيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الذين سلكوا هذا السبيل أيضا الإمام الرازي في التفسير الكبير، حيث تلاحظ حرصه الواضح على توجيه بعض المتشابهات، خاصة مما جاء في الجزء الأول من سورة البقرة، حيث لا يكاد يترك موضعا من مواضع التشابه في أول جزء من القرآن إلا ويبدي فيه رأيًا، حتى لو لم يوجد فيه رأي تجده يفوّض علمه إلى الله تعالى [١].

ولم ينحصر ذكر المتشابه اللفظي في المفسّرَيْن السابقيْن أعني الزمخشري والرازي بل تعدّى الأمر ذلك إلى مفسرين آخرين، حيث كانوا يتناولونه هم أيضا بنسب متفاوتة وشذرات متفرقة، أمثال أبي حيّان الأندلسي في البحر المحيط، وأبي عمر البقاعي في نظم الدرر، والمفتي أبي السعود، والشهاب الألوسي -رحمهم الله جميعا-.

وفي باب الدراسة التطبيقية إن شاء الله سنكون أكثر إلمامًا بآراء هؤلاء الأعلام، داعين الله أن نخرج بصورة أكثر بيانًا وإشراقًا في توجيه المتشابهات.

المطلب الثاني : جهود المحدثين في خدمة المتشابه اللفظي ونقدها

لا يوجد للمُحْدَثين تصنيف عني بدراسة المتشابه اللفظي بالشكل الذي هو عليه في الكتب القديمة ككتاب درة التنزيل أو ملاك التأويل، وكل ما في الأمر أنه وجدت بعض الدراسات العامة حول إعجاز القرآن وقضاياه المختلفة من تلك التي كانت تشير إلى بعض الآيات المتشابهات من قريب أو من بعيد. ومن هنا فإن علم المتشابه اللفظي في هذا العصر أصبح مستثمرا وفي غالب قضاياه في مباحث البيان القرآني والكتابات التي سجلت حول إعجاز القرآن الكريم.

وجملة القول إن خدمة المحدثين لعلم المتشابه اللفظي يمكن أن يلاحظ عليها أمران :

الأول : اعتماد الجهود الحديثة غالبا على الكتب القديمة في علم المتشابه اللفظي، من متخصصة وغير متخصصة مما بينته لك من قبل. فلم يكن من بعض المحدثين إلا فضل التبويب والترتيب لهذه المتشابهات على الأغلب وكما سنرى. لكنّ الأمر السلبي في هذه الظاهرة أعني الاعتماد على المصادر القديمة هو نقل آرائها من تلك المصادر دون أن تشير إليها من قريب أو بعيد معتبرة ذلك من قبيل تطابق الأفكار.

الثاني : أما الأمر الثاني فيلاحظ أن الجهود الحديثة لم تعن بتنقية المتشابه اللفظي وتهذيبه مما ليس منه من الموضوعات الأخرى. فهي مثل كثير من المصادر القديمة لم تكن تهتم بفكرة وضع ضوابط وأصول جامعة من خلالها للآيات المتشابهات. وكل ما في الأمر أن المحدثين قاموا بدراسة بعض

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، انظر كلامه حول بعض المتشابهات كحديثه عن تكرير الأمر بالهبوط في البقرة ٣٨، انظر (الرازي ٣/٢٦). والفرق بين آيتي البقرة [٩٥]، والجمعة [٧] (ولا يتمنّونه) (ولن يتمنوه) (انظر ٣/١٩٢). وانظر كلامه حول تقديم النصارى على الصابئين في البقرة [٦٢]، دون نظائرها حيث أوكل علم ذلك إلى الله (انظر ٣/١٠٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتشابهات من خلال القضايا العامة في الإعجاز البياني كالتقديم والتأخير والحذف والذكر والإيجاز والإطناب وغير ذلك من الفروع العامة التي تناولوا من خلالها الإعجاز البياني للقرآن.

وفي ضوء ما تقدم يمكن تقسيم جهود المحدثين في خدمة المتشابه اللفظي إلى قسمين :

أ): البحوث والدراسات القرآنية حول إعجاز وبلاغة القرآن الكريم.

ب): كتب التفسير الحديثة التي عنيت بإدراك الفروق البيانية بين بعض الآيات.

وسأحدثك عن هذين القسمين بما يخدم القصد من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

أ): البحوث والدراسات القرآنية حول إعجاز وبلاغة القرآن الكريم :

هناك أبحاث ودراسات كثيرة نشرت في هذا العصر حول إعجاز وبلاغة القرآن، والذي يهمّنا منها هو تلك الدراسات التي أشارت إلى المتشابه اللفظي من قريب أو من بعيد. وسأتحدث بإيجاز عن ثلاث من هذه الدراسات :

١) الدراسة الأولى : كتاب التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي:

تناول هذا الكاتب قضايا إعجاز القرآن الكريم من حيث اللفظ المعبر به في القرآن الكريم. وقد اعتمد الكاتب بنسبة كبيرة على كتب المتشابه اللفظي القديمة التي مر ذكرها، كما أفاد من مصادر أخرى غيرها، ورتب كتابه وفق أضرب الإعجاز البياني فتحدث أولا عن بنية الكلمة في التعبير القرآني، فالتقديم والتأخير، فأسلوب التوكيد. ثمّ تحدث عن التشابه والاختلاف ما بين الآيات وعن الفاصلة والحشد الفنّي في بعض النصوص القرآنية والقصص [١] .

ومما يمكن أن نسجّله على هذا الكتاب من الملحوظات ما يأتي :

أ- على الرغم مما قدمه الكاتب من جهد طيب في هذه الدراسة، إلا أنه يُمكن أن يؤخذ عليه القول بفكرة الإعجاز العددي، فمن المسلم به أن هناك تناسقا عدديا في القرآن الكريم، لكنه من غير المفيد التركيز على مثل هذه الظواهر العددية التي لا تفيد الناس شيئا في حياتهم العملية الواقعية كما هو الحال في سائر قضايا الإعجاز البياني للقرآن الكريم [٢].

ونلاحظ كيف أن هذا الكاتب سامحه الله يرجع إلى كتاب البهائي رشاد خليفة في نظرية التسعة عشر، حيث أفاد منها في حديثه عن موقع حرف الصاد في سورة ص[٣]، كما لا يسلم للكاتب كثرة

---

(١) يقصد السامرائي بالحشد الفني ما كان يعرضه من الآيات المتشابهه ونظائرها وكان يفرق بينها من الناحية اللفظية والموضوعية مبرراً التناسق الفني بين هذه المتشابهات (انظر التعبير القرآني ٢٤٣-٢٥٠).

(٢) د. فضل عباس، إعجاز القرآن، انظر ص ٣٥١-٣٥٧.

(٣) السامرائي، التعبير القرآني، انظر ص ٢٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عد الكلمات في السياقات القرآنية المختلفة. فمثل هذه الظاهرة لا يمكن أن تقدم أو تؤخر شيئا بالنسبة للبيان القرآني [١].

ب- حسن التبويب والتصنيف للموضوعات حيث رتب السامرّائي كتابه وفق موضوعات الإعجاز البياني، وكان يمثل لها بالنصوص القرآنية سواء أكان ذلك من المتشابه اللفظي أم من غيره من غير تمييز.

جـ- كما نبه السامرائي على مواضع جديدة يمكن إدخالها ضمن الآيات المتشابهات، كتفريقه بين بريء وبراء ما بين الأنعام والزخرف في شأن إبراهيم عليه السلام [٢].

د- اعتماده كتب المتشابه اللفظي الثلاثة غالبًا بالإضافة إلى ما كتب حول الإعجاز وبلاغة القرآن من كتابات قديمة وحديثة. فكان يعتمد تفسير الكشاف والرازي والشهاب الألوسي ومعترك الأقران للسيوطي والإيضاح وغيرها. ومن المراجع الحديثة كتاب " من بلاغة القرآن " لأحمد بدوي، و " التعبير الفني في القرآن " لبكري الشيخ أمين وغيرها.

هـ- كما يسجل للأستاذ السامرائي الفضل في مراعاة الجانبين اللفظي والمعنوي في توجيه بعض المتشابهات في ما يخص ما كرر من القصص بفواصل مختلفة. فلم يكتف بالقول برعاية الفاصلة، بل أضاف إلى ذلك مراعاة المعنى وحسن التناسب بين الفاصلة والسياق الذي وردت فيه تلك الفاصلة على شكلها التي هي عليه [٣].

و- كما يمكن أن نعدّ أن من محاسن هذا الكتاب اعتماد النظرة الموضوعية في حل بعض المتشابهات حيث كان يقارن بين الجانبين اللفظي والموضوعي بين بعض الآيات. وهو ما كان يسميه بالحشد الفني سواء كان ذلك في الموضوعات أم في القصص. فمن الأول : مقارنته بين الوصايا التي جاءت في آخر الأنعام وبين التي جاءت في سورة الإسراء. ومن الثاني : المقارنة الشاملة بين قصة آدم في البقرة والأعراف وسائر السور الأخرى التي في ذكر آدم عليه السلام [٤]. والحق أن هذه نظرة جديدة في الجمع بين الآيات المتشابهات، خاصة في موضوع القصص القرآني، لا سيما وأن النظرة الجزئية يمكن أن تعطي أحكاما متسرعة وغير دقيقة في توجيه المتشابه اللفظي.

---

(١) السامرائي، التعبير القرآني، انظر مثلا ص ٢١٦، حيث يكرر من ذكر إحصاء بعض الكلمات وعدد ورودها في السياقات القرآنية المختلفة.

(٢) السامرائي، التعبير القرآني، انظر ص ٣٧، ٣٨، حيث يفرق بين آية الأنعام ٧٨، والزخرف ٢٦، وكلا الآيتين في الحديث عن أمر إبراهيم عليه السلام وما قاله لقومه.

(٣)السامرائي، التعبير القرآني،، ص ١٩٥-٢٠١. حيث لا يكتفي بالقول برعاية الفاصلة.

(٤) السامرائي، ص ٢٤٣-٢٥٠ حيث يقارن السامرائي بين الآيات في الأنعام ١٥١-١٥٣ من قوله تعالى : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾، وبين آيات الإسراء من جهة ثانية : ﴿وقضى ربك﴾ من ٢٣-٣٨، وانظر المقارنات التي عقدها في قصة آدم ٢٥٦-٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالجملة فإن كتاب التعبير القرآني يعدّ من المصادر المهمة التي أفادت من كتب المتشابه اللفظي إفادة ليست بالقليلة، واستثمرت مادتها العلمية استثمارا جيدا.

٢) والدراسة الثانية كتاب أضواء على متشابهات القرآن للشيخ خليل ياسين :

وهو كتاب كما يسميه صاحبه في متشابهات القرآن. ويحتوي هذا الكتاب على ألف وستمائة سؤال وجواب حول القرآن الكريم. ويلاحظ أن نصيب المتشابه اللفظي من هذا العدد لا يزيد على السبعين سؤالاً من مجموع ما جاء في ذلك الكتاب الذي يحتوي على جزئين. أما باقي الكتاب فقد أورد فيه صاحبه بعض الدقائق المتعلقة بتفسير القرآن، إلى جانب ما أورده من حل لبعض الآيات التي أوهم ظاهرها التعارض والاختلاف [١].

ومما يلحظ على هذه الدراسة ما يأتي :

أ- الإيجاز المخلّ في الإجابة عمّا كان يطرح من الأسئلة حيث غالبًا ما كان يعطي إجابات مقتضبة لا تزيد عن سطرين أو ثلاثة.

ب- تكراره الحديث عن بعض المتشابهات أكثر من مرة، وغفلته أحيانا عن أول موضع من مواضع ورودها في القرآن، وهذا كثير لديه.

جـ- كما أن المؤلف لا يعتمد مصادر واضحة من كتب السابقين في حل المتشابهات، فيأتي بالكلام مجرّدًا دون أن ينسبه لأحد وكأنه من قريحة فؤاده.

د- إذعانه لمفاهيم تقليدية في التفسير، كالقول برعاية الفاصلة وموافقة رؤوس الآي.

وبالجملة فإن الشيخ ياسين لم يحدد في مقدمة كتابه أي نوع من المتشابه يريد، وجعل كتابه ما بين التفسير والمتشابه والآيات الموهمة للتعارض، عدا عمّا كان يذكره من أسباب النزول والأفكار الغريبة التي كان يأتي بها من مصادر شيعية.

٣) أما الدراسة الثالثة التي أشارت إلى بعض المتشابه فهي بعنوان [**تنوّع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم بتنوّع ألوان السياق والمعاني لعودة الله منيّع القيسي**]. وهي رسالة علمية كتبت استكمالا لنيل درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية في الجامعة الأردنية.

تناولت هذه الدراسة بالحديث عن بعض الآيات المتشابهات مما يكمن في حدود بحثها، فقد تحدثت عن الآيات التي يرجع الاختلاف فيها إلى نوع الصيغة اللفظية مثل (يشاقّ ويشاقق) بالإدغام والفك ، وقد تحدّث الباحث عن الفروق الكامنة وراء هذه الصيغ المختلفة.

---

(١) خليل ياسين، أضواء على متشابهات القرآن، انظر حلّه لبعض ما تعارض من الآيات ١/١٧١، وذلك في الآية ٧٨ من النساء، و ١/١٧٣، النساء ٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاءت هذه الدراسة في فصول ثلاثة : الأول كان متعلقا بالأفعال المختلفة الصيغة والتي ترجع إلى أصل واحد، مثل يبدأ ويبدئ. والثاني بالمشتقات مثل بريء وبراء. والثالث بالمصادر مثل النّعمة والنّعمة الأولى بالكسر والثانية بالفتح.

وبالجملة يمكن أن أسجل الملاحظات التالية :

أ- قول القيسي إن كتب المتشابه اللفظي كانت تكتفي بإيراد العلل اللفظية[١]، قول غير دقيق، حيث كثيراً ما كانت تراعي الجوانب المعنوية في اختيار بعض الصيغ اللفظية دون بعض كما سنرى عند الدراسة التطبيقية على المتشابه اللفظي.

ب- كثيراً ما كان القيسي يستلهم مناهج الكتب الثلاثة في المتشابه اللفظي من حيث اعتماد المناسبة اللفظية التي تتناسب مع وجود اللفظة على هذه الصيغة دون غيرها. مثل حديثه بين الصيغتين (يضّرّعون ويتضرّعون) ما بين الأنعام [٤٢] والأعراف [٩٤] حيث وسّع من قاعدة استخدام التناسب اللفظي في حل الاختلاف بين الصيغتين [٢].

جـ- كما يلاحظ أن نُقولَ القيسي لبعض العبارات للمفسرين تبدو أحيانًا غير مهمة في خدمة الجانب الذي يتحدث عنه وهو التفريق بين الصيغ اللفظية [٣].

د- كما يؤخذ على القيسي تضييق دائرة مصادره التفسيرية، فكان على الأغلب وفي كل آية يتحدث عنها يراجع أحد التفاسير الأربعة أو هي مجتمعة. وهي الطبري والزمخشري والرازي ونظم الدرر للبقاعي، وقلّما تجده يذكر غيرها.

وعلى الرغم من كون هذه المصادر مراجع أصيلة في التفسير، وأنها المعوّل عليها أكثر من غيرها، إلا أن هذا لا يعفي الباحث من بعض الجهود الاستقرائية محاولة لاستجلاب آراء أخرى حول الموضوع، الأمر الذي يجعل الدراسة أكثر فائدة وحيوية.

وبالجملة فإن هذه محاولة حسنة في خدمة الإعجاز البياني للقرآن نرجو الله أن ينفع بها من كتبها يوم القيامة وأن يجعلنا ممّن يتفانون في خدمة هذا القرآن العظيم.

ب) كتب التفسير الحديثة التي عنيت بإدراك الفروق البيانية بين بعض الآيات :

وجدت بعض الجهود المتفرقة للمفسرين المحدثين في توجيه الآيات المتشابهات، ومع قلة هذه الجهود، إلا أنني أحببت أن أشير إليها استكمالاً لجانب هذا المبحث.

فنجد السيد رشيد رضا في تفسير المنار يحلّ بعض المتشابهات في سلسلة بحوثه الاستطرادية التي يتحدث عنها عادة بين التفسير. فمثلا يحل التشابه الواقع بين آيتي الأعراف [٨٢] والنمل [٥٦] في قصة

---

(١) القيسي، تنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن، انظر ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، انظر ص ٨٦-٨٩.

(٣) القيسي، تنوع صيغ الكلمات، انظر ص ٨٦، ٨٧، حيث يورد بعض النقول غير المهمة في خدمة ما يقصد إليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوط عليه السلام وهو قوله في الأعراف : ﴿**وما كان جواب قومه**﴾، وفي النمل: ﴿**فما كان جواب قومه**﴾[١]. وانظر إلى كلامه أيضا في الأنعام عن الفرق بين المشتبه والمتشابه [٢].

وإلى جانب صاحب المنار كان الشيخ ابن عاشور يتولى توجيه بعض المتشابهات كبيانه للفرق بين الإنزال والتنزيل. وتوجيه التشابه الواقع بين آيتي آل عمران [١١]، والأنفال[٥٢] ﴿**كدأب آل فرعون**﴾، فقال مرة : ﴿**كفروا بآياتنا**﴾، وأخرى ﴿**بآيات الله**﴾[٣].

وهكذا تلاحظ كيف كانت للمفسرين المحدثين بعض العناية في توجيه ما تشابه من القرآن. ولكنها جاءت بقدر كما تقدم.

تلكم هي الدراسات المختلفة التي خدمت علم المتشابه اللفظي، وتلاحظ أخي القارئ كيف أن جهود الأقدمين في خدمة هذا العلم كانت هي المعوّل عليها بالدرجة الأولى. كما تلاحظ من جهة ثانية كيف أن المتشابه اللفظي في القديم والحديث بقي رهن الدراسات العامة على الإعجاز البياني للقرآن الكريم. ولم يوجد من أشار إليه من الناحية النظرية ووضع شيئا من أصوله وقواعده سوى ما كان من جهد الإمام الزركشي رحمه الله وأجزل له الثواب.

والله أسأل أن يوفقني لخدمة هذا العلم الجليل وأن يعينني في ضبط أصوله ومنهجه في القرآن الكريم، وأن يمكنني من استقراء مواقعه من القرآن، إنه أكرم مسؤول.

---

(١) السيد رشيد رضا، تفسير المنار، انظر ٨/٥١٢-٥١٤.

(٢) المرجع السابق، انظر ٧/٦٤٢.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، انظر ٣/١٤٧، والمقدمة ١/١٠، حيث يتحدث في هذين الموقعين عن الفرق بين الإنزال والتنزيل. وانظر ١٠/٤٣، حيث يفرق بين آية الأنفال ٥٢، وآل عمران ١١، وسيأتي تفصيل ذلك في ما بعد إن شاء الله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

كتب المتشابه اللفظي الثلاثة

التعريف بها ومصادرها

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بالكتب الثلاثة ومؤلفيها، ويشمل :

المطلب الأول : الخطيب الإسكافي وكتاب درة التنزيل

المطلب الثاني : الكرماني وكتابه البرهان في متشابه القرآن

المطلب الثالث : ابن الزبير الغرناطي وكتابه ملاك التأويل

المبحث الثاني : مصادر كتب المتشابه اللفظي، ويشمل :

المطلب الأول: القرآن الكريم

المطلب الثاني: الحديث النبوي

المطلب الثالث: الأقوال المأثورة عن السلف في التفسير

المطلب الرابع : كتب التفسير والآراء التفسيرية

المطلب الخامس : فهم السياق القرآني

المطلب السادس : علوم القرآن

المطلب السابع : علوم اللغة

المطلب الثامن : علوم أخرى

المبحث الثالث : أصول المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة وصوره ومنهجه، ويشمل :

المطلب الأول : تقسيم الزركشي في البرهان لصور المتشابه اللفظي وأنواعه.

المطلب الثاني : ما يمكن استدراكه على الإمام الزركشي في هذا الشأن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الأول

التعريف بالكتب الثلاثة ومؤلفيها

تمـــهيد:

لقد اتضح مما تقدم أن كتب المتشابه اللفظي الثلاثة الدرة والبرهان وملاك التـأويل كـانت هي المصادر الرئيسة المتخصصة في ذكر الآيات المتشابهات في القرآن من الناحيـة اللفظيـة. ثـم إن هذه المصادر الثلاثة هي التي عوّل عليها القدماء والمحدثون ممّن تحدثوا في الآيات المتشابهات.

ولما كانت هذه المصادر الثلاثة في المتشابه اللفظي تملـك مـن المميزات مـا لا يملكـه غيرهـا أعني من حيث استقراؤها للآيات المتشابهات وأصالتها في هذا الموضـوع ــ، كـان لزامًـا علـيّ أن أفردها بالدراسة النقدية التطبيقية.

ولكن قبل هذه الدراسة يحسن بنا أن نعرف شيئا عن مؤلفي هذه الكتب الثلاثة، والمصـادر التي رجعوا إليها في علم المتشابه اللفظي، وصور المتشابه اللفظي التي تحدثوا عنهـا علـى ضـوء مـا جاء في القرآن الكريم من هذه المتشابهات.

المطلب الأول: الخطيب الإسكافي وكتاب درة التنزيل

أ) اسمه وموطنه:

هو محمد بن عبد الله خطيب القلعة الفخريـة المكنـى بـأبي عبـد الله المعـروف بـالخطيب الإسكافي الأديب اللغوي صاحب التصانيف الحسنة، كان من أهل أصبهان[١].

هذا و لم تذكر المصادر السنة التي ولد فيها[٢]. كما تلاحظ من جهة ثانية اتحاد المصـادر في الترجمة له من قديمة وحديثة [٣]حيث كانت متقاربة وقليلة.

---

(١) أصبهان، مدينة عظيمة من أعيان المدن، خرج منها كثير من العلماء في سائر الفنون، فتحها الفاروق عمر سـنة١٩ هــ، بعـد فتح نهاوند على يد قائده عبد الله بن عتبان (ياقوت، معجـم البلدان، ٢٠٦/١) وانظر ياقوت، معجـم الأدبـاء، ٢٥٤٩/٦، ترجمة رقم ١٠٦٧.

(٢) انظر مثلا السيوطي، بغية الوعاة، ١٤٩/١، ترجمة رقم ٢٤٧.

(٣) من المصادر الحديثة انظر مثلا الأعلام للزركلي، ٢٢٧/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) مكانته العلمية :

قال ياقوت [١]: " وكان خطيبا بالري [٢]"، قال ابن عبّاد [٣]: " فاز بالعلم من أهل أصبهان ثلاثة : حائك وحلاج وإسكاف، فالحائك أبو علي المرزوقي [٤]والحلاّج أبو منصور بن ماشدة والإسكاف أبو عبد الله الخطيب " .

جـ) كتب الخطيب الإسكافي ومؤلفاته :

للخطيب الإسكافي كتب كثيرة عدّت منها المصادر نحوًا من سبعة كتب وهي (غلط كتاب العين)، و (الغرة)، وقد تضمنت شيئا من غلط أهل الأدب، و (مبادئ اللغة) وهو مطبوع، و(شواهد كتاب سيبويه)، و (نقد الشعر)، و (كتاب درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهة) وهو موجود، و(كتاب لطف التدبير في سياسات الملوك) وغير ذلك [٥].

د) وفاته :

أجمعت المصادر على أن صاحب درة التنزيل قد توفي في آخر العقد الثاني من القرن الخامس الهجري في سنة ٤٢٠ هـ [٦].

هـ) نسبة كتاب درة التنزيل للخطيب والتعريف بهذا الكتاب :

تقدمت عبارة كل من الزركشي والسيوطي رحمهما الله تعالى في نسبة كتب المتشابه اللفظي لأصحابها، ومنها كتاب درة التنزيل، فقد نسبه الزركشي للرازي، وكذلك السيوطي لأبي عبد الله الرازي. والظاهر أنه شخص واحد، حيث اكتفى الأول بذكره بنسبه، والثاني ذكره بالكنية والنسبة.

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء، ٢٥٤٩/٦.

(٢) الري هي مدينة مشهورة من أمّهات البلدان وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا. (معجم البلدان ١١٦/٣).

(٣) الصاحب ابن عباد هو الوزير الكبير العلامة أبو القاسم بن عباد عباس الطالقاني، الأديب الكاتب وزير الملك مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة الشهير بالصاحب ت ٣٨٥ هـ عن تسع وخمسين سنة. (الذهبي السير، ٥١١/١٦، برقم ٢٧٧).

(٤) أبو علي المرزوقي هو محمد بن الحسن أبو علي المرزوقي الأصبهاني إمام النحو وأحد أئمة اللسان، مات سنة ٤٢١ هـ، (انظر الذهبي ، السير ٤٧٥/١٧ برقم ٣١٣).

(٥) ياقوت، معجم الأدباء، ٢٥٤٩/٦، ترجمة رقم ١٠٦٧.

(٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٣٧/٣، ترجمة رقم ٤٠٠، وانظر السيوطي، بغية الوعاة ١٤٩/١، ترجمة رقم ٢٤٧. وانظر الزركلي الأعلام، ٢٢٧/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا ولقد نسب صاحب كشف الظنون هذا الكتاب خطأ إلى الفخر الرازي المفسر صاحب مفاتح الغيب، فقال : " درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ت ٦٠٦هـ بجلد أوله : " الحمد لله حمد الشاكرين "[١] كما نسبه إليه صاحب كتاب هدية العارفين [٢].

وقد أرجع الأستاذ الفلاح سبب هذا الخلط إلى تشابه النسبة ما بين الرجلين، فكلاهما منسوب إلى الري، أعني الفخر الرازي والخطيب الإسكافي-، ولا يعني تشابه موطن الرجلين أنهما شخص واحد، فمدينة الري اشتهر بالنسبة إليها العشرات من العلماء كما تذكر كتب التراجم-، وكلهم عرف بالرازي.

وهناك جملة من الأسباب التي تؤكد صحة نسبة كتاب درة التنزيل لأبي عبد الله الخطيب الإسكافي، ونجملها في ما يأتي :

١- أن محقق كتاب درة التنزيل برواية ابن أبي الفرج الأردستاني يشير بالهامش رقم (١) من خطبة كتاب الدرة : " وفي نسخه : الحمد لله حمد الشاكرين "، وهذا هو نفس ما افتتحت به النسخة التي أشار إليها صاحب كشف الظنون والتي نسبها للفخر الرازي، ثم قال صاحب كشف الظنون معرفًا بهذا الكتاب " تكلم فيه عن الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة"، وهذه مأخوذة حرفيا من خطبة درة التنزيل الأمر الذي يؤكد خطأ صاحب كشف الظنون في هذه النسبة للفخر الرازي [٣].

٢- كما يؤكد صحة هذه النسبة للخطيب الإسكافي ما جاء في مقدمة كتاب البرهان للكرماني، إذ يقول الأخير : " قال أبو مسلم في تفسيره عن أبي عبد الله الخطيب في تفسيره كلمات في الآيات المتشابهات.. وأبو مسلم هذا توفي سنة ٤٥٩ هـ مما يرجّح صحة النسبة للإسكافي، بحيث يكون حلقة الوصل بين الكرماني وصاحب درة التنزيل [٤].

٣- ثم إن معظم المصادر من كتب التراجم كادت تجمع على نسبة كتاب درة التنزيل للخطيب الإسكافي، لولا ما كان من صاحبي كشف الظنون وهديّة العارفين، وقد عرفت في السبب الأوّل مردّ الخطأ الذي وقعوا فيه.

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون ١٠٧/٦.

(٢) إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين ١٠٧/٢.

(٣) مقدمة الأستاذ سعيد الفلاح على ملاك التأويل ١٠٦/١، ١٠٧.

(٤) مقدمة الكرماني ص ١٨، وانظر الصعيدي، تحقيق الأنواع من النوع الحادي والخمسين إلى آخر النوع الثالث والستين من كتاب الإتقان، ص ٤٠٨، تعليق رقم ٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- ثم إن محمود بن حمزة الكرماني والذي أجمعت المصادر على أنه عاش في حدود الخمس مائة وتوفّي في ما بعدها وكما سيأتي تلحظ أن هذا الرجل في كتاب البرهان يقتبس أقوال الخطيب الإسكافي، وكثيرا ما كان يصرّح بذكر اسم الخطيب حين يحكي أقواله. كما تلاحظ من جهة أخرى أنه يقول في مقدمته : " وأنا أحكي لك كلامه في ما إذا بلغت إليه، مستعينا بالله ومتوكلا عليه "(١). فهذا كله يؤكد على الأقل أن صاحب درة التنزيل عاش قبل الكرماني، فلا يمكن أن يكون هو الفخر الرازي.

٥- ثم إن أفكار الخطيب في كتاب درة التنزيل كانت تتسم بالصبغة اللغوية النحوية، وكان في كثير من الأحيان يبتعد عن مسائل علم البيان التي تعارف عليها العلماء في ما بعد. ولا ريب في أن مسائل علم النحو واللغة بشكل عام كانت هي المنتشرة في أواسط أهل العلم قبل مسائل علم البيان، الأمر الذي يرجّح كون صاحب درة التنزيل عاش في فترة مبكرة لم تنتشر فيها قضايا البيان القرآني على الوجه الأكمل.

وسوف تلحظ بوضوح عندما نتحدث عن توجيه المتشابه اللفظي كيف أن كثيرا من قضايا البيان القرآني لم تكن قد تبلورت على عهد الخطيب، بخلاف ما كان عند ابن الزبير الذي تأخر عن صاحب الدرة قريبا من ثلاثة قرون.

التعريف بدرة التنزيل :

هو كتاب درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. فمن خلال اسم الكتاب تدرك للوهلة الأولى أنه في بيان ما تشابه من القرآن الكريم، وكتاب درة التنزيل مطبوع في مجلد واحد في طبعتين، أولاهما طبعة دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م، وهي أجود من الطبعة الثانية وهي طبعة دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ ١٩٩٥ م.

وقد صرح الخطيب بموضوع كتابه حين قال : " إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته..تدعوني دواعٍ قوية يبعثها نظر وروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة تطلّبًا لعلامات ترفع لبس إشكالها وتخص الكلمة بآياتها دون أشكالها "(٢).

---

(١) مقدمة الكرماني ص ١٨.

(٢) درة التنزيل، الخطيب الإسكافي، انظر المقدمة ص ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلاحظ من البداية كيف أن الخطيب يصرح بموضوع كتابه وهو النظر في نوعين من الآيات المتكررة : الأول منها : ما تكرر بالألفاظ المتفقة، والثاني : بالألفاظ المختلفة، حيث أخذ على عاتقه توجيه معاني ما تكرر من هذين النوعين من الآيات.

ولقد وصل إلينا هذا الكتاب برواية إبراهيم بن علي بن محمد المعروف بابن أبي الفرج الأردستاني كما يصرح المذكور بهذا الأمر قبل ذكره لخطبة درة التنزيل التي ارتجلها الخطيب ويزعم أنه لم يحضره غيره.

سبب تأليف الكتاب :

يذكر الخطيب أن ما دعاه إلى تأليف هذا الكتاب أسباب منها أنه لم يتناوله أحد من المتقدمين بالبيان، ومنها الدفاع عن القرآن الكريم أمام الملحدين والطاعنين في ما تشابه من آياته.

ويصرح بذلك في مقدمة الدرة بقوله : " فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين وفتشت عن أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين، فما وجدت أحدا من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف و لم يقرع بابها و لم يفتر لهم من نابها و لم يسفر لهم عن وجهها. ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه وتكرار المكرر تبيانا، ولطعن الجاحدين ردًّا ولمسلك الملحدين سدًّا "[1].

ثم يوضح الخطيب رحمه الله غايات وأهدافًا أخرى وراء تأليف هذا الكتاب ممثلا ذلك في أمرين :

الأول : أمن مواطن العثار عند قراءة القرآن، وذلك بعد معرفة الدقائق المتشابهة.

والثاني : الإطلاع على مفاتيح من العلوم لم تبلغها أمة من قبلنا، وهو بذلك يشير إلى ما ذكره من علوم في خدمة توجيه الآيات المتشابهات [2].

وهكذا نلاحظ بوضوح كيف أن الخطيب كان حريصًا منذ اللحظة الأولى على بيان مقصد كتابه من حيث الموضوع والمادة العلمية والأهداف، وقد وفّى فعلاً بما التزم به من خلال المقدمة فكان خير مقدم ومفتتح لهذا العلم.

ويمتاز منهج الخطيب –رحمه الله– بأنه كان يعرض لموطن التشابه من القرآن الكريم في كل آيتين أو أكثر متسائلا عن مواقع الاختلاف فيها ثم يجيب عنها بروح علمية أصيلة.

---

(١) درة التنزيل، الخطيب الإسكافي، ص ٨.

(٢) انظر مقدمة درة التنزيل، ص ٨، ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتمثل هذه الأصالة في توجيهه للمتشابهات، وكان يستطرد في بعض العلوم اللغوية والفروع الأخرى المختلفة حين يرى أن الحاجة تدعو إليها استكمالا لفهم الآيات المتشابهات.

وسيأتي بيان ذلك تفصيلا في الفصل الثاني إن شاء الله ونرى كيف وظّف أصحاب كتب المتشابه علومًا مختلفة في خدمة توجيه الآيات المتشابهات. ولا ريب أن الخطيب كان السبّاق في هذا الأمر وأنه الذي اختط لصاحبيه هذا المسلك القويم.

وحينما تطلع على هذه العلوم المختلفة تدرك غزارة علم هذا الرجل وما لديه من عمق فكري وتجربة طويلة في تنقيح العلوم.

ترتيب الكتاب :

وقد رتب الخطيب مسائل كتابه في كل سورة من السور، وكان يذكرها وفق ترتيبها في المصحف، وإذا مر بسورة ليس فيها من المتشابه قال : بأنه ليس فيها شيء، وأحيانا يقول : "ما فيها من المتشابه ذكر في غيرها"، وأحيانا يتركها دون أن يعقب بشيء كما فعل عند حديثه عن الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم، وذلك لأن معظم المتشابهات كانت مذكورة في الأجزاء الأولى حيث كان يذكرها من حيث أول ورود لها في القرآن على الأغلب.

وأحيانا كان يسهو الخطيب عن بعض المتشابهات في أول موقع لها من حيث ورودها في سور القرآن فكان يذكرها في الموضع الثاني حاكيًا سبب تأخره عن الموضع الأول. وقد يكون هذا السبب راجعا إلى سهو عن الموضع الأول لورود هذه الآيات حسب ترتيب القرآن الكريم كما هو الحال في آية النساء ﴿ **خالدين فيها وذلك الفوز العظيم** ﴾ [١٣][(١)]، حيث بيّن الخطيب أنها لم تحضره فتحدث عنها في موقع لاحق في سورة المائدة.

وهناك سبب آخر غير السهو يكمن وراء إغفال الخطيب لذكر بعض المتشابهات في موقعها الأول من المصحف، ذلك هو توزيع الآيات على جميع السور القرآنية. فكان لا يحب أن يفرد السورة الواحدة بجميع المتشابهات بل كان يؤجل بعضها إلى سور لاحقة تحقيقا لهذه الغاية، والناظر في فهرس الآيات على اختلاف السور يلاحظ ذلك بوضوح.

هذا ولقد صرح الخطيب نفسه بهذه الحقيقة وذلك في سورة الأنفال حيث إنه قبل أن يذكر الآية الأولى منها ذكر أن أصل موقعها في الأعراف لكنه أجلها ليكون لهذه السورة حصة من الآيات المتشابهات [(٢)].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٠٠.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجرت عادة الخطيب أن يذكر في كل سورة ينتهي من الحديث عنها عدد ما تناوله فيها من الآيات المتشابهة وعدد المسائل التي أجاب عنها. وتراه في آخر سورة يونس يحصي عدد الآيات المتشابهة التي تحدث عنها وعدد المسائل التي تناولها من أول القرآن إلى آخر ما تحدث عنه في سورة يونس من المسائل [١].

وأعتذر عن الإطالة في وصف هذا الكتاب، لكن الذي دعاني إلى ذلك هو أن الخطيب كان أول من ابتدع هذه الطريقة في تصنيف الآيات المتشابهات، وقد تأثر بها إلى حد بعيد من جاء بعده خصوصا الكرماني وابن الزبير.

المطلب الثاني : الكرماني وكتاب البرهان في متشابه القرآن

أ) اسمه ومولده :

هو محمود بن حمزة بن نصر أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء لاشتهاره بعلم القراءات [٢]. لم تذكر لنا المصادر شيئا عن سنة مولده أو مكان موطنه غير ما جاء في عبارة ياقوت حين قال في ترجمته : " لم يفارق وطنه وما رحل ، وعاش في حدود الخمس مائة وتوفي في ما بعدها "[٣].

ومع هذا الإبهام في مكان موطن الكرماني إلا أنني وجدت بعض المحدثين من المحققين ينسبه إلى كرمان، وهو إقليم من أقاليم المشرق [٤]، ولا ريب أن هذه نسبة ظنية غير مقطوع بصحتها لأن المصادر القديمة لم تنسبه إلى موطن معين.

ومن جهة ثانية فإن اسم الكرماني يطلق على أكثر من شخصية علمية، وينسب إلى أكثر من بلد كل من يحمل هذه النسبة، الأمر الذي يزيد البحث إبهاما بالنسبة لمعرفة موطن تاج القراء الكرماني [٥].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٢١٧، حيث يحصي الخطيب عدد الآيات والمسائل التي تحدث عنها حتى آخر سورة يونس.

(٢) الزركلي، الأعلام، ١٦٨/٧.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ١٢٥/١٩، ترجمة رقم ٣٩.

(٤) انظر كلام الأستاذ عبد القادر أحمد عطا في التقديم لكتاب الكرماني ص ١٠، وكرمان بفتح الكاف هي في الإقليم الرابع مثل أصبهان، وهي ولاية مشهورة ذات بلاد وقرى واسعة، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، وتشبه البصرة في كثرة تمورها. فتحت في عهد عثمان على يد مجاشع بن مسعود. وهناك إطلاق آخر لاسم كرمان وذلك على مدينة بين غزنة وبلاد الهند. (ياقوت، معجم البلدان ٤٥٤/٤).

(٥) السمعاني، الأنساب، انظر ٥٦/٥ حيث تحدث عن نسبة الكرماني وكيف أنه ينسب لمواطن شتى ولم ينسب تاج القراء لواحد منها، الأمر الذي يزيد إبهام موطن الرجل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكل ما يمكن القطع به في هذا المقام أن الكرماني كان أحد المشارقة من العلماء دونما تحديد للقطر الذي كان يقطنه. ولعل مما يؤكد كونه من المشارقة تأثره بكتاب درة التنزيل للخطيب الإسكافي حيث إن قرب المسافة في تلك الآونة من الممكن أن يكون ساعد على وصول الكتاب إلى يد تاج القراء. ويبقى هذا من باب الظن والترجيح، والظن لا يغني من الحق شيئا.

ب) فضله ومكانته العلمية :

قال ياقوت : " كان أحد العلماء الفقهاء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان عجبا في دقة الفهم وحسن الاستنباط " [١].

وقال عنه ابن الجزري : " إمام كبير ومحقق ثقة كبير المحل. لا أعلم على من قرأ، ولكن قرأ عليه أبو عبد الله نصر بن علي بن أبي مريم في ما أحسب "[٢].

وللكرماني بعض النظم الذي نظمه في بعض الفروع النحوية كحديثه عن موانع الصرف:

فمعرفةٌ، وتأنيثٌ، ونَعْـ ... ونونٌ قبلَها ألِفٌ، وجمع

وعُجْمَةٌ، ثم تركيبٌ، وعَدْ ... ووزنُ الفعلِ، والأسبابُ تسْعُ

ولعل الذي أدّى إلى عدم اشتهاره هو ما تقدم من عبارة ياقوت في أنه لم يفارق وطنه و لم يرحل [٣].

جـ) مؤلفاته ومصنفاته :

أثبتت المصادر ثمانية من المؤلفات للكرماني، يلاحظ من خلال معرفتها ولع الرجل باختصار الكتب المطولة من جهة، وجمع العلوم من جهة ثانية. وهذه المؤلفات هي :

١- لباب التفسير وهو مخطوط في شستربتي، برقم ٤١٤٧، وهو المعروف بكتاب العجائب والغرائب في مجلدين. ضمّنه أقوالا في معاني بعض الآيات. قال السيوطي : " لا يحل الاعتماد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير منها. ومن ذلك نقله لقول أبي مسلم في ﴿ حم عسق ﴾ أن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانيين، والعين ولاية العباسيين... [٤].

٢- خط المصاحب.

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء، ١٩/١٢٥.

(٢) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القرا، ٢/٢٩١، ترجمة رقم ٣٥٧٧.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ١٩/١٢٥، ومقدمة الأستاذ عطا على كتاب الكرماني ص ١٠.

(٤) الزركلي، الأعلام، ٧/١٦٨، وانظر السيوطي، الإتقان، ٢/٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- البرهان في متشابه القرآن.

٤- كتاب الهداية في شرح غاية بن مهران.

٥- الإيجاز في النحو، اختصره من الإيضاح للفارسي.

٦، ٧، ٨- والنظامية والإفادة والعنوان، وكلها مختصرات في النحو [١].

د) وفاته :

لم تذكر المصادر بدقة تاريخ وفاة الكرماني، وكل ما هنالك ما تقدم من عبارة ياقوت أنه عاش في حدود الخمس مائة وتوفي في ما بعدها. وجاء في الأعلام أنه توفي سنة خمس وخمس مائة هجرية ما يعادل ١١١٠م [٢].

هـ) نسبة البرهان إلى الكرماني والتعريف بهذا الكتاب :

اتفقت كلمة معظم المصادر التي ترجمت للكرماني أن كتاب البرهان في متشابه القرآن هو من الكتب التي صنفها الكرماني كما تقدم بيان ذلك. وقد تقدم كلام الإمام الزركشي وما تابعه عليه الإمام السيوطي من نسبتهم هذا الكتاب إلى الكرماني أيضا، وذلك حينما حدثتك عن التأليف والتصنيف في المتشابه اللفظي [٣]، الأمر الذي يثبت هذه النسبة من غير غموض ولا إشكال.

التعريف بكتاب الكرماني البرهان :

كتاب البرهان في متشابه القرآن من الكتب التي ألفها الكرماني في توجيه الآيات المتشابهة من القرآن تشابها لفظيا، وكتاب الكرماني مطبوع في جزء صغير، حققه الأستاذ عبد القادر أحمد عطا . وغيّر اسمه الحقيقي إلى اسم آخر حيث سمّاه (أسرار التكرار في القرآن). وهذه النسخة من طبع دار الاعتصام ١٩٧٤ م. كما أن هناك نسخة أخرى تحمل الاسم الحقيقي للكتاب (البرهان في متشابه القرآن)، وهي من تحقيق أحمد عز الدين خلف الله لدار صادر بيروت. وقد صدر منها طبعتان الأولى سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، والثانية سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

---

(١) الداودي، طبقات المفسرين، ٣١٢/٢، والسيوطي في بغية الوعاة، ٢٧٧/٢، ترجمة رقم ١٩٧٢.

(٢) الزركلي، الأعلام، ١٦٨/٧.

(٣) انظر ما تقدم بيانه في هذا الموضوع ص ٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أخذ فيه المؤلف على عاتقه توجيه ما تكرر من آي القرآن واختلف بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير حيث كان يبين السبب في هذا الاختلاف، وأنه لا يمكن عكس الوارد في مواضعه في هذه الآيات كما صرح بذلك في المقدمة [١].

وبعد أن يبين الكرماني موضوع الكتاب وهو توجيه ما تكرر بألفاظ متقاربة يذكر السبب الذي دفعه إلى كتابة هذا الكتاب، ذلك هو أن المفسرين شرعوا بالتأليف في علم المتشابه مقتصرين على ذكر الآيات ونظائرها من دون توجيه لهذه النظائر المتشابهة الأمر الذي دفعه إلى كتابة هذا الكتاب.

كما يعترف الكرماني في آخر مقدمته بنقله من كلام الخطيب الإسكافي في توجيه الآيات المتشابهات [٢].

ويمكن أن يلاحظ على الكرماني في مقدمته أمران هما :

١- أنه تعهد رحمه الله بتوجيه ما تكرر من القرآن مما فيه اختلاف يسير من حيث التقديم والتأخير أو النقص والزيادة وغير ذلك، ولم يشر إلى ما تكرر بألفاظ متفقة كما فعل الخطيب. هذا بالإضافة إلى أن الكرماني لم يلتزم بهذا الذي أشار إليه في المقدمة بل قام بتوجيه ما تكرر من الألفاظ المتفقة والمختلفة على حد سواء. ولعله أراد جانب الألفاظ المكررة بصور مختلفة من باب التغليب لأنه الأكثر في المتشابه اللفظي.

٢- أن الكرماني تعهّد في المقدمة أن يوجه المتشابهات دون تفسيرها لكنه كثيرا ما يذكر بعض التفاسير للآيات وخاصة في السور التي ليس فيها الكثير من المتشابه خصوصا عند حديثه عن السور التي في أواخر القرآن الكريم.

وكتاب الكرماني هذا يقع في جزء صغير يربو على المائتي ورقة تحدث فيه صاحبه عن الآيات المتشابهات في القرآن الكريم موجها لها توجيهات موجزة ومختصرة.

يمتاز الكتاب بما يأتي:

١) احتواؤه على فقرات قصيرة متقاربة الحجم كل فقرة منها تنفرد بتوجيه موضع من مواضع التشابه. وقد أوصلها محقق الكتاب إلى خمس مائة وتسعين فقرة.

٢) كثرة التكرار في عرضه للمواضع المتشابهة حيث ينبه على الموضع الواحد من التشابه في أكثر من سورة؛ أي حينما يمر بكل نظير من نظائره على اختلاف سور القرآن.

---

(١) انظر مقدمة البرهان للكرماني، ص ١٧، ١٨.

(٢) انظر مقدمة الكرماني، ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) ترتيب الفقرات بتجزئته لموضع التشابه الواحد في أكثر من فقرة خاصة إذا كان بيانه هذا الموضع مشتملا على أكثر من سبب من أسباب الاختلاف. مثال ذلك: ما جاء من الواقع بين البقرة [١٧٠]، والمائدة [١٠٤] : ﴿ **قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[١]، فبين هذه الآية في البقرة ونظيرتها في المائدة سببان من أسباب الاختلاف يجعل الكرماني كل سبب في فقرة واحدة [٢].

ولا ريب أن هذه التجزئة يمكن أن تسلب شيئا من النظرة الموضوعية في توجيه المتشابه اللفظي، حيث أن من الأفضل ربط أسباب الاختلاف هذه بعضها ببعض، وعندما يفعل المفسّر ذلك فإنه من المؤكد سوف يخرج بنظرة أكثر إنصافا وموضوعية في توجيه المتشابه اللفظي.

٤) احتواؤه على كثير من الأمور التي هي ليست من قبيل المتشابه اللفظي كالتفسير وإيراد المقاطع التي لا نظير لها في القرآن، وقد سبق بيان ذلك مفصّلا عندما حدثتك عن تعريف المتشابه اللفظي على ضوء ما جاء في كتب المتشابه اللفظي.

ويبقى الكتاب ذا أصالة فكرية في هذا الموضوع إذا ما تجاوزنا ما نقله من أقوال الخطيب الإسكافي وتكمن هذه الأصالة والجدة عند الكرماني في مظهرين اثنين :

الأول : تنبيهه على مواطن جديدة من الآيات المتشابهات لم يتحدث عنها الخطيب.

والثاني : إفادة الكرماني من آراء الخطيب نفسه حيث كان ينتقده في بعض الأحيان.وفي أحيان أخرى يذكر آراء جديدة لكثير من المتشابهات دون أن يرجع إلى رأي الخطيب. فهو إذن كتاب مهم في جانبه وسنقف على حجم هذه الأهمية ومقدارها حينما نتحدث عن توجيه المتشابه اللفظي عند الكتب الثلاثة حيث ستدرك بوضوح حجم الإضافة التي أضافها من جاء بعد صاحب الدرة من الكرماني وغيره.

المطلب الثالث : ابن الزبير الغرناطي وكتابه ملاك التأويل

أ) اسمه ونسبه ومولده :

هو الإمام الحافظ شيخ القراء والمحدثين بالأندلس أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن عاصم الثقفي العاصمي الغرناطي النحوي. ولد سنة سبع وعشرين

---

(١) انظر البرهان للكرماني، ص ٣٤، الفقرتين ٣١، ٣٢.

(٢) المقصود بسببي الاختلاف بين آيتي المائدة والبقرة قوله في الأولى ﴿ ألفينا ﴾ وفي الثانية ﴿ وجدنا ﴾. والثاني قوله في البقرة ﴿يعقلون﴾ وفي المائدة ﴿ يعلمون ﴾.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وست مائة للهجرة [١]، وكان مولده في مدينة جيّان بمنزل قنسرين في ذي القعدة من العام المذكور [٢].

ب) نشأته الشخصية :

نشأ ابن الزبير في مسقط رأسه في جيان وخرج به أبوه منها عام ثلاثة وأربعين وست مائة إلى مدينة مالقا [٣]، فتكون سنُّه في ذلك الوقت ستة عشر عاما.

طلب ابن الزبير العلم في صغره، وتلا في السبعة على الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن الشاري صاحب بن عبيد الله الحجري، وعلى أبي الوليد اسماعيل بن يحيى الأزدي العطاس صاحب ابن حسنون الحميري [٤] وسمع سنة خمسة وأربعين من سعيد بن محمد الحفار وأبي زكرياء يحيى بن أبي الغصن وغيرهم [٥].

محنة ابن الزبير :

حدثت لابن الزبير محنة أدت به إلى التحوّل من مالقا إلى غرناطة[٦] حيث إنه تعرض للفزاري الساحر لما ادعى النبوة فاستظهر عليه الفزاري بتقربه إلى أميرها بالسحر.

وأوذي أبو جعفر فتحوّل إلى غرناطة فاتفق قدوم الفزاري رسولا من أمير مالقا، فاجتمع أبو جعفر بصاحب غرناطة ووصف له حال الفزاري، فأذن له إذا انصرف بجواب رسالته أن يخرج إليه ببعض أهل البلد فيطالبه من باب الشرع ففعل، فثبت عليه الحد أي الفزاري فحكم بقتله فضرب بالسيف فلم يجل فيه. فقال أبو جعفر : جرّدوه. فوجدوا جسده مكتوبا فغسل، ثم وجد تحت لسانه حجرا لطيفا فنزعه فحال فيه السيف حينئذ وهذا خبر غير معقول وقد أوردته بعض المصادر التي ترجمت لابن الزبير[٧].

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ١٤٨٤/٤، ترجمة ١٦٩.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، انظر ١٨٨/١، وجيان هي مدينة من مدن الأندلس شرقي قرطبة، وبينهما سبعة عشر فرسخا. (ياقوت، معجم البلدان ١٩٥/٢).

(٣) الإحاطة ١٨٩/١، مالقا هي مدينة في الأندلس وهي مدينة عامرة من أعمال ريا، سورها على بحر الجزيرة الخضراء والمرية. (ياقوت، معجم البلدان ٤٣/٥).

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢٢/٦، ترجمة رقم ٢٦٩٠.

(٥) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ١٤٨٤/٤، ترجمة رقم ١٦٩.

(٦) غرناطة بفتح أولها من أقدم مدن الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقها نهران يغذيان المدينة بالماء، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا. (ياقوت، معجم البلدان، ١٩٥/٤).

(٧) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٨٩/١، ترجمة رقم ٢٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خصال ابن الزبير كما وصفه ابن الخطيب " أنه كان كثير الخشوع والخشية مسترسلاً في العبارة صلباً في الحق شديداً على أهل البدع ملازما للسنة جزلا مهابا معظما عند العامة والخاصة عذب الفكاهة طيب المجالسة حلو النادرة يؤثر فيه في ذلك حكايات لا تخل بوقاره ولا تخل بجلال منصبه "[١]. وقال بعضهم : " كان ثقة قائما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قامعا لأهل البدع وله مع ملوك عصره وقائع "[٢].

جـ) مذهب ابن الزبير :

هو مالكي المذهب حيث ترجم له المالكية في طبقاتهم أمثال مخلوف وابن فرحون المالكي[٣].

د) مكانته العلمية :

نبغ ابن الزبير في مختلف الفروع العلمية، فكان في اللغة عالما محققا، قال عنه أبو حيان : "كان محررا في اللغة، وكان أفصح عالم رأيته "[٤]. كما اشتهر برواية الحديث وكان يميز صحيحه من سقيمه، وإلى جانب هذا وذاك فقد كان ابن الزبير عالما بالأصول والقراءات والفقه حيث تفقّه عليه خلق كثير. ولعل مما يبرز المكانة العلمية لابن الزبير ما سمي له من المؤلفات التي فقدت في معظمها و لم يصلنا منها إلا القليل.

هـ) شيوخ ابن الزبير وتلاميذه :

يصل عدد شيوخ ابن الزبير إلى أربع مائة شيخ كما يقول ابن فرحون ومحمد مخلوف، ومن شيوخه : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم النفزي الأبدي (ت ٦٥٩ هـ)، وإبراهيم بن محمد بن الكمال وغيرهم.

وممن تتلمذوا على ابن الزبير أبو حيان الأندلسي المفسر (ت ٧٤٥ هـ)، وأحمد بن سعد بن علي بن محمد أبو جعفر الأنصاري وغيرهم كثير [٥].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ١/١٩٠.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١/٩١.

(٣) ابن فرحون المالكي، الديباج انظر ص ٨٨، ترجمة رقم ٦٦. وانظر كتاب مخلوف، شجرة النور الزكية، ص ٢١٢، ترجمة رقم ٧٤.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ١/٩١.

(٥) انظر مخلوف، شجرة النور الزكية، ص٢١٢، وابن فرحون، الديباج ص ١٨٨، ومقدمة المحقق لملاك التأويل د.محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ص ١٦ ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و) مؤلفات ابن الزبير :

لابن الزبير كتب كثيرة تؤكد مكانته العلمية المرموقة واشتهاره في أكثر من فن من العلوم، وهذه الكتب هي :

١-الإعلام بمن حتم به القطر الأندلسي من الأعلام، وهو كتاب في تاريخ أعلام الأندلس. وذكر هذا الكتاب الشوكاني وابن حجر وغيرهم [١].

٢- البرهان في ترتيب سور القرآن. لمعرفة التناسب والنظم في ما بين السور والآيات.

٣- التعليق على كتاب سيبويه.

٤- ردع الجاهل على اعتساف المجاهل؛ في الرد على الشعوذة.

٥- الزمان والمكان.

٦- سبيل الرشاد في فضل الجهاد.

٧- شرح الإشارة للباجي في الأصول.

٨- صلة الصلة؛ وهو ذيل على كتاب ابن بشكوال.

٩- معجم شيوخه.

١٠- المقصد الواجب.

١١- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل.

١٢- نزهة البصائر والأبصار.

ولم يصل إلينا من هذه المؤلفات إلا ملاك التأويل والبرهان وصلة الصلة المذيل به على كتاب الصلة لابن بشكوال [٢].

ز) وفاة ابن الزبير :

كانت وفاته رحمه الله في ربيع الأول سنة ٧٠٨ هـ، هذا وقد نسب الدكتور محمود كامل أحمد في مقدمته على ملاك التأويل لابن فرحون القول بأن وفاته أي ابن الزبير كانت سنة ثمانين وسبع مائة مخطئًا بذلك الشيخ مخلوف.

هذا وبعد التحقق من كتاب ابن فرحون تبين أنه كسائر الكتب يذكر أن وفاة ابن الزبير كانت سنة ثمانية وسبع مائة. لكنني وجدت المعلق يعلق على هذه النسخة في الحاشية رقم (٣)

---

(١) الشوكاني، الإمام العلامة محمد بن علي، (ت ١٢٥٠ هـ)، البدر الطالع، ٣٣/١ ، ترجمة ٢٠.

(٢) انظر مقدمة د. محمود أحمد على ملاك التأويل ص ٢٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقوله : " في المطبوعة : ثمانين وهو تحريف " ويحيل إلى مصادر مختلفة أجمعت على وفاة ابن الزبير في التاريخ المذكور أعني ٧٠٨ هـ، وهو المتفق عليه [١].

ح) نسبة ملاك التأويل لابن الزبير والتعريف بهذا الكتاب :

تقدم في ما سبق كلام الزركشي والسيوطي عن جهود الأقدمين في علم المتشابه اللفظي. وعلمت كيف أن الاثنين أجمعا على نسبة ملاك التأويل لابن الزبير. هذا ومن جهة ثانية فقد اتفقت كلمة المصادر المختلفة ممن ترجمت لابن الزبير على أن ملاك التأويل هو لابن الزبير الغرناطي.

هذا ولقد كان ابن الزبير حريصا في كتابه هذا على ذكر مصادره ونسبة الأقوال إلى قائليها، وخصوصًا ما كان من جهد صاحب درة التنزيل رحمه الله فكان يشير إلى كل ما ذكره صاحب درة التنزيل في كثير من الأحيان. فقول الحافظ ابن حجر إن ملاك التأويل تلخيص لكتاب الدرة مع زيادة من صاحبه[٢] هو قول غير مطرد تعوزه الدقة العلمية.

التعريف بكتاب ملاك التأويل :

هذا الكتاب هو ثالث الكتب التي وصلت إلينا في علم المتشابه اللفظي من الناحية الزمانية. وكتاب ملاك التأويل مطبوع في جزئين وذلك في طبعتين، الأولى لدار الغرب الإسلامي سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م، والثانية لدار النهضة العربية سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م. والنسخة الأولى من تحقيق سعيد الفلاح، والثانية من تحقيق محمود كامل أحمد. ولا ريب في أن الثانية أجود من الأولى من حيث منهج التحقيق، فقد توفّر لها من عمليات النقد الخارجي ما لم يتوفر لسابقتها.

وهو كسابقيه من الكتب المتخصصة في توجيه الآيات المتشابهات في ألفاظها. وعلى الرغم أن علم المتشابه فن من فنون التفسير إلا أننا لا نستطيع أن ننعت ملاك التأويل بأنه كتاب تفسير كما سمّاه البعض [٣]. فموضوع الكتاب بالدرجة الأولى هو توجيه المتشابه وقد يستطرد في أبحاث جانبية في التفسير لكنها ليست مقصودة وإنما هي فروع جانبية.

وينبه ابن الزبير في مقدمة كتابه على موضوع هذا الكتاب مبينا في البداية أنه من مغفلات العلماء في التصنيف. وهذا الموضوع هو توجيه ما تكرر لفظا أو اختلف بتقديم أو تأخير وزيادة

---

(١) انظر مخلوف، الشجرة، ص ٢١٢، والديباج ص ١٨٩، ومقدمة د. احمد على ملاك التأويل ٢٧/١.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٨٩/١.

(٣) انظر مقدمة الفلاح على ملاك التأويل ، ١٠٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التعبير. وهو موضوع حريّ بالتدبر لمعرفة إعجاز القرآن الـذي أرشـدنا الله سبحانه إلى تدبر آياته [١].

سبب تأليف الكتاب :

يصرح ابن الزبير بذلك في المقدمة قائلا أنه مما حرك إلى هذا العمل هو عدم وجود كتـاب في المتشابه، غير ما وجده من كتاب للخطيب الإسكافي يقصد به كتاب درة التنزيل وبدوره يثـني على هذا الكتاب مصرحا بالتزامه بالقول في الآيات التي تحدث فيها الخطيب مستدركا عليه آيات أخرى أغفلها صاحب الدرة.

وهكذا تلاحظ تأثر ابن الزبير بالخطيب من حيث عرضه لموضوع الكتاب والسبب الـذي دفعه إلى تأليفه. و لم يشر الغرناطي إلى كتاب الكرماني فلعله لم يصل إليه في تلك الآونة.

ثم يكشف ابن الزبير عن **جوانب منهجه في عرض الكتاب** ممثلا ذلك بما يأتي :

١- إبداء الرأي حول كلّ موطن من المواطن المتشابهة من مكنـون فـؤاده ومما يلهمـه الله ذكـره وعدم الرجوع إلى كلام الخطيب أو غيره إلا في الشاذ النادر.

٢- الإفصاح بما ينقله عن أرباب المعاني. وقد التزم ابن الزبير بالفعل بهذا الأمر حيث كان أكـثر الكتب الثلاثة ذكرا لمصارده.

٣- التنبيه على المغفل من قبل صاحب الدرة بـالحرف [غ] بالنسـبة لمـا لم يتعـرض إليـه الخطيـب وتنبه ابن الزبير للحديث عنه.

٤- أنه لم يقل في هذا العلم بالرأي المجرد إنما جاء محرزا بآلات من العلوم يتم بها لـه مـا أراد من توجيه المتشابه حيث إن هذه العلوم هي الآلات التي يجتهد المفسر لكتاب الله تعالى من خـلال الاستعانة بها [٢]. وسيأتي بيان ذلك بوضوح عند الحديث عن مصادر كتب المتشابه اللفظي.

هذا ولقد تأثر ابن الزبير في عرض الآيات المتشابهات بطريقة الخطيب فكان يعرض الآيتـين أو أكثر سائلا عن وجوه الاختلاف في ما بينها ثم يجيب على ذلك. ويمتـاز بأنـه كـان أكـثر مـن الخطيب وأشمل من حيث بيانه لأسـباب الاختـلاف بـين الآيـات المتشـابهة. ومثـل هـذه القضايـا وغيرها سيتم دراستها بالتفصيل عند المقارنة بين الكتب الثلاثـة إن شـاء الله تعـالى ــ، وذلـك في الفصل الثاني من الباب الثاني بعون الله.

---

(١) انظر مقدمة ملاك التأويل ، ١/٣.

(٢) انظر مقدمة ملاك التأويل ١ /٤-٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهدف من هذا الكتاب :

لا ريب أن القارئ للاسم الكامل لهذا الكتاب يتبين له هدف مؤلفه، وهو القطع بذوي الزيغ والجهالة ممن يرجفون بما تكرر من القرآن ظانّين مجيء ذلك من باب العبث لعزوفهم عن تدبر آي القرآن الكريم.

هذا ومما يمتاز به كتاب ملاك التأويل المنهجية الأصيلة في توجيه الآيات المتشابهات. وتكمن هذه الجدة والأصالة العلمية في ما يأتي:-

١) إضافة بعض المغفلات مما لم يذكر عند صاحب الدرة. هذا إذا ما تجاوزنا عما ليس من قبيل المتشابه مما أضافه ابن الزبير كالمواقع التي وردت في قصتين -وقد مر-.أما ماعدا ذلك من المتشابه المغفل من قبل صاحب الدرة فهو جانب مهم في الجديد الذي أضافه ابن الزبير.

٢) استعمال آلات مختلفة من العلوم في توجيه المتشابهات؛ من اللغة أو علوم القراءات أو أصول الفقه، وغير ذلك كما كان يفعل صاحب الدرة مما يدل على العمق الفكري والأصالة.

وهكذا ينتهي بنا التطواف من هذه الرحلة القصيرة التي تعرفنا من خلالها على أصحاب الكتب الثلاثة وكتبهم التي صنفوها في علم الآيات المتشابهات. وقد جاءت هذه المقدمات ضرورية لتعين على الدخول إلى دراسة ما في هذه الكتب الثلاثة دراسة تفصيلية بشكل متسلسل ومنطقي. فبعد أن تعرفنا على أصحاب هذه الكتب ونظرنا إلى جوانبها الشكلية والفنية لا بد من أن نخطو خطوات أخرى إلى الأمام لنعرف ما هي مصادرها التي اعتمدت عليها في توجيه الآيات المتشابهات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني

مصادر كتب المتشابه اللفظي الثلاثة

تمـــهيد

من المعلوم بالضرورة أن توجيه الآيـات المتشـابهات تشـابهاً لفظيـاً علـم يحتـاج إلى إعمـال فكـر واجتهاد من قبل دارس القرآن الكريم. ومن هنا فإنه لا يمكن توجيه المتشابه اللفظي بـالرأي المجرّد ومـن غير أصول ومرتكزات علمية يعتمدهـا المفسّـر. مـن أجـل ذلـك كلـه نجـد أن أصحـاب الكتـب الثلاثـة وخصوصاً ما كان من الخطيب وابن الزبير قد نبهوا في مقدماتهم على هذه الوسائل التي من خلالها سيتم توجيه المتشابه اللفظي.

ولقد مر بنا قول الخطيب في أن فهم هذه الآيات المتشابهات يجعلنا نملك مـن العلـوم مـا لم تملكـه أمة قبلنا. كما أضاف ابن الزبير أن كتابه هذا جاء محرزاً من آلات من العلوم بها يتم قوام المفهـوم. فلـم يكن توجيه المتشابه إذن قائما على خيال أو انطباع، وإنما هي وسائل اعتمدوها ومصادر رجعـوا إليهـا، ومرتكزات لا بد منها في فهم البيان القرآني بعامة والمتشـابه اللفظـي بخاصـة. وسـأمضي الآن في عـرض هذه المصادر الأصيلة التي اعتمدتها الكتب الثلاثة سائلا المولى توفيقه وعنايته إنه سميع مجيب.

المطلب الأول : القرآن الكريم

يعد الاستشهاد بالآيات القرآنية ظاهرة عامة في كتـب المتشـابه اللفظـي، وخاصـة مـا كـان مـن الخطيب وابن الزبير حيث كانا أكثر من الكرماني تعرضا لهذه الظاهرة، ذلك لأن الأخير بنى كتابه علـى الإيجاز، الأمر الذي جعل هذه الظاهرة تختفي عنده بنسبة كبيرة.

ولقد كان استشهاد الكتب الثلاثة بالقرآن الكريم ذا جوانب متعددة نجملها في مـا يـأتي ممثلـين على كل واحد منها بما يحقق المقصود، وهذه الجوانب هي :

١) الاستشهاد بالقرآن الكريم على قضايا عامة لا تسهم كثيرا في توجيه المتشابهات:

من ذلك ما جاء عند الخطيب في آية البقرة [٤٨] : ﴿**واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شـيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**﴾[1]. فذكر أمورا أربعة جـاءت بهـا الآيـة الكريمة لا يمكن أن تنفع الكافرين يوم القيامة، وهي المدافعة بالنفس والشفاعة باللسان والفداء والنصرة. ومثّل بهذه الأمور الأربعة على حال من يتعرض لاعتداء في الدنيا فإن هو يئس من الأمـور الثلاثـة الأولى

(١) انظر درة التنزيل، ص ١١-١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي ذكرنا بقي طمعه في الرابع وهو النصرة. ويستشهد الخطيب على هذا المثال مستطردا بآيتين كريمتين الأولى قوله تعالى :﴿**ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله**﴾ [الحج/٦٠]، والثانية قوله : ﴿**فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً**﴾ [الإسراء / ٣٣] فتلاحظ أنه تفريع استطرادي لا دخل له في توجيه المتشابهات.

ومثل ذلك ما جاء عند ابن الزبير في أم القرآن في موقع: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾[الفاتحة /٢] بين الرب والمالك، وهما صفتان تشعران بالهيمنة والرهبة. فجاء الرحمن الرحيم تلطفا بحال الناس ليظلوا بين الخوف والرجاء. يمهد ابن الزبير لهذا الفهم بقضية عامة وهي عناية الله تعالى بهذه الأمة وبنبيها عليه وآله السلام ويستشهد لذلك بآيتين كريمتين الأولى قوله تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران/١١٠] والثانية ما كان من تكريمه عليه السلام : ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ [التوبة/٤٣] وهذا كثير عند الخطيب وابن الزبير[١].

٢) الاستشهاد بالقرآن على قضايا نحوية :

ويكثر هذا عند الخطيب، فانظر مثلا إلى كلامه عن آية النحل [٣٥] : ﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء**﴾ ففصل بين المعطوفين أي الفاعل في عبدنا وقوله : ﴿**ولا آباؤنا**﴾ فَصَل بينهما بجارَّين ومجرورين فاحتيج إلى تأكيد العامل مرة أخرى بالضمير [نحن]. والفاصل هو قوله:﴿**من دونه من شيء**﴾ ويستدل الخطيب على مجيء مثل هذا التأكيد في إعادة العامل لمجيء الفواصل بعدد من الآيات كقوله تعالى :﴿**وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون**﴾ [النمل/٦٧] فالفاصل (تراباً وآباؤنا)، وقوله : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**﴾ [الكهف/٣٠][٢].

ومن ذلك استشهاده على الجموع التي واحدها مذكر في قوله تعالى في البقرة [٨٠] : ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**﴾ حيث إن الأيام جمع ومفردها يوم فلم ينعت الجمع الذي واحده مذكر بالألف والتاء على نحو قوله تعالى : ﴿**وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة**﴾ [الغاشية /١٣-١٥][٣].

ومن ذاك ما جاء عند الغرناطي وهو يعلل قصد التذكير والتأنيث ما بين آل عمران [٤٩] والمائدة [١١٠] في قصة عيسى عليه السلام فقد قال في الأولى :﴿**أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله**﴾ وقال في المائدة : ﴿**فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني**﴾[٤] فجاء التذكير

(١) انظر ملاك التأويل، ١/٢٢-٢٤.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٣٥.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٢٣.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الأولى مراعاة للفظ الكاف أو مثل. وجاء في الثانية مؤنثا مراعاة للمعنى وهو التأنيث. ويستشهد ابن الزبير لهذه الظاهرة من القرآن بقوله تعالى : ﴿**ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا**﴾ [الأحزاب /٣١]. فراعى أولا اللفظ ومن ثم راعى جانب المعنى العائد إلى النساء فقال : ﴿**وتعمل صالحا**﴾ وفي مراعاة اللفظ يقنت.

٣) الاستشهاد بالقرآن على تقرير مسائل بلاغية :

وهذا ما كان يكثر عند الغرناطي دون الخطيب الذي كان أكثر ميولا للصبغة النحوية. فمن ذلك ما عرضه الغرناطيّ من فصل من المغفلات حول دراسة أسلوب التأكيد بِمِنْ الجارَّة. تلاحظ أنه جاء بآيات ثلاث من الأنعام [٦] والسجدة [٢٦] وص [٣] وهي قوله تعالى : ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم**﴾، وقوله : ﴿**أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم**﴾، وقوله : ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص**﴾، ويأتي بنمط آخر من الآيات حذفت منها من، كقوله تعالى في مريم [٩٩] :﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد**﴾[١]، تلاحظ أن ابن الزبير يستشهد بهذه الآيات المتفرقة ليثبت حقيقة واحدة، تلكم هي أن الآيات التي ذكرت فيها [من] الجارة فيها مزيد من التهديد والتخويف، ويبدأ كعادته بتحليل سياق كل آية من هذه الآيات. أما الآيات التي لم تذكر فيها فهي أقل حجما في تأكيد الوعيد.

٤) الاستشهاد بالقرآن على معاني بعض النظائر المتشابهة :

فنجد الخطيب مثلا عندما أتم كلامه حول آية الأنعام [١٧] : ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو...**﴾الآية تجده في آخر كلامه يستشهد على المعنى بآية الزمر [٣٨] : ﴿**قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته**﴾[٢].

ومثل ذلك ما جاء عند الكرمانيّ في قوله تعالى:﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ [الفاتحة /٦،٧] يورد وفاقا لهذا المعنى ما كان في آخر الشورى [٥٢،٥٣] : ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله**﴾[٣]. ومثله عند الغرناطي في آية البقرة [٦٣] : ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ حيث يستشهد على معناها بقوله في الأعراف [١٧١] :﴿**وإذ**

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٨٤-٢٨٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١١٤.

(٣) انظر البرهان للكرماني ص ٢٠، فقرة ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾[١].

٥) الاستشهاد بالقرآن على توضيح بعض المفردات القرآنية :

وهذا ما كان يحدث عند الغرناطي دون صاحبيه. مثاله ما وقع في أول النساء من تفريقه بين الخلق والجعل، حيث بيّن أن الخلق إنما هو إيجاد من العدم بينما الجعل تحوّل من شيء موجود واستدل على ذلك بآية الأنعام [١] : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾[٢]، فعبر عن السموات والأرض بالخلق لأنهما وجدتا من العدم، بينما أسند الظلمات والنور إلى الجعل لأنهما وجدا نتيجة موجود وهو تغير الأجرام من حيث تعاقب الليل والنهار.

٦) الاستشهاد بالسياق القرآني للآيات المتشابهات :

وسيأتي الحديث عن هذا الجانب بالتفصيل في المصدر الخامس من مصادر كتب المتشابه اللفظي إن شاء الله وإنما أحببت أن أذكره هنا لأنه جانب مهم من الشواهد القرآنية في خدمة المتشابه اللفظي.

٧) اعتماد أصحاب الكتب الثلاثة على فهم بعض الشواهد القرآنية في توجيه بعض المتشابهات :

ويشبه هذا الضرب ما فسر من قبيل القرآن بالقرآن. لكن هذا قليل ونادر في توجيه المتشابه اللفظي و لم أعثر منه إلا على موضع واحد، وهو ما جاء في المقارنة بين الجزاءين في سورة النبأ حيث قال في حال الكافرين : ﴿جزاء وفاقا﴾ [النبأ/٢٦] وفي حال المؤمنين : ﴿جزاء من ربك عطاء حسابا﴾ [النبأ /٣٦] فالجزاء بالمثل كان في شأن الكافرين والجزاء بالعطاء الجزيل المضاعف كان للمؤمنين. تجد أن الكتب الثلاثة من دون تمييز تسوق الشواهد القرآنية المقررة لهذه الحقيقة كقوله تعالى في الأنعام [١٦٠]:﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ وغيرها من الآيات التي توضح هذا المفهوم[٣].

٨) الاستشهاد بالقرآن الكريم حتى قواعد قرآنية مطردة :

يكثر مثل هذا عند ابن الزبير من خلال حديثه الاستطرادي في توجيه بعض المتشابهات. فمن ذلك ما أورده في آيات المائدة [٤٤، ٤٥، ٤٧] : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ حيث يعد ابن الزبير فواصل الآي الثلاثة على الترتيب الحاصل وهو قوله : [الكافرون الظالمون الفاسقون] تدرجاً في الوصف من الأخف إلى الأثقل. وهذا التدرج من الأخف للأثقل كثيرا ما يراعيه القرآن في آيات النعيم والعذاب

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٧٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/١٨٥-١٨٧.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٥١٦، والبرهان ص ٢٠١، فقرة ٥٤٩، وملاك التأويل ٢/٩٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على حد سواء. فمثال تدرجه في النعيم ما جاء في البقرة [٢٥] :﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**﴾ فتدرج في أمور كثيرة بدأها بالبشارة وأنهاها بالخلود الذي هو من أرقى مراتب النعيم. كما يستشهد بالآيات الواقعة في آل عمران [٨٦-٩١] : ﴿**كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم**﴾ إلى قوله : ﴿**وما لهم من ناصرين**﴾ فجاء في بيان حال ثلاث طوائف من الفئات الكافرة تدرج في ذلك من حال الأخف إلى حال الأثقل وهم الذين ماتوا على الكفر فحالهم أشد نكيراً من المنافقين والمرتدين وهما الطائفتان الأوليان [١].

ومما تقدم ندرك أن القرآن الكريم كان عماداً أصيلاً لا يستغنى عنه في خدمة توجيه المتشابهات، وإن كان في بعض الأحيان يذكر في بحوث استطرادية في بعض القضايا العامة التي لا تخدم توجيه المتشابه في شيء.

هذا ويعد اعتماد الكتب الثلاثة على القرآن الكريم من أصدق الأدلة على أنهم لم يقولوا بالرأي المجرد المنبعث عن الانطباع والخيال وإنما كانوا يستأنسون بهذه الآيات في القضايا المختلفة وإن كانت لا تخدم توجيه المتشابه بشكل مباشر.

المطلب الثاني : الحديث النبوي

تلاحظ ومنذ البداية قلة اعتماد الكتب الثلاثة على الحديث، ذلك أن الحديث الشريف مثل القرآن الكريم لا يؤدي خدمة مباشرة في توجيه الآيات المتشابهات. وإنما كانوا يستأنسون بكلامه صلى الله عليه وسلم في جوانب مختلفة نجملها في ما يلي :

١) الاستشهاد بالحديث على قضايا عامة :

كما جاء عند الخطيب في آية البقرة [١٨٧] : ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾ حيث استشهد بقوله عليه السلام: (من رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[٢].

أما ابن الزبير فيستشهد بحديث آخر في هذا الموطن وهو القول الذي جاء عن عائشة رضي الله عنها وأيكم يملك إربه... الحديث [٣]؟!.

---

(١) الآيات التي تدرجت في بيان حال الكافرين هي من آل عمران ٨٦-٩١، وانظر ملاك التأويل ٢/٢٥٤-٢٥٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٤٥، والحديث متفق عليه، انظر البخاري رقم ٢٠٥١، ومسلم برقم ١٥٩٩.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١١٥، والحديث متفق عليه، انظر البخاري برقم ١٩٢٧، ومسلم برقم ١١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك أيضا استشهاد ابن الزبير بقوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم.. الحديث)، وذلك في آية البقرة [١٩٣]: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾[١].

ومن ذلك أيضا ما جاء عند الكتب الثلاثة في سورة الشرح حيث يستشهدون بالحديث (لن يغلب عسر يسرين) لكن الذي يلاحظ اختلافهم في نسبة الحديث للنبي صلى الله عليه وسلم ففي حين نسبه الخطيب إلى النبي عليه السلام تجد أن الكرماني نسبه إلى عمر رضي الله عنه أما ابن الزبير فقد أورده بصيغة التضعيف وهو لفظ قيل [٢].

٢) استشهاد الغرناطي بالأحاديث الداعمة لآرائه في توجيه المتشابه :

فتجده مثلا في آية آل عمران [١٦٤] : ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم**﴾، وقال في الجمعة [٢] في عموم الأميين : ﴿**رسولا منهم**﴾ حيث اعتبر أن قوله : ﴿**من أنفسهم**﴾ يوحي بمنزلة التشريف والصّبق بينما قوله : ﴿**منهم**﴾ في الجمعة يدل على النوع والخصوصية ويستشهد على ذلك بحديثين الأول : قوله عليه السلام : (سلمان منّا أهل البيت) والثاني : (فاطمة بضعة مني) حيث يشرح ظاهرة التخصيص التي في الحديثين[٣].

٣) استشهاد ابن الزبير بالحديث لتوضيح بعض الحقائق اللغوية:

من ذلك ما جاء في حديثه عن الإسلام والإيمان في أواخر سورة يونس عليه السلام حيث يبين أن الإيمان هو التصديق والإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد. ثم بين أنه إذا ذُكِرَ هذان المسمّيان مجتمعين فإنهما يحتملان المعنى نفسه. أما إذا فُصِلَ بينهما فيبقى لكل معناه الحقيقي الذي اختص به، ويستشهد على ذلك بحديث جبريل حينما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان [٤].

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١١٩، والحديث متفق عليه، انظر البخاري رقم ٢٥، ومسلم رقم ٢٢.

(٢) انظر الدرة ص ٥٢٣، والبرهان ٢٠٨، فقرة ٥٦٧، والملاك ٢/٩٥٣، والحديث أورده السيوطي في الدر ٦/٣٦٤ عن قتادة بلاغاً مرسلاً، وهو مروي بغير هذا اللفظ عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالسا فنظر إلى حجر بحيال وجهه، فقال : (لو كانت العسرة تجيء حتى تدخل هذا الحجر لجاءت اليسرة حتى تخرجها) ثم تلا ﴿فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا﴾ ، الشرح [٥،٦] رواه الطبراني في الأوسط برقم ١٥٤٨، والبيهقي برقم ١٠٠١٢، وهو مما تفرد به حميد ابن حماد عن عائذ بن شريح وهذا الأخير ضعفه الهيثمي، (انظر مجمع الزوائد ٧/١٣٩).

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٧٧-١٧٩، والحديث الأول رواه الحاكم في المستدرك وسكت عنه، بيد أن الذهبي في التلخيص قال: سنده ضعيف، (انظر الحاكم، المستدرك ٥/٥٩٨، ورواه الطبراني في الكبير ٦/٢٦١، برقم ٦٠٤٠)، وقال فيه الهيثمي : فيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور وحسنه الترمذي. (مجمع الزوائد ٦/١٣٠)، وتعقبه حمدي السلفي بأن الشافعي وأبي داود نسباه إلى الكذب، ولا يعتمد على تصحيح وتحسين الترمذي لما اتفق العلماء عليه من أن تصحيحه وتحسينه لا يعتمد عليه. والحديث الثاني متفق عليه انظر البخاري برقم ٣٧٦٧ ،ومسلم برقم ٢٤٤٩، واللفظ له.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٥٠٣-٥٠٥، والحديث رواه البخاري برقم ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤) الاستشهاد بالحديث في توضيح بعض المفاهيم القرآنية :

مثاله ما كان من الكرماني وابن الزبير في سورة مريم عند قوله تعالى عن يحيى : ﴿**ولم يكن جبارا عصيا**﴾ [مريم/١٤] تجدهم يستشهدون لتوضيح ذلك بالحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم (ما من أحد من بني آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى بن زكريا) فنفى عنه العصيان من أجل ذلك دون عيسى الذي نفى عنه الشقاء[١]، ومع كون هذا المثال ليس من قبيل المتشابه لاختلاف القصتين إلا أنني أذكره هنا لأننا ندرس مصادر الكتب الثلاثة بعامة وليس على الاعتبار الذي قدمته في بداية هذه الدراسة بالنسبة لما يتعلق بضوابط المتشابه اللفظي وما هو ليس منه.

٥) استشهاد الغرناطي بالحديث والقرآن على جرس الكلمة :

فمن ذلك ما قاله في آية الكهف[٣٦] : ﴿**ولإن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا**﴾ حيث يبين أن هذه الكلمة تحمل في جرسها القهر والشدة والتعنيف دون كلمة الرجوع. ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿**ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا**﴾ [الكهف/٨٧] وبالحديث الذي جاء في وصف الشيطان الذي تفلت على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة (فردّه الله خاسئا)[٢].

٦) الاستشهاد بالحديث في بحوث استطرادية وأفكار جانبية تأتي أحيانا عند الخطيب وابن الزبير :

فمن ذلك ما أورده الخطيب في بيان التكرار الواقع في آية المرسلات ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ لما بلغ تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ [المرسلات/٤٧] استشهد بحديث هند بنت عتبة حينما كرهت من الإسلام ثلاثا وذكر منها التحيية أي الركوع[٣]. ومن ذلك ما جاء عند ابن الزبير أيضا عند حديثه عن الآية في أواخر الجن [٢٦] ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا**﴾ حيث يستطرد ببحث له عن علم الله للغيب، ومن خلال هذا التفريع يستشهد ابن الزبير بحديثين عن ابن عباس من رواية الترمذي وعن أبي هريرة من رواية البخاري وذلك في كيفية استراق الشياطين لعلم الغيب حين يصل السماء الدنيا [٤].

---

(١) انظر البرهان، ص ١٢٤، فقرة ٢٩١، وملاك التأويل ٦٥٨/٢، والحديث رواه أحمد في مسنده، ٢٩٢/١، وابن جرير في تفسيره ٥٨/١٦، وابن كثير في تفسيره ١١١/٣، ١١٢).

(٢) انظر ملاك التأويل ٦٤٦/٢، والحديث رواه مسلم ٣٨٤/١.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٥١٤، والحديث لم أعثر عليه في معظم المصادر.

(٤) انظر ملاك التأويل ٩٢٢/٢، والحديث الأول رواه الترمذي عن ابن عباس رقم ٣٢٢٤، وقال هذا حديث حسن صحيح، (٣٣٨/٥)، والحديث الثاني رواه البخاري عن أبي هريرة برقم ٤٧٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ضوء ما تقدم فإننا نلحظ أن كتب المتشابه اللفظي ضيقت من نسبة استشهادها بالحديث، وذلك أكثر من القرآن الكريم، فجعلته على قضايا عامة وأفكار جانبية وتوضيح مفاهيم قرآنية معينة احتاجوا إلى توضيحها من خلال المتشابهات.

ويلاحظ أن ابن الزبير كان أكثر الكتب الثلاثة استشهادا بالحديث لكثرة التفريعات الجانبية في ملاك التأويل. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن ابن الزبير من علماء الحديث أصلا فبدت خبرته بإيراد الآثار أكثر من غيره في هذا المجال.

كما تلاحظ من جهة ثالثة أن كتب المتشابه اللفظي راعت الاستشهاد بالصحيح على الأغلب و لم تذكر من الضعيف إلا ما ندر كما مر من الحديث (لن يغلب عسر يسرين). و لم يتعرض الخطيب لذكر الأخبار الإسرائيلية إلا مرة واحدة، وتابعه على ذلك الكرماني وذلك عند بيانهم لآية العنكبوت [٢٢] : ﴿**وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء**﴾ حيث قالوا : "إنه ذكر السماء هنا لأن الآية جاءت على لسان إبراهيم لقومه الذين كان فيهم النمرود بن كنعان وما جاء في ذكره من أنه كان ينوي الصعود إلى السماء"[(١)].

أما ابن الزبير فلم يذكر هذا الخبر واكتفى بتعليل هذه الآية عن طريق فهم السياق القرآني[(٢)]، فلعله علم أنه خبر ليس بمحل للاحتجاج.

هذا وقد يستشهد الغرناطي بعموم الأحاديث الصحيحة على ما قد يتبنّاه من رأي في توجيه المتشابه. كما تلاحظ ذلك في آخر الزمر [٧٣] ﴿**وفتحت أبوابها**﴾ فيبين أن الواو عاطفة وأن المجيئ من المؤمنين إنما يكون بعد أن تفتح أبواب الجنة ويكون دخلها النبي الكريم أول الناس. ويستدل لمذهبه هذا بما جاء من عموم الأخبار الواردة في أحاديث الشفاعة عند الترمذي وأحمد وغيرهم [(٣)].

المطلب الثالث : الأقوال المأثورة عن السلف في التفسير عند الكتب الثلاثة

لم يؤثر عن السلف في التفسير شيء ذو بال في توجيه المتشابه اللفظي، إنما هي أقوال مجردة في التفسير، وغالبًا ما تكون مقتضبة لتوضيح مبهم أو بيان سبب النزول ومَنْ نزلت فيه الآية وغير ذلك.

ولمثل هذه الغايات جاءت هذه المأثورات في كتب المتشابه اللفظي. فمن ذلك مثلا ما جاء عند الخطيب حين تعرّض لآية المائدة الثانية : ﴿**يحرفون الكلم من بعد مواضعه**﴾ [المائدة/٤١]، ذكر فيها قولين : الأول : أنها في اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل وكانوا ينوون تحريف القرآن بعد زمان

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٣٥١، والبرهان ١٥٢، فقرة ٣٧٧، وخبر النمرود ذكره ابن كثير في تفسيره ١/٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٦٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٨٣٣-٨٣٥، وأحاديث الشفاعة مروية عند الترمذي في السنن برقم ٢٤٣٤، قال : " وفي الباب عن أبي بكر الصديق وأنس وعقبة بن عامر وأبي سعيد، وقال : هذا حديث حسن صحيح "، كما هي مذكورة عند أحمد في المسند ٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزوله. والثاني : ما أورده بصيغة الاحتمال وهو أن الآية نازلة في جماعة من اليهود أتوا النبي عليه السلام بزانٍ محصن وقالوا لبعضهم : إن أفتاكم بالجلد فاجلدوه وإن أفتاكم بالرجم فلا ترجموه. وقال قتادة : إن ذلك كان في قتيل منهم حيث قالوا : إن أفتاكم محمد بالدية فاقبلوه وإن كان بالقود فاحذروا [١].

وأحيانا ما تجد الخطيب يستطرد في إيراد أقوال السلف في ما لا يخدم المتشابه لا من قريب ولا من بعيد كتفسيره معنى الملك في المائدة [٢٠] ﴿**وجعلكم ملوكا**﴾ حيث يقول : وقد اختلف الناس في معنى الملك فقال عبد الله بن عمرو بن العاص [٢] وزيد بن أسلم [٣].

والحسن [٤] أقل الحال التي إذا كانت كان الإنسان بها ملكاً، الدار والمرأة والخدم. وقال غيرهم : الملك الذي له ما يستغني به عن تكلف الأعمال وتحمل المشاق للمعاش، كما يذكر أقوالا أخرى في هذا المجال [٥].

ومن ذلك ما أورده الكرماني في آية الرعد [٣٨] ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلا وجعلنا لهم أزواجا وذرية**﴾ يذكر قول ابن عباس : عيّروا رسول الله صلى الله عليه وسلم باشتغاله بالنكاح والتكثير منه فنزلت الآية [٦].

ومن ذلك ما نقله الكرماني عن مجاهد[٧] في الصافات أن الحليم والعليم هو إسماعيل. ويورد قولا آخر بصيغة التضعيف قيل إنه إسحاق وهذا عند من زعم أن الذبيح إسحاق [٨].

وتلاحظ أن ما ينقله الكرماني لا يخدم المتشابه اللفظي من جهة، و لم يورده غالب المفسرين من جهة ثانية لأن فيه مقالاً ولا يصح معظمه.

أما ابن الزبير فيسلك نهج الخطيب حيث لا يورد من المأثور إلا ما تأكد من صحته، هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن يكون ذلك المأثور لتوضيح معنى فيه شيء من الغموض. فمن ذلك مثلا ما

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٩٢.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص هو أبو محمد، أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة والفقهاء، مات في ذي الحجة. ابن حجر تقريب التهذيب ص ٣٠، رقم ٣٥٣٤.

(٣) هو زيد بن أسلم العدوي، مولى عمرو أبو عبد الله وأبو أسامة المدني، ثقة عالم، وكان يرسل (ت ١٣٦ هـ).ابن حجر تقريب التهذيب ص ٣٥٠، رقم ٢١٣٩.

(٤) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، ثقة فقيه فاضل مشهور، كان يرسل ويدلس كثيرا، مات سنة ١١٠هـ . ابن حجر، تقريب التهذيب ص ٢٣٦، برقم ١٢٣٧.

(٥) انظر درة التنزيل ص ٩٧، والطبري، جامع البيان، ١٦١/١٠.

(٦) انظر البرهان ص ١٠٥، فقرة ٢٤١، وأورد القرطبي هذا الأثر في تفسيره غير منسوب إلى ابن عباس، (الجامع لأحكام القرآن ٣٢٧/٩).

(٧) هو مجاهد بن جبير، أبو الحجاج المخزومي مولاه المكي ثقة إمام في التفسير، مات سنة ١٠١هـ، أو ١٠٢، أو ١٠٣، أو ١٠٤. (ابن حجر، تقريب التهذيب ص ٩٢١، برقم ٦٥٢٣).

(٨) انظر البرهان ص١٦٩، فقرة ٤٣٢، وابن جرير ٧٦/٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقله في آية آل عمران [٤١] : ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ تجده يفسر الرمز بأنه ما يفهمك المقصود دون نطق كالإشارة باليد أو العين ويذكر عن مجاهد أنه بالشفتين [١].

وهكذا يتبين أن كتب المتشابه اللفظي بعامة اعتمدت على قاعدة المأثور من التفسير بشكل غير مباشر في توجيه الآيات المتشابهات. وإنما كانت تستأنس بهذا المأثور خشية أن تقع في مزالق الرأي الذي لا يرتكز إلى أسس متينة.

كما يتحصّل مما تقدم أنه لا يوجد للصحابة والتابعين رضي الله عنهم جهد يذكر في خدمة المتشابه اللفظي، وهذا إن دل على شيء فلا يدل على قصور عندهم في الفهم ـ والعياذ بالله تعالى إنما العكس هو الصحيح، فقد كانوا من خير القرون ومن أفضل من فهم القرآن ومن أفصح العرب بحيث اجتمع لهم كل ما يميزهم عمن جاء بعدهم. ومن أجل ذلك كان التفسير عندهم يمتاز بالإجمال لعدم حاجتهم إلى الإطالة في البيان [٢].

وبالرغم من هذا الإجمال والاقتضاب في هذه الأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين، إلا أنك تجد ابن الزبير يجد فيها دليلا له على ما يتبنّاه من آراء. فعند حديثه عن الآية الأولى مما عده من المتشابه في سورة الكهف [٢٢] ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ فإنه يذهب إلى أن [الواو] في قوله : ﴿وثامنهم كلبهم﴾ هي العاطفة مستدلا بقول الزمخشري، والتقدير : سبعة هم كذلك. وقوله : ﴿وثامنهم كلبهم﴾ صفة لتلك الجملة. ويستدل على ذلك بأن الله سبحانه حينما وصفهم أنهم سبعة قال ابن عباس : انقطعت العدة. وأن الله تعالى لم يقل عن هذا القول بأنه رجم بالغيب كسابقيه. كما يذكر قول ابن عباس في ما حكاه عنه المفسرون : (وأنا من ذلك القليل)[٣].

المطلب الرابع : كتب التفسير والآراء التفسيرية

لم يكتف أصحاب الكتب الثلاثة بالاعتماد على التفسير المأثور ليكون أساساً لهم في توجيه المتشابه اللفظي، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا، لقد أخذوا يراجعون كتب المفسرين وآراءهم المختلفة حتى لا تزل بهم القدم في توجيه الآيات المتشابهات. ولا غرابة في أن يحدث مثل هذا، ذلك أن توجيه المتشابه اللفظي هو لون من ألوان التفسير بالرأي والاجتهاد، فلا يضير إذن إطلاعهم على آراء الغير ولتثبت بذلك أقدامهم على أفضل منهج وأقوم سبيل.

هذا وسأتناول كتب التفسير التي اعتمد عليها أصحاب الكتب الثلاثة. ثم ما ذكروه في كتبهم من آراء متفرقة للمفسرين مما لم ينسبوه لأحد.

---

(١) ملاك التأويل ١/١٥٤، وتفسير ابن حرير ٦/٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون، انظر ص ٩٧، ٩٨، حول مميزات التفسير في عصر الصحابة.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٦٤٠ إلى ٦٤٤، وانظر قول ابن عباس عند ابن جرير ١٥/٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ) كتب التفسير المعتمدة عند كتب المتشابه اللفظي

كان ابن الزبير من أكثر الكتب الثلاثة رجوعا واعتمادا على كتب التفسير المختلفة، في حين تلاحظ أن صاحبيه أعني الخطيب وتاج القراء لم يسميا أي كتاب تفسير اعتمدا عليه، وإنما هي آراء مختلفة للمفسرين دون أن ينسبوها لأي كتاب.

ولقد وجدت بعض الإشارات اليسيرة التي لا تكاد تذكر عند الخطيب وتاج القراء حول اعتمادهم لبعض المصادر التفسيرية من تلك التي كتبوها بأنفسهم في التفسير.

أما الخطيب فلقد وجدته يرجع مرة واحدة إلى كتاب يسميه (جامع التفسير)، وذلك عند حديثه عن سورة الكافرون. يقول الخطيب مجيبا عن سبب التكرار في هذه السورة : " الجواب أن يقال إنا قد أجبنا في جامع التفسير عن ذلك بأجوبة كثيرة فنذكر منها واحدًا في هذا الموضع وهو أن يقال معناه : لا أعبد الأصنام لعلمي بفساد ذلك ولا أنتم تعبدون الله لجهلكم ما يوجب عليكم. ولا أعبد آلهتكم لتعبدوا الله مناوبة بيننا، ولا أنتم تعبدون الله من أجل أن يكون سبقت مني عبادة آلهتكم، وذلك حين طلب المشركون منه الاشتراك في العبادة فنفى في الأول عن نفسه عبادة الأصنام للعلم ببطلانها ونفى عنهم عبادة الله لجهلهم أنه وجده الذي تحق له العبادة، وفي الثاني نفي للعبادة التي دعوا إليها على وجه المناوبة "[1] ثم يحيل إلى كلام آخر له في هذا الكتاب.

والأمر الذي يستدعي الاستغراب هو أن الخطيب لم يشر إلى هذا الكتاب إلا مرة واحدة وقعت في أواخر السور التي تحدث عنها. ومن جهة ثانية فإن الكتاب لم تذكره كتب التراجم التي ذكرت مؤلفات الخطيب الإسكافي، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب مجهول الهوية ويكتنف شأنه الغموض.

أما الكرماني فهو الآخر كان يرجع على قلة إلى كتاب له اسمه لباب التفسير والذي ما زال مخطوطاً كما علمت ذلك في الترجمة لتاج القراء ويبدو أن هذا الكتاب كان تاج القراء يجمع فيه أقوال المفسرين المختلفة من الصحيح وغيره وحتى الأقوال الغريبة التي لا يعتد بها وقد تقدم قول السيوطي في ذلك.

ففي أوائل الأعراف [١٢] : ﴿**ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك**﴾ يقول تاج القراء : "وللمفسرين في [لا] أقوال، قال بعضهم : لا صلة، كما في قوله : ﴿**لئلا يعلم**﴾ [الحديد/٢٩]، وقال بعضهم : الممنوع من الشيء مضطر إلى ما منع منه، وقال بعضهم : ما الذي جعلك في منعة من عذابي، وقال بعضهم : معناه : من قال لك لا تسجد ؟. وقد ذكرتُ ذلك وأخبرت بالصواب في كتابي لباب التفسير"، ثم يذكر أي الكرماني مقصود هذا الكتاب وهو اختصاص [لا] بالذكر في هذه السورة [2].

---

(١) انظر درة التنزيل، ص ٥٣٥.

(٢) انظر البرهان ص ٦٨، ٦٩، فقرة ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقل إشارة الكرماني إلى هذا الكتاب، ولا يذكره إلا في القليل النادر، ومن ذلك إضافة لما تقدم ما جاء في حديثه في آية يوسف [٢٢] : ﴿ولمّا بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾، تجده يقول : " والخلاف في الأشد ذكر في موضعه "[١]، ولعله بذلك يشير إلى كتاب لباب التفسير الذي جمع فيه أقوال المفسرين.

أما ابن الزبير فقد درج على ذكر مصادره وتحقيق مادته العلمية، فقد اعتمد كثيراً من كتب التفسير وغيرها من تلك التي تخدم مقصوده في هذا الكتاب. و لم يكن ابن الزبير ناقلا فحسب، بل وإنما ينقل ناقدا ومستدلا على بعض الحقائق ومخطّئا في بعض الأحيان لمن ينقل عنهم أو مصوّبا إلى غير ذلك من الغايات التي يقصد البحث العلمي من أجلها.

هذا ولقد اعتاد ابن الزبير على مراجعة كتب التفسير الآتية :

١) تفسير ابن جرير جامع البيان :

يستشهد ابن الزبير بأقوال هذا المفسر في بعض الأحيان للاستدلال على ما يتبناه من أفكار في توجيه المتشابهات. فمن ذلك ما أورده عن ابن جرير في آية التوبة [١٠٥] : ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ حيث ذكر عن الطبري مدعّما رأيه أنها نزلت في التائبين من المخلفين يوم تبوك ويطيل في الدفاع عن هذا الرأي وما قد يرد عليه من اعتراضات. وفي هذا الصدد يردابن الزبير قول ابن عطية في الآية نفسها، وهو أنها تهديد للمنافقين ووعيد لهم وأنهم أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿**ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم**﴾ [التوبة /٧٨] كما ينبه ابن الزبير على أنه حري بأن يتعرض المفسرون لهذه الآية التي تكلم عنها ناقداً للمفسرين الآخرين لم يتنبهوا للحديث في هذا الموضوع[٢].

٢) الزمخشري في تفسير الكشاف :

وهذا التفسير من أكثر التفاسير التي اعتمدها ابن الزبير. فأحيانا كنت تجده ينقل رأي الزمخشري في توضيح حقيقة بعض النظائر المتشابهة مستحسنا لما يقول. فمن ذلك ما نقله عنه في آية الأنعام [٩٥] : ﴿**إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**﴾ حيث ذكر جار الله أن الجملة الثانية من هذه الآية : ﴿**يخرج الحي من الميت**﴾ هي مبيّنة للأولى ﴿**فالق الحب والنوى**﴾، والجملة الثالثة : ﴿**ومخرج الميت من الحي**﴾ معطوفة على الأولى ﴿**إن الله فالق الحب والنوى**﴾ نقل

---

(١) البرهان، ص ١٠٠، فقرة ٢٢٣.

(٢) انظر ملاك التأويل ٤٧١/١-٤٧٧، وتفسير ابن جرير ٤٦٢/١٤، والمحرر الوجيز ٢٧/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن الزبير ذلك عن الزمخشري وهو يوضح موقع الجملة الثانية من هذه الآية : ﴿يخرج الحي من الميت﴾ وقد عد ذلك من حسنات الزمخشري[١].

ومن ذلك اعتماده على قول الزمخشري في بيان معنى ثم في آية الزمر [٦] ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ فهو مقام اعتناء وتكريم في عرض نعمتين الأولى : جرت بها العادة وهي تشعّب الخلق عن النفس الواحدة وهي آدم عليه السلام. والثانية : ما لم تجر بها عادة وهي خلق حوّاء من آدم وهي نعمة أعظم منزلة من الأولى فجيء بثم التي تفيد التراخي في الحال والمنزلة. هذا ويستطرد ابن الزبير في إيراد أمثلة أخرى عن الزمخشري في بيان حال التراخي الرتبي [٢].

وأحيانا يعتمد قول الزمخشري في تفسير بعض الآيات كتفسير الحق المعلوم في سورة المعارج بأنه الزكاة المقدرة المعلومة حيث نقل ذلك عن جار الله [٣].

حملته على الزمخشري :

وأحيانا يحمل ابن الزبير على الزمخشري لما أورده من كلام يقدح في عصمة داود عليه السلام. فعند حديث ابن الزبير في آية سورة ص [١٧] ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود﴾ تحدث فيها عن وجوه التئام النظم بينما تقدم في السورة وذكر داود عليه السلام ثم عرض بعد ذلك لقول الزمخشري في هذا المقصد وهو وجه بيان النظم بين الآيات مشنّعا عليه في ذلك حيث يقول : "وقد تعرض الزمخشري لما تقدم في هذه الآي، فأجاب عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب بناء على استبداد العبيد وفعل ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد، فجعل لله شركاء، وافرد العباد بأفعالهم، فأجاب بناء على ما أصّل ووفّق في هذا الموضع لوجه المطابقة، ولا حصل فقال : أي الزمخشري " فإن قلت : كيف تطابق قوله : اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود حتى عطف أحدهما على صاحبه ؟ ثم قال : قلت : كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وهو نبي من أنبياء الله سبحانه قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب . . ." إلى آخر ما ذكره الزمخشري في هذا المقام. وذكر وجهًا آخر عنه إنه أمر لنبيّنا الكريم أن يصون نفسه عن الزلات وأن لا يفعل مثل داود عليه السلام [٤].

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٥٠،١٥١، وانظر الكشاف ٢/٢٤٧.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/١٨٨-١٩٠، والكشاف ٤/١١٣، ١١٤.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٨٦٧، والكشاف ٤/٦١٣.

(٤) انظر ملاك التأويل ٢/٨٢٣، والكشاف ٤/٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) تفسير ابن عطية " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ":

حيث كان يراجعه بين الحين والآخر، وقد مر سابقا كيف انتقد ابن عطية حين رجح كلام الإمام الطبري على كلامه لمّا تحدث عن آية التوبة وأنها نزلت في التائبين ممن تخلفوا يوم تبوك. وأحيانا تجده ينقل عن ابن عطية المعاني اللغوية لبعض الكلمات كتفسير التأوه أنه بمعنى التفجّع نقلا عن كتاب ابن عطية [١]. ومن ذلك ما نقله عنه في معنى الحليم بأنه الصابر المحتسب العظيم العقل [٢].

وهكذا تلاحظ كيف أن ابن الزبير أدرك القيمة اللغوية لهذا التفسير فاعتمده في إبراز معاني الكلمات التي تخدم توجيه الآيات المتشابهات.

وأحيانا يستشهد بكلام ابن عطية لنصرة رأيه في تعليل بعض النظائر المتشابهة من الآيات، كما هو الحال في آية سورة فصلت [٥٠] : ﴿**ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى**﴾ حيث يفرق ابن الزبير بينها وبين آية الكهف [٣٦] : ﴿**ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا**﴾ فبيّن أن الوصف في الآية الأولى في فصلت يعم المؤمن والكافر. ولهذا قال ابن عطية بعد أن ذكر أن المراد بها الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة [٣] وأن أكثرها يعطي أن الآية نزلت في الكفار. ثم قال أي ابن عطية : " وإن تضمن أولها خلقا ربما يشارك فيه بعض المؤمنين " ثم يقول ابن الزبير فحصل من كلامه أن هذا التعريف بحال المضروب به المثل في هذه الآية أرجى من حال المضروب به المثل في آية الكهف حيث إن آية الكهف لم يرد فيها شيء في وصف المؤمن [٤].

٤) التفسير الكبير لأبي الفضل بن الخطيب :

وهذا من التفاسير المعروفة التي أفاد عنها ابن الزبير وهو تفسير الفخر الرازي وفاتح الغيب وقد عُرف عند المغاربة بابن الخطيب.

ولقد أفاد ابن الزبير من هذا التفسير، فمن ذلك ما نقله عنه في آية البقرة [١٢،١٣] وهو يعلل الفاصلتين المتقاربتين ﴿**لا يشعرون**﴾، ﴿**لا يعلمون**﴾ حيث ذكر عنه في تعليل ذلك وجهين ؛ الأول : أن كون المؤمنين على الحق والمنافقين على الباطل أمر عقلي نظري، وأن النفاق الذي فيه البغي والفساد في الأرض ضروري جار مجرى المحسوس، والثاني : أنه لمّا ذكر السفه وهو الجهل طابقه بذكر العلم فكان أحسن [٥].

---

(١) ملاك التأويل ٤٧٧/١، وابن عطية المحرر الوجيز ٦٤/٧.

(٢) ملاك التأويل ٥٨٧/٢، والمحرر الوجيز ٦٥/٧.

(٣) ما يتعلق بسبب نزول آية فصلت [٥٠] ﴿ولئن رجعت إلى ربي﴾ أنها نازلة في الوليد أو غيره، لا يصلح أن يكون سببًا للنزول، لأن ابن عطية أورده بصيغة التضعيف من جهة، ومن جهة ثانية فإن الآية تتحدث عن نموذج من النماذج الإنسانية بشكل عام دون أن تتعرض لحال المؤمن والكافر.

(٤) ملاك التأويل ٦٤٦/٢، والمحرر الوجيز ١٣٠/١٣.

(٥) ملاك التأويل ٣٤/١، والرازي، مفاتح الغيب ٦٨/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي أحيان كثيرة لا يكتفي ابن الزبير كعادته بالنقل، إنما يذهب إلى ما هو أبعد من هذا، فمن انتقاده لأبي الفضل ابن الخطيب ما ذكره في آية المائدة: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾، ثم قال : الظالمون، فالفاسقون [المائدة ٤٤، ٤٥، ٤٧]. فقد قرر ابن الزبير أن هذه الآيات فيهما تدرج في ذكر الأثقل بعد الأخف، أي أن الفسق من أوصاف الكافرين، وقد اعتبره في رتبة أثقل من الكفر. وفي هذا الصدد يحمل على أبي الفضل ابن الخطيب الذي قال بخلاف هذا، حيث بين الآخر أن الكفر أثقل من الظلم والفسق حين ذكر وجه المناسبة في ختم الآية الأولى بالكفر والثانية بالظلم.

ويعترض ابن الزبير على ابن الخطيب في ما ذهب إليه قائلا بأن هذا يخالف المطرد من آي القرآن في ذكر الأخف قبل الأثقل في آيات الثواب والعقاب. ثم إنه من جهة ثانية منافٍ لعادات العرب في كلامهم بالتدرج في الوعد والوعيد من الأخف إلى الأثقل.

ومن جهة ثالثة فإن ما ذكره ابن الخطيب من وجه المناسبة في ختم الآية الأولى بالكفر والثانية بالظلم هو أمر لا غبار عليه، لكنه يخالف ما اطّرد من آي القرآن وكلام العرب. ثم إن ابن الخطيب لم يبين وجه ختم الآية الثالثة بالفسق، الأمر الذي يجعل كلامه معرضا لعدم الدقة في العرض.

فبمثل هذه الروح القوية كان ابن الزبير يحمل على ابن الخطيب، ولقد حمل في هذه الآية على مفسرين آخرين ممن فيهم صاحب الدرة وتأول كلام الزمخشري لنصرة ما ذهب إليه حول الآيات الكريمة في سورة المائدة [١].

وهناك أمثلة كثيرة من مثل ما تقدم حمل فيها ابن الزبير على أبي الفضل لا أستطيع التعرض لها خشية الإطالة، فانظر مثلا إلى نقده له وتضعيف ما جاء عنه من أقوال في ما ذكره ابن الخطيب من وجوه في التئام النظم في سورة [ص] وذلك بين قوله تعالى : ﴿**اصبر على ما يقولون**﴾ وقوله بعد ذلك : ﴿**واذكر عبدنا داود**﴾ [ص/١٧] حيث ضعّف ما ذكره من الوجوه [٢].

وهكذا تلاحظ حملة ابن الزبير المتكررة على أبي الفضل. أما قول محقق ملاك التأويل عن صاحب هذا التفسير لعله لسان الدين ابن الخطيب فهو قول لا يستقيم، ذلك أن ابن الخطيب عاش في الفترة الواقعة ما بين ٧١٣ إلى ٧٧٦هـ وذلك كان بعد وفاة ابن الزبير.

٥) مكي بن أبي طالب :

ولم ينقل عنه ابن الزبير إلا مرة واحدة في ما وجدت وذلك في أول سورة مريم، حيث يدافع ابن الزبير عن عصمة يحيى عليه السلام من خلال تفسيره لمعنى الحصر وأنه الحبس والمنع، ويذكر عن

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢٥٩/١-٢٦٤، والرازي، مفاتح الغيب ٨/١٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ٨١٥/٢-٨١٢، والرازي، مفاتح الغيب ١٨٣/٢٦-١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكي[١] بأنه الحبس عن الذنوب. ويحمل ابن الزبير على المفسرين الآخرين الذين قالوا إنه المنع عن النساء لأن ذلك نقص والأنبياء منزهون ومعصومون عن مثل هذه النقائص [٢].

٦) الهروي[٣]:

و لم ينقل عنه ابن الزبير إلا مرة واحدة كسابقه، وذلك ما وقع عنده في أول المائدة حين فسر الأنعام وأنه لا يعدّ بقر الوحش منها، قال : " وقال الهروي الأنعام هي المواشي من الإبل والبقر والغنم "[٤].

٧) الغزنوي، ووقع في بعض النسخ أنه القرطبي [٥]:

وقد نقل ابن الزبير عن هذا المفسر في أكثر من موضع، من ذلك ما كان في الجمع بين آيتي البقرة [٥٩] والأعراف [١٥٩]: ﴿فانفجرت﴾، ﴿فانبجست﴾ حيث ذكر أن الإنبجاس أول الانفجار. وقد وقع في تفسير القرطبي قريب من هذا القول، الأمر الذي يرجح أنه القرطبي. ومن جهة ثانية فإن اسم الغزنوي يطلق على أكثر من إمام في التفسير فلا يعرف أيهم الذي عناه ابن الزبير.

وهكذا تلاحظ كيف أن ابن الزبير كان حريصًا على ذكر مصادره وتحقيق مادته العلمية في كثير من الأحيان بحيث فاق الخطيب وتاج القراء في هذا الشأن. هذا علاوة على ما سأشير إليه لاحقا من الكتب الأخرى التي اعتمدها من غير كتب التفسير وذلك حين نتحدث عن مصادره من فروع العلوم الأخرى إن شاء الله تعالى.

ب) آراء المفسرين في كتب المتشابه اللفظي الثلاثة :

وإلى جانب ما تقدم بيانه من كتب التفسير المعتمدة لدى أصحاب الكتب الثلاثة، فقد وجدت في كتبهم آراء تفسيرية مما لم ينسب لأحد ولا لكتاب، وأحببت أن أمثل لبعض هذه الآراء التي وقعت في هذه الكتب، بغية الوقوف على الدور الذي أدته هذه الأقوال التفسيرية في خدمة وتوجيه ما تشابه من آي القرآن الكريم.

---

(١) هو مكي بن أبي طالب النحوي المقرئ القيرواني، يقال أن له نيفا وثمانين تأليفا، منها (إعراب القرآن) و(الموجز في القرآن) و (التفسير الكبير) وغيره، توفي سنة ٤٣٧ هـ. (الداودي، طبقات المفسرين ٢/٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٥٧.

(٣) هو عبد الله محمد بن علي بن مت، شيخ الإسلام، أبو اسماعيل الأنصاري الهروي، كان إماما كاملا في التفسير، ت ٤٨١هـ (الداودي، طبقات المفسرين ١/٢٤٩، ٢٥٠).

(٤) ملاك التأويل ١/٢٢٩، ٢٣٠.

(٥) انظر ملاك التأويل ١/٦٨، وما ذكره محقق الكتاب من تلك الورقة من التعريف بشخصية الغزنوي حيث ذكر ثلاثة من علماء التفسير يحملون هذا اللقب. وذكر أنه وقع التصريح باسم القرطبي في بعض نسخ المخطوط لملاك التأويل. هذا وقد وقع عند القرطبي قريبا من هذا الذي نسب للغزنوي في التفريق بين الانفجار والإنبجاس، (القرطبي ١/٤١٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد امتاز ورود الآراء التفسيرية في الكتب الثلاثة بأنها كانت تُذكر لأحد احتمالات ثلاثة هي:

١- فإما أن تذكر لبيان حقيقة ومعنى بعض النظائر المتشابهة من الآيات.

٢- وإما أن تذكر للجمع بين ما تشابه من الآيات.

٣- وإما أن تذكر من باب الاستطراد دونما حاجة إليها.

وإليك بعض الأمثلة الموجزة مما وقع عند كتب المتشابه اللفظي الثلاثة :

١) أما الخطيب فقد مر معنا كيف ذكر أكثر من قول في تفسير آية المائدة [٤١]: **﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾**[١]. وأحيانا ما يذكر الخطيب أكثر من قول في توجيه ما يعده من المتشابه مثل آية الكهف [٢٢] : **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾** ، إلى قوله **﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾** حيث ذكر أقوالاً ثلاثة في موقع [الواو] الأول : لأنها وقعت في كلام الفرقة الثالثة، والثاني : لأنها ذكرت بعد السبعة التي هي رمز المبالغة، والثالث : أنها واو الثمانية وهي أقوال لا تقوى على النهوض [٢].

ومن أمثلة استطراد الخطيب في ما لا يخص توجيه الآيات المتشابهات ما أورده من قولين للمفسرين في معنى المفتون في سورة القلم [٦] : **﴿بأيكم المفتون﴾**، فإذا كان المفتون بمعنى الفعل أي الفتون كان معناه ستعلم ويعلمون بك أو بهم الفتون وخبال الرأي، وإذا كان بمعنى المفعول أي المفتون المبتلى بفساد العقل والتمييز وهو حكاية معنى قولهم أنه صلى الله عليه وسلم بمجنون كان كما يقال في أي الفريقين المجنون أي في فرقة الإسلام أو في فرقة الكفر [٣].

٢) أما الكرماني فقد كثرت عنده الأقوال التفسيرية وخصوصا في توجيه بعض ما كان يعتبره من المتشابه اللفظي. فمن ذلك ما أورده من أقوال في التفريق بين المفضلين بالدرجة والدرجات في آية النساء[٩٥،٩٦] : **﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة﴾**، قال تاج القراء : "الدرجة في الدنيا والدرجات في الجنة. وقيل الأولى المنزلة والثانية المنزل. وقيل الأولى على القاعدين بعذر والثانية على القاعدين بغير عذر [٤]. ولا ريب في أن الأخير أرجح هذه الأقوال إذ هما تفضيلان.

---

(١) انظر درة التنزيل ص٩٢، وما تقدم بيانه ص٦٠.

(٢) انظر درة التنزيل ٢٧٩-٢٨١، وقد مر بك رأي ابن الزبير في هذا الموضوع واستشهاده برأي الزمخشري وكيف أن مسلكه كان هنا أكثر دقة مما عند الخطيب ،انظر ما تقدم ص ٦٧).

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٢٩.

(٤) الكرماني، البرهان، ص٤٩، فقرة ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك ما أورده من أقوال في آية المائدة [٤٤] : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ وما بعدها [١].

وأحيانا يتلبس الكرماني بذكر بعض الأقوال الغريبة التي لا تصح في التفسير وتكون أقرب إلى الإشارة منها إلى الحقيقة. مثال ذلك ما جاء عند كلامه عن التكرار الواقع في ذكر القمر في القيامة [٧-٩] : ﴿**فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر**﴾ حيث كان من سلسلة الأقوال التي عرضها أن القمر الأولى بياض العين[٢].

ومثله ما أورده من قول عن البعض في [السلسبيل] المذكور في سورة الإنسان بأن معناه: سل من الله إليه سبيلا مع أن كتب التفسير لم تتعرض لمثل هذا [٣]. ولعل مثل هذه الأقوال التي كان يوردها تاج القراء هي من تلك التي جمعها في لباب التفسير.

٣) أما ابن الزبير فكان في كثير من الأحيان يقدم أكثر من قول في توجيه المتشابه. فمن ذلك ما وقع عنده بين آيتي الكهف [٥٧]، والسجدة [٢١] : ﴿**ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه**﴾، وقال في السجدة : ﴿**ثم أعرض عنها**﴾ تلاحظ أن ابن الزبير يقدم قولين في توجيه هذا التشابه بين الآيتين :

الأول : أن آية الكهف كانت معبرة عن حال العرب الذين كذبوا بدلائل القرآن الواضحة عقب سماعها كقصص القرآن وما ضربه للناس من كل مثل فعبر بالفاء. بينما آية السجدة كانت لعموم الناس فجاءت [ثم] للتعبير عن الاستبعاد بين تذكير الناس وإعراضهم عن الحق.

الثاني : أن آية الكهف جاءت للتعبير عن المباشرة في تكذيب الكافرين الذين جادلوا المرسلين بالباطل عقب تبليغهم للرسالات و لم يكن ذلك في السجدة [٤].

ولقد كثرت الأمثلة عند ابن الزبير من نحو ما تقدم، وسيتم بيان ذلك بوضوح عند دراسة توجيه الآيات المتشابهة من الناحية التطبيقية إن شاء الله.

وأحيانا يذكر ابن الزبير رأيه في موضع التشابه ثم يستحسن رأي الخطيب جامعاً بين الرأيين بحيث لا تعارض بينهما. مثال ذلك ما أورده حول اختلاف الوصف لقوم إبراهيم بين آيتي الأنبياء [٧٠]، والصافات [٩٨] حيث قال في الأولى:﴿**فجعلناهم الأخسرين**﴾، وفي الثانية: ﴿**فجعلناهم الأسفلين**﴾ فحاصل كلام ابن الزبير أن الخسران والسفول أمران متلازمان إلا أن السفول يعقب الخسران ويكون منبعثاً عنه وهو حال الكافرين يوم القيامة وهو أبلغ في التعبير عن انحطاط المنزلة. ورأي الخطيب أنه

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٥، فقرة ٨٩.

(٢) البرهان ص ١٩٩، فقرة ٥٤٣.

(٣) انظر البرهان، ص ٢٠٠، فقرة ٥٤٦.

(٤) انظر ملاك التأويل ٦٤٧/٢-٦٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكر الأسفلين في الصافات مقابل قولهم : ﴿**ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم**﴾ الصافات [٩٧] فأراد أن يناقض كلامهم بأنهم هم الأسفلون [١].

وأحيانا ما يورد ابن الزبير الأقوال في التفسير أو في توجيه بعض المتشابهات ناقدا لها مبينا صحيحها من سقيمها. مثال ذلك ما أورده في آيات سورة المائدة [٤٤، ٤٥، ٤٧] ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ حيث انتقد في هذا الموضع غير واحد من المفسرين. ولقد تقدم بيان كيف حمل على أبي الفضل ابن الخطيب وتأول كلام الزمخشري. و لم يكتف ابن الزبير بمثل هذا بل حمل على رأي صاحب الدرة الذي عدّ [مَنْ] اسمًا موصولا في الآيتين الأوليين من المائدة وعدّ للمجازاة في الآية الثالثة فقط أعني قوله تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فإولئك هم الفاسقون**﴾[٢].

كل ذلك فعله ابن الزبير ليؤكد أن [مَنْ] هي اسم موصول وأنها من ألفاظ العموم حيث تعم بهذه الأوصاف الثلاثة كل من لم يحكم بما أنزل الله [٣].

ومن ذلك أيضا ما انتقد به المفسرين حين فرق بين الواحد والأحد في سورة الإخلاص[٤].

وأحيانا يتبنى ابن الزبير رأيا من الآراء يبرهن عليه بأقوال المفسرين، ففي أول الرعد جاء قوله تعالى : ﴿**المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق**﴾ حيث يذكر ابن الزبير أن المقصود بالكتاب اللوح المحفوظ، ويعضد قوله بما ورد من إشارات للمفسرين في هذا الشأن. فمن ذلك ما أورده ابن عطية عن ابن جبير في تفسير آية البقرة: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ أنه اللوح المحفوظ [٥]، كما استدل بما أورده الزمخشري في أول النمل أن المقصود بالكتاب اللوح المحفوظ [٦]. كما تأول قول الزمخشري نفسه في الآية أول الرعد حين قال إن المراد بآيات الكتاب آيات السورة وبالكتاب السورة وبالذي أنزل إليك سائر القرآن وذلك لإثبات المغايرة بين المتعاطفين [٧].

و لم تكتف الكتب الثلاثة بالرجوع إلى الكتب المعتمدة والأخذ بالآراء المختلفة للمفسرين، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. لقد بذل أصحاب الكتب الثلاثة وأخص بالذكر الخطيب وابن

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٧٠٠، ودرة التنزيل ص ٢٩٩.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٩٩، وحاصل كلام الخطيب أن [مَنْ] الأولى والثانية في المائدة [٤٤، ٤٥] اسم موصول ليس فيها المجازاة، بخلاف الآية ٤٧ من الثالثة والتي فيها المجازاة، واعتبر الآيتين الأوليين اللتين فيهما الوصف بالكفر والظلم نازلتين في اليهود، ولعله جاء بهذا التأويل ليرد على الخوارج الذين قالوا بإكفار كثير من الصحابة رضي الله عنهم.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٢٥٨-٢٦٧.

(٤) انظر ملاك التأويل ٢/٩٥٩-٩٦٤.

(٥) انظر ابن عطية، المحرر الوجيز ١/١٤٢.

(٦) الزمخشري، الكشاف انظر ٣/٣٤٦.

(٧) انظر ملاك التأويل ٢/٥٥٥-٥٥٧، والكشاف ٢/٥١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزبير بذلوا جهودا ذاتية من تلقاء أنفسهم في شتى صنوف التفسير من بيان المعاني إلى بيان أسباب النزول فالمناسبة إلى غير ذلك من ألوان التفسير وفنونه المختلفة.

ولقد كان هذا التفسير كثيرا ما يكون استطرادا منهم لا صلة له بتوجيه المتشابهات. وأحيانا ما يكون لفائدة كالكشف عن غامض لا بد من توضيحه، كتفسير ابن الزبير للمضغة المخلقة وغير المخلقة في أول الحج، حيث يبيّن أن المخلقة ما كانت مصوّرة تامة الخلق، وغير المخلّقة ما تمّ تخليقها بغير كامل حواسها وأعضائها. كما يفسّر السقط بمفهوم المخالفة من قوله تعالى : ﴿**ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾ [الحج /٥] فهناك ما لا يقره الله سبحانه وهو ما يسقط من الأجنة [١].

المطلب الخامس : فهم السياق القرآني عند الكتب الثلاثة

لم تكتف الكتب الثلاثة بالاعتماد على المنقول والمعقول في توجيه ما تشابهت ألفاظه من القرآن، بل سارعوا إلى ألوان وأفانين أخرى من التفسير من أبرزها فهم السياق القرآني لكل آية من الآيات المتشابهات.

ولقد اعتمد أصحاب الكتب الثلاثة غالباً على فهم الغرض أو الموضوع العام الذي تساق من أجله الآية الكريمة التي يراد بيانها. فكان فهم السياق القرآني وسيلة هامة من الوسائل التي اعتمدوها بنسبة كبيرة في توجيه المتشابهات.

وقبل أن أقوم بدراسة بعض الأمثلة التطبيقية من كتب المتشابه اللفظي في فهم السياق القرآني، لا بد من أن أقرر شيئا هاما، هو أن كل سورة من السور أو كل مجموعة من الآيات لها موضوعها الخاص الذي سيقت من أجله. فحينما نعوّل على فهم السياق القرآني لكل آيتين متشابهتين أو أكثر لا بد من إدراك هذه الحقيقة وهي أن كل آية لها سياقها الخاص الذي جاءت من أجله. ولا يهم اتحاد المقصود في الآيتين المتشابهتين فتلك مسألة لفظية ينبغي أن نتجاوزها إلى فهم ما هو أبعد من تكرار اللفظ.

ومن الأمثلة على اختلاف السياق لما تكرر من القرآن انظر مثلا قصة موسى عليه السلام بين سورتي البقرة والأعراف. تجد أن هذه القصة وردت في سورة البقرة في سياق التكريم والإنعام على بني إسرائيل، ذلك التكريم المستمد من تكريم الله للإنسانية بعامة، حيث بين لها كل ما يلزمها من الأحكام والتكاليف وشرفها بالاستخلاف على هذه الأرض. بينما جاءت سورة الأعراف في سياق التهديد والوعيد لكل من يكذب بالرسالات. ومن هنا جاءت ألفاظ كل سورة من هاتين السورتين حول قصة موسى عليه السلام ملبّية حاجة هذا السياق أو الفكرة العامة التي تقصد كل سورة إلى تحقيقها [٢].

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٧١٥.

(٢) السامرائي، التعبير القرآني، ص ٢٧٦، ٢٧٧، ولا ريب في أن ما قرره الرجل هو أثر فكري مما جاء في كتب المتشابه اللفظي حين كانوا يوجهون بعض المتشابهات من سورة البقرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة اعتماد الكتب الثلاثة على السياق في حل المتشابهات ما كرر في سورة النساء حيث قال تعالى : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ وختم الآية الأولى بقوله : ﴿**ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما**﴾ [النساء/٤٨] وختم الثانية بقوله : ﴿**ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا**﴾ [النساء /١١٦][1]. اتفقت كلمة الكتب الثلاثة في هذا الموضع على أن التكرار الحاصل بين الآيتين أعيد لاختلاف سياق المتحدث عنهم، فالأولى : كانت في ذكر اليهود والثانية : في ذكر المنافقين وأهل الشرك، وكلا الطائفتين واقع منهم هذا الشرك فاحتيج إلى تكرير الوعيد بعدم المغفرة.

ومن جهة ثانية فقد نعت المشركين من اليهود في الآية الأولى بالإثم العظيم لعلمهم حقيقة التوحيد وإنكارهم لها. ونعت مشركي العرب بالضلال البعيد لأنهم لم يهتدوا.

وهكذا تلاحظ كيف أن كلا من الآيتين وردت في سياق مختلف ولا يمكن معرفة الفرق بينهما إلا بدراسة موضوع كل واحدة منهما على حدة.

هذا ولقد وجد في كتب المتشابه اللفظي كثير من الآيات مما مرد الاختلاف بينها يفهم من خلال السياق القرآني الذي جاءت فيه كل آية من هذه الآيات. وستكون الدراسة التطبيقية خير دليل على هذه الحقيقة إن شاء الله.

المطلب السادس : علوم القرآن في الكتب الثلاثة

كانت مباحث علوم القرآن المختلفة من الوسائل والأدوات الفعالة التي ساعدت على توجيه بعض المتشابهات عند كتب المتشابه اللفظي؛ فمن علم المناسبة إلى علم أسباب النزول مرورا بترتيب السور وغير ذلك من المباحث كل ذلك يوضح دور هذه العلوم من الناحية التطبيقية في توجيه المتشابهات.

وإليك الحديث عن كل فرع من هذه الفروع التي تحدثوا عنها في ما يلي :

أ) علم المناسبات

المناسبة هو علم يختص بالربط بين الآيات، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض. فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف ذا بناء محكم متناسق في النظم [2].

ولقد أخذ علم المناسبة من الناحية التطبيقية حيّزًا كبيرا من كتب المتشابه اللفظي، فكثيرا ما كانت المناسبة أداة ناجحة في توجيه ما تشابه من القرآن الكريم. وكان ابن الزبير من أكثر من تعرضوا لذكر المناسبة بين الآيات، وامتاز عن صاحبيه بهذا المظهر في التأليف بينها. ومن هنا فقد كان جهد ابن

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٧٩، والبرهان ص ٤٩، وملاك التأويل ٢٠٧/١.

(٢) السيوطي، معترك الأقران. انظر ٥٧/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزبير في ملاك التأويل امتداداً طبيعياً لما ذكره الرجل في كتابه البرهان في ترتيب سور القرآن. حيث ذكر في ذلك الكتاب المناسبات بين السور ثم هو الآن يوضح المناسبات بين الآيات وستلاحظ بوضوح كيف أثر كتاب البرهان على فكر ابن الزبير في ملاك التأويل.

أنواع المناسبات في كتب المتشابه اللفظي :

وقع في كتب المتشابه اللفظي التعرض لأكثر من نوع من المناسبات، وإليك ذلك مع التعرض لبعض الأمثلة بإيجاز، وهذه الأنواع هي :

١) المناسبات بين الآيات :

وهذا النوع من المناسبة كان له دور كبير في توجيه بعض المتشابهات، من ذلك ما وقع بين الأ نعام والمؤمن حيث قوله تعالى في الأنعام [١٠٢] : ﴿**ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل**﴾، وقال في المؤمن [٦٢] : ﴿**ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون**﴾[(١)].

يسأل عن سبب التقديم والتأخير بين الآيتين، ففي الأنعام قال : ﴿**لا إله إلا هو خالق كل شيء**﴾ فقدم ذكر التوحيد ليتناسب مع ما ذكر قبل هذه الآية من شرك المشركين وهو قوله تعالى: ﴿**وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم**﴾ [الأنعام/١٠٠] وقال في المؤمن : ﴿**خالق كل شيء لا إله إلا هو**﴾ فقدم ذكر الخلق ليتناسب مع ما جاء في ما تقدم من الآيات ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس**﴾ [المؤمن٥٧].

وأحيانا ما يتم توجيه بعض المتشابهات عن طريق معرفة المناسبة بين جمل الآية الواحدة ؛ من ذلك ما أوردته كتب المتشابه في سورة النساء [١٢٨،١٢٩] : ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا. ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما**﴾[(٢)].

فيلاحظ أنه في الآية الأولى كان الحث على التقوى المقترنة بذكر الإحسان تنبيها على الإحسان في معاملة الأزواج في قضايا الصلح بين الزوجين، وجاء في الآية الثانية الحث على التقوى مقترنة مع ذكر الإصلاح تنبيها على وجوب أن يصلح الرجل علاقته مع جميع الضرائر، وأن يحكم بينهن بالعدل والسوية.

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٢٧، والبرهان ص ٦٤، فقرة ١١٠، وملاك التأويل ٣٤١/١.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٩٠، وملاك التأويل ٢١٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا ندرك أن معرفة المناسبة بين الآية وأختها أو بين الجمل في الآية الواحدة هو أمر ضروري في توجيه كثير من المتشابهات.

ويلاحظ أن ابن الزبير كان أكثر من صاحبيه شمولا في ذكر المناسبة، فكثيرا ما كان الخطيب وتاج القراء يكتفيان بذكر موطن التشابه والاختلاف البارز بين الآيتين، أما ابن الزبير فلا يكتفي بهذا، إنما يذهب لما هو أبعد من ذلك، حيث يبدأ بتعليل الفواصل الختامية لكل آية من هذه الآيات المتشابهة مُظْهِرًا مناسبة هذه الفاصلة لما ختمت به الجمل.

مثاله ما وقع في سورة البقرة [٢٣٤] : ﴿**فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير**﴾، وجاء في الآية [٢٤٠] من السورة نفسها : ﴿**فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم**﴾[1]. ففي حين يكتفي الخطيب والكرماني ببيان الفرق بين المعروف الأول والثاني، والتعبير بـ[من] في الآية الأولى و [الباء] في الثانية، يضيف ابن الزبير إلى ذلك تعليل مناسبة الفاصلة في كل من الآيتين وهو قوله في الأولى : ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾، وفي الثانية :﴿**والله عزيز حكيم**﴾. وتلك هي عادة ابن الزبير في بيان كثير من المواطن المتشابهة.

ثم تجد ابن الزبير يتوسع كثيرا في استخدام علم المناسبة وفهم السياق العام للآيات في توجيه المتشابهات بحيث يعرض السياق القرآني بشكل عام حول كل نظير من النظائر المتشابهة ويدرسها دراسة تحليلية.

من ذلك ما أورده عند حديثه عن آية الأنعام [١١] : ﴿**قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾ [2].

وسيأتي استيفاء ذلك كله عند ابن الزبير وغيره في الدراسة التطبيقية على المتشابه اللفظي.

٢) تناسب النظم وتشاكل اللفظ :

وكثيرا ما كان يعوّل عليه في توجيه الآيات المتشابهات، وأعني بتناسب النظم هو أن يتم تعليل وجود كلمة من الكلمات أو جملة من الجمل في الآية القرآنية على صورة معينة نتيجة لوجود ما يشابه تلك الكلمة أو الجملة في السياق نفسه فيكون من باب تناسق الكلام مع بعضه البعض. ذلك هو ما استطعت أن أدرك من خلال استقراء منهج الكتب الثلاثة في استخدام تناسب الألفاظ القرآنية.

وكثيرا ما تكون المناسبة اللفظية وخصوصا بين الجمل أداة ناجحة في توجيه المتشابهات، بحيث تظهر جمال التناسق في لفظ القرآن ونظمه. فمن ذلك ما أورده الخطيب وتابعه عليه تاج القراء في الموضع الواقع بين المؤمنون [٨١- ٨٣]، والنمل [٦٧، ٦٨]؛ حيث قوله تعالى : ﴿**بل قالوا مثل ما**

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٥٢، والبرهان ص ٣٩، فقرة ٤٧، وملاك التأويل ١٢٧/١.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢٨٩/١ ٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هـذا من قبـل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾، وقال في النمل : ﴿**وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون. لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[1].

يرجع الخطيب سبب التقديم والتأخير بين الآيتين مراعاة للتناسق في الجمل، فقال في آية المؤمنين : ﴿**لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل﴾** مراعاة لذكر الفاعل بعد الفعل مباشـرة مـن دون فصـل حيـث تقدم قوله : ﴿**بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾** فكلها أفعـال ذكـر الفـاعل في مـا بعدهـا فجـيء بـالفعل المؤكد: ﴿**وعدنا نحن وآباؤنا﴾** على هذا النسق ملتصقا بفاعله و لم يفصل بينهمـا بـالمفعول أو مـا يقـوم مقامه وهو كلمة [هذا]. ويختلف الواقع في سورة النمل فقال : ﴿**لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾** فجاء فاصلا مراعاة لما تقدم من الجملة في الآية السابقة: ﴿**أإذا كنا ترابـا وآباؤنـا﴾** فكلمـة [هـذا]كـان موقعها يشبه كلمة [ترابا] من حيث الفصل بهما فكانا متناسقين في هذا الموضع.

وفي بعض الأحيان يقع التكلف الواضح في استخدام المناسبة اللفظيـة بحيـث يذكـر اللفـظ علـى صورة ثم تجد الكرماني أو غيره يعللون وجود هذا اللفظ بوجود لفظ آخر مشابه لـه في آيـات متبـاعدة نسبيا قبل أو بعد ذلك الموضع المتحدث عنه بمسافة كبيرة، فمن ذلك مـا أورده الكرمـاني حـول موضـع التشابه الواقع بين آيتي البقرة [٣٨]، وطـه [١٢٣] ففـي الأولى قـال :﴿**فمـن تبـع هـداي فـلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**، وفي الثانية قال : ﴿**فمن اتبع هداي فلا يضـل ولا يشـقى﴾**[2]، يلاحـظ أن تاج القراء يقول أنه قال في طه [اتّبع] موافقة لقوله في مـا تقـدم مـن هـذه السـورة : ﴿**يومئـذ يتّـبعون الداعي﴾** [طه/١٠٨] ولا شك أن هذا تكلف واضح في توجيه المتشابهات، حيث إن ما بين الآيتين في طه ما يقرب على خمس عشرة آية. ومن جهة ثانية فإن حديث آية طه ﴿**يتبعون الداعي﴾** كانت في وصف أهوال يوم القيامة وليس في قصة آدم، أما توجيه هذا الموضع فسيأتي في مكانه من هـذه الدراسـة بإذن الله.

كما يلاحظ قول الكرماني بالمناسبة اللفظية إلى جانب ما يدعيه من القول بالترادف. من ذلك مـا أورده حول الآيات في قصة موسى ما بين طـه [١١]، والنمـل [٨]، والقصـص [٣٠] : ﴿**فلمّـا أتاهـا نـودي يـا موسـى﴾**، وفي النمـل : ﴿**فلمـا جاءهـا نـودي أن بـورك مـن في النـار ومـن حولهـا﴾**، وفي القصص: ﴿**فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن﴾**[3].

تلاحظ أن الكرماني يعلل مجـيء التعبـير بالإتيـان في طـه والقصـص لتقـدم التعبـير بـه في الآيتـين المتقدمتين عليهما ففي طه [١٠] قال : ﴿**لعلي آتيكم منها بقبس﴾**، وفي القصص[٢٩] قـال : ﴿**لعلـي**

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٣١٧، والبرهان ص ١٣٨، فقرة ٣٣٣.

(٢) انظر البرهان ص ٢٦، فقرة ١٣.

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٤٤، فقرة ٣٥٥، وص ١٢٧، فقرة ٢٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آتيكم منها بخبر﴾، أما في النمل فعبر بـ[جاء] لتقدم ذكر الإتيان مرتين في الآية التي قبلها. ثم يذكر أن [جاء] و [أتى] بمعنى واحد.

وأحيانا يبدو التكلف الواضح عند تاج القراء في استخدام المناسبة اللفظية في توجيه المتشابهات بحيث لا يسلم له ما ذهب إليه. ففي جمعه بين آيتي النمل [١٠]، والقصص [٣١] ﴿**فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولّى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون**﴾، وجاء في القصص بعد ذكر الإدبار: ﴿**يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين**﴾[١]، يذكر تاج القراء أن آية القصص خصت بذكر الإقبال في مقابلة الإدبار حيث قوله: ﴿**ولى مدبرا**﴾. ولهذا لم يذكر في سورة النمل أعني الإقبال حيث اكتفى بذكر الخوف. ولا أدري بماذا يقابل تاج القراء آية النمل التي ذكر فيها الإدبار هي أيضا ؟!

كما يلاحظ على تاج القراء الدمج في قليل من الأحيان بين المناسبة اللفظية والعلة المعنوية البيانية في توجيه بعض المتشابهات. مثاله ما وقع من التشابه بين آيتي المؤمنون [١٩] والزخرف[٧٣]؛ حيث قال في الأولى : ﴿**لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون**﴾؛ وقال في الثانية : ﴿**لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون**﴾[٢] يبين تاج القراء أنه جمع الفواكه ليتناسب مع جمع جنات الدنيا المعبر عنها في الآية نفسها وذلك قوله : ﴿**فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب**﴾ وأفرد الفاكهة تناسبا مع إفراد جنة الخلد في الزخرف. وزيدت [الواو] في آية المؤمنين لبيان أن فاكهة الدنيا لها منافع غير الأكل. ولمناسبة ما بعدها من قوله : ﴿**ومنها تأكلون**﴾ [المؤمنون/٢١] ولم تزد في التعبير عن فاكهة الجنة لأنها ليست إلا للأكل بحيث لا يمكن بيعها ولا حاجة في ادخارها.

ومن أمثلة اعتماد ابن الزبير للمناسبة اللفظية في توجيه المتشابهات ما جاء من قوله تعالى في الأنعام [٤٢]: ﴿**لعلهم يتضرعون**﴾، وقال في الأعراف [٩٤]: ﴿**يضرعون**﴾ -بالإدغام-[٣]. فقد جاء الفعل مفكوكاً في الأنعام مناسبة لما بعده من باب المضارعة اللفظية حيث قوله: ﴿**فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا**﴾ [الأنعام/٤٣] ولم يكن ذلك في الأعراف.

وأحيانا تعتمد الكتب الثلاثة في حل التشابه على المناسبة اللفظية إلى جانب أمور أخرى كالتفسير والسياق وتناسب النظم، وذلك في المواضع التي يكون بينها أكثر من سبب من أسباب الاختلاف. مثال ذلك ما جاء في ذكر المنافقين : ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ [التوبة /٨٧]، وقال في طائفة أخرى : ﴿**إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون**﴾ [التوبة / ٩٣].

---

(١) انظر البرهان ص ١٤٥، فقرة ٣٥٧.

(٢) انظر البرهان، ص ١٣٦، فقرة ٣٢٨.

(٣) انظر البرهان ص ٦١، فقرة ١٠٢، وملاك التأويل ٣٢٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلاحظ أن بين الآيتين أكثر من سبب من أسباب الاختلاف، ففي الأولى قال : [طُبِع] على البناء لما لم يسم فاعله، وفي الثانية على البناء للمعلوم [طَبَعَ الله]، وفي الأولى قال : [يفقهون]، وفي الثانية : [يعلمون][(١)].

والذي يهمّنا الآن موطن الاختلاف الأول حيث ذكرت الكتب الثلاثة أنه عبّر بالفعل [طبع] تناسبا مع ما ذكر في الآية السابقة ﴿**وإذا أنزلت سورة**﴾ [التوبة /٨٦] على ما لم يسمّ فاعله فتناسب الفعلان. وقال في الثانية : [طَبَعَ الله] للتأكيد والتنبيه والتخويف والتحذير.

٣) المناسبة الموضوعية :

وهذا نوع ثالث ركز عليه ابن الزبير حيث كان أحياناً يحل بعض المتشابهات بالموازنة بين الموضوعات العامة ما بين السور التي وردت فيها هذه النظائر المتشابهة، وهو أشبه ما يكون بالعرض الموضوعي لهذه السور.

مثال ذلك ما وقع بين آيتي الحجر [١٢]، والشعراء [٢٠٠]. قوله تعالى في الأولى : ﴿**كذلك نسلكه في قلوب المجرمين**﴾، وفي الثانية : ﴿**كذلك سلكناه في قلوب المجرمين**﴾[(٢)]، فعبر في الحجر بالمضارع لأنه كان حديثا عن كفار قريش الذين كذبوا بالقرآن و لم تتضمن السورة شيئا من أنباء الأمم السابقة إلا ما ذكر من قوله تعالى : ﴿**وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم**﴾ [الحجر/٤]. أما سورة الشعراء فكانت في ذكر القرون السابقة من أجل ذلك عبر بالماضي [سلكناه] و لم يكن في أقوام حاضرين كما هو في الحجر.

٤) المناسبة بين السور :

وهذا كسابقه انفرد بذكره ابن الزبير في بيان بعض المتشابهات، وهو امتداد فكري لما جاء في البرهان لنفس المؤلف. من ذلك ما بينه من الاختلاف بين السور الثلاثة : الذاريات والطور والمرسلات، فقال في الذاريات [٥] : ﴿**إنما توعدون لصادق**﴾، وفي الطور [٧] : ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾، وفي المرسلات [٧] : ﴿**إنما توعدون لواقع**﴾[(٣)]. فجاءت آية الذاريات تعقيبا على ما ذكر في سورة ق من البعث الأخروي وما تقدم من البرهنة عليه بالمشاهدات المنظورة وحال الأمم الغابرة ثم تفصيل حال المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم الذي أمر الله نبيه الأمين أن يذكر الناس به، فجاء الحديث في أول الذاريات عن ذلكم اليوم الموعود فقال : ﴿**إنما توعدون لصادق**﴾. أما في الطور فقد سبق في آخر الذاريات الإشارة إلى اليوم الذي سيعذب فيه الكافرون، فجاء التأكيد على حقيقة وقوع هذا العذاب بجملة من المقسمات التي وقعت في أول الطور تأكيدا لهذا العذاب الموعود. أما في سورة

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٢٠٠، والبرهان ص ٨٩، فقرة ١٧٧، وملاك التأويل ١/٤٧٠.

(٢) انظر ملاك التأويل، ٢/٥٨٤-٥٨٦.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٨٦٢ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرسلات فقد تقدم بيان حال الفرقتين المؤمنين والكافرين في سورة الإنسان وما وعدوا به من النعيم والعذاب، فجاء التأكيد في المرسلات على حقيقة ذلك الوعد في ذلك اليوم المشهود.

وهناك أمثلة أخرى جاءت عند ابن الزبير ذكر فيها وجوه المناسبة بين السور[١]. ولا أستطيع ذكرها هنا خشية الإطالة، وسيتم عرضها في موضعها من هذه الدراسة -بإذن الله-.

مما تقدم يمكن تقرير ما يلي :

١- إن علم المناسبة كان من أكثر مباحث علوم القرآن أهمية في توجيه المتشابهات.

٢- أن ابن الزبير برع أكثر من صاحبيه في تقرير المناسبات وابتكار المناسبات الموضوعية والتناسب ما بين السور.

٣-كما أن الكرماني كان أكثر الثلاثة اعتمادا على التناسب اللفظي في توجيه المتشابهات حيث اتخذت المناسبة اللفظية عند الكرماني أشكالا عدة كما رأينا .

٤- كثيراً ما كانت تعتمد المناسبة بالإضافة إلى طرائق أخرى في التفسير في توجيه موطن التشابه الواحد وخاصة حينما يكون بين الآية أو الآيات أكثر من سبب من أسباب التشابه والاختلاف.

وأعتذر عن الإطالة في تقرير هذا الموضوع أعني جانب المناسبة ولكن أهميته هي التي كانت السبب في هذه الإطالة، والله أسأل أن يعلّمنا ما ينفعنا.

ب) معرفة أسباب النزول

سبب النزول هو أن تنزل الآية أو الآيات في حادثة أو مبيّنة لحكم أيام وقوعه. ولا ريب في أن لهذا العلم فوائد جليلة ذكرت في مباحث علوم القرآن، ولعل من أبرزها ومما يهمنا في هذا المجال هو أن معرفة سبب النزول تعين على فهم المعنى وإزالة الإشكال حول الآية الكريمة، ذلك أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب [٢].

ولقد استطاعت كتب المتشابه اللفظي الإفادة بجد من مباحث هذا العلم بحيث استعانت بكثير من الروايات في أسباب النزول على فهم حقيقة بعض النظائر المتشابهة، وسوف نلاحظ بوضوح كيف وظّف أصحاب الكتب الثلاثة مرويات أسباب النزول وجعلوها بمثابة الأدلة القاطعة على ما تبنوه من آراء في توجيه بعض المتشابهات.

فانظر مثلا كيف يحاول ابن الزبير توظيف السياق إلى جانب ما ورد من سبب النزول في توضيح سبب دخول ضمير الفصل [هو] على آية الزخرف [٦٤] : ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا**

---

(١) انظر مثلا ملاك التأويل ٨٣٧/٢ حيث يذكر وجه المناسبة بين سورتي غافر والزمر وذلك في توجيه ما يعده من موضع التشابه الأول في سورة غافر.

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان، انظر ١٠٦/١، و١٠٩، والإتقان ٦١/١، ومقدمة في أصول التفسير لأحمد بن تيمية ص ٣٣٩، (من مجمع الفتاوى ج ١٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صراط مستقيم﴾[١]؛ حيث يستشهد بالسياق القرآني الـذي جاءت فيه هـذه الآيـة أولا، حيـث قولـه تعالى:﴿**ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون**﴾ [الزخرف/٥٦] ثم يقول ابن الزبـير : ففـي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ [الأنبيـاء /٩٨] تعلّـق بها الكفار، وقالوا : عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكـة عباد مقربون فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا، وجادلوا بهذا. فأنزل الله تعالى : ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعـدون**﴾ [الأنبياء/١٠١][٢]. فلمـا وقـع ذكـر آلهتهـم في سـياق آيات الزخرف احتيج إلى ضمير الفصل للتأكيد على حقيقة ربوبية الله للجميع.

ومن ذلك ما أورده ابن الزبير أيضا في جمعه بين الآيتين في آل عمـران [٨٦] وبـراءة[٧٤] حيـث قال في الأولى : ﴿**كفروا بعد إيمانهم**﴾، وفي الثانية : ﴿**كفروا بعد إسلامهم**﴾[٣] حيـث يبـين أن الأولى نزلت في مؤمن مرتد هو الحارث بن سويد، والثانية في الجلاس وهو أحد المنافقين، فنعت بذكر الإسـلام لأنه لم يدخل قلبه الإيمان.

أما الخطيب وتاج القراء فقد يذكران سبب النزول استئناسا به في بيـان بعض النظـائر المتشـابهة، لكن الذي يميزهما عن ابن الزبير أنهما لم يكونا في دقته من حيث إيراده للأخبـار الصحيحـة، حيـث يلاحظ تفوق ابن الزبير في هذا الشأن، ومرد ذلك علمه بحـال الروايـات صحيحهـا مـن سـقيمها فكـان يتحاشى ذكر ما ضعف من الرواية.

ففي آية الأنعام على سبيل المثال : ﴿**ومنهم مـن يستمع إليـك وجعلنـا علـى قلوبهـم أكنـة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا**﴾ الآية [الأنعام /٢٥][٤] يورد الخطيب في بيانها رواية في النزول، وقد أوردهـا بصيغة التضعيف (قيل) حيث يقول : " فقد (قيل) فيه إنه في قوم من الكفـار كـانوا يسـتمعون إلى النـبي صلى الله عليه وسلم وإلى قراءته بالليل فإذا عرفوا بها مكانه رجموه وآذوه ومنعوه من الصـلاة خوفـا أن يسمعه منهم من تدعوه دواعي الحق فيسلم، وهذا في قوم قليلي العدد يرصدونه عليه السلام بليل وكان الله يمنعهم عنه بنوم يلقيه عليهم وحجاب يحجبه به عنهم ".

أما تاج القراء فيقول : إنّ هذه الآية نزلت في أبي سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشـيبة وأميـة بن خلف فكانوا قليلي العدد فحمل على لفظ [مَنْ] فوحّد الفعل [يستمع] [٥].

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٦٣، ١٦٤.

(٢) الواحدي، أسباب النزول، انظر ص ٢١٥.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٦٦، والواحدي أسباب النزول ص ٨١. والسيوطي، لباب النقول ص ١٢١.

(٤) درة التنزيل ١١٦، ١١٧، وليس ما أورده الخطيب هنا مذكورا في كتب أسباب النزول ولا في كتب التفسير.

(٥) الكرماني، البرهان ص ٥٨، فقرة ٩٧، والواحدي أسباب النزول ص ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وقع عند تاج القراء بعض المرويات الغريبة في أسباب النزول كالتي ذكرها عند قوله تعالى : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ [الإسراء/٢٨][١]. هذا علاوة على أن هذه الرواية لا تخدم توجيه المتشابه في شيء.

وأحيانا ما يلاحظ على كتب المتشابه اللفظي بعامة أنها تسلك سبيل كتب التفسير في إيراد ما يوحي بالسببية كالقول عن آية ما إنها نزلت في كذا، وهذا ليس من قبيل سبب النزول وإنما هو من قبيل التفسير كما حققه العلماء [٢].

فمن ذلك مثلا ما أورده الخطيب حول آية المائدة [٤١] : ﴿**يحرفون الكلم من بعد مواضعه**﴾[٣] حيث أورد أكثر من قول يشير إلى أنها نزلت في فئات مختلفة من اليهود، وكلها روايات تفسيرية يحتملها مدلول النص القرآني. ومثله ما أورده الكرماني في آية الحجر [٤٧]: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين**﴾ أنها نزلت في أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم [٤].

ومثل ذلك ما أورده ابن الزبير في آية براءة [١٠٥] : ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[٥] حيث بين أنها نازلة في التائبين ممن تخلفوا يوم تبوك. وليست هذه إلا أقوال للمفسرين ولا تحمل على السبب.

وقد تختلف نظرة الكتب الثلاثة إلى سبب النزول على أي المتشابهات في اللفظ يمكن أن يحمل، ولم أجد من ذلك إلا مثالا واحدا وهو ما وقع بين السور الثلاث؛ العنكبوت [٨]، ولقمان [١٤]، والأحقاف [١٥] ففي الأولى قال : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسنا**﴾، وفي الثانية : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن**﴾، وفي الثالثة قال:﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا**﴾[٦] وسبب النزول هو ما ورد في قصة سعد بن مالك حين أبى أن يطيع أمه في أمر الارتداد عن الإسلام. وتلحظ أن الخطيب يجعله سببا لآية لقمان، في حين يعتبره ابن الزبير سببا لآية العنكبوت. ويذهب تاج القراء إلى أنه سببَ نزول يحمل على جميع الآيات الثلاث ويقول إنه رأي الجمهور.

---

(١) انظر البرهان ص ١١٦، فقرة ٢٧٣، حيث أورد قصة عن تصدقه عليه السلام بقميصه الذي لا يملك غيره وكيف أنه بقي عاريا فنزلت الآية . (انظر الواحدي أسباب النزول ص ٢٠٢).

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان، انظر ١/١١٤- ١١٦.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٩١، ٩٢.

(٤) انظر البرهان ص ١٠٨، فقرة ٢٥٣.

(٥) انظر ملاك التأويل ١/٤٧٢ فما بعدها.

(٦) انظر درة التنزيل ص ٣٤٧، والبرهان ص ١٥١، فقرة ٣٧٤، وملاك التأويل ٢/٧٦٧، والأرجح في سبب النزول المروي في قصة سعد بن مالك حمله على آية العنكبوت، كما ذكر ذلك الواحدي والسيوطي (انظر أسباب النزول الواحدي ص٢٤٠، والسيوطي، اللباب ص ١٦٦) هذا بالإضافة إلى أن بعض من كتبوا في السيرة والتفسير أوردوا هذا في العنكبوت كالخضري مثلا (انظر الخضري، نور اليقين ص ٤٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نلحظ أن مرويات أسباب النزول كما هو حال المأثور بعامة لم تكن أداة مباشرة في توجيه المتشابهات، وإنما كانت الكتب الثلاثة تذكرها استئناسا أو استطرادا دونما قصد لذكرها في توجيه المتشابهات. كما تلاحظ من جهة ثانية أن ابن الزبير كان أكثر من صاحبيه عناية بتنقيح السبب من غيره.

جـ) علم القراءات القرآنية

القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة [١]. وهي القراءات التي تواتر نقلها أيًا كان عددها. ومعلوم أن كل قراءة من القراءات القرآنية مما يتوافر له شروط القبول من حيث تواتر النقل، وموافقة الرسم واللغة يمكن أن تؤدي فهما جديدا للقرآن الكريم مؤكدة بذلك على حقيقة الإعجاز وحيوية التفسير.

هذا ولقد كان لعلم القراءات القرآنية آثاره المتفاوتة ما بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة، نبرز ذلك في ما يأتي :

١) أما الخطيب فمن الواضح أنه ليس له جهد يذكر في إيراد القراءات القرآنية، و لم أذكر عنه إلا موضعاً واحداً وجدته يبينه من خلال استطراد له في التفسير دونما قصد في توجيه المتشابه اللفظي. ففي آية النساء [١٣٥] : ﴿**كونوا قوامين بالقسط شهداء لله**﴾ تلاحظ أن الخطيب يستطرد في تفسيرها، وعندما يبلغ آخرها وهو قوله تعالى : ﴿**وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾[٢]. يقدم الخطيب قراءتين في كلمة [تلووا]، فإن كانت [تلووا] من الليّ وهو تغيير الشهادة أو المماطلة في أدائها، أما على قراءة من قرأ [تلوا] بواو واحدة فهي من الولاية أي تولي أمور الناس.

٢) الكرماني يسلك مسلكا مستقلا عن صاحب الدرة في هذا الشأن، حيث عرف بتاج القراء، وأشار إليه من كتبوا في طبقات القراء في كتبهم كما تقدم في الترجمة-. ومن هنا فمن الطبيعي أن تؤثر هذه المعرفة بالقراءات في ما يكتب الرجل. ومن مظاهر عناية الكرماني بعلم القراءات في كتاب البرهان ما يأتي :

أ-عرضه للقراءات في بعض النظائر المتشابهة مما يوحي بدقته في العرض وكأنه يحترز عن أمر معين لا بد من بيانه. من ذلك ما عرضه في آية آل عمران [١٨٤] : ﴿**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**﴾[٣] يذكر تاج القراء أن [الباء] لم توجد في المعطوفين [الزبر

---

(١) ابن الجزري، منجد المقرئين، ص ٣، والزرقاني، مناهل العرفان ١/٤١٢.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٨٥، وابن مجاهد، السبعة في القراءات ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) انظر البرهان ص ٤٧، فقرة ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكتاب المنير] بخلاف آية فاطر [٢٥] : ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ وهذا الحذف للباء في آل عمران موجود إلا في قراءة ابن عامر فقد وجدت هذه الباء [١].

تلاحظ ها هنا أن تاج القراء يريد أن ينبه على أن موطن التشابه هذا يكون على أغلب ما اشتهر من قراءات القراء، وأنه لا يوجد سبب للاختلاف على قراءة ابن عامر حيث زيدت الباء في كليهما؛ أعني في فاطر وآل عمران.

ب- استدلال الكرماني بالقراءات الأخرى من غير حفص على ما يتبناه من المعاني في توجيه المتشابهات. مثاله ما جاء في سورة المؤمنون حيث قوله تعالى : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ [المؤمنون /٨٤-٨٩] تلاحظ أن الكرماني يفرق بين الأجوبة الثلاثة [سيقولون لله] بالنسبة للمسؤول عنه فيقول [٢]: الأول جواب لقوله : [لمن الأرض ومن فيها ؟]، وهو جواب مطابق لفظا ومعنى لأنه قال في السؤال: [قل لمن ؟]، فقال في الجواب : [لله]، وأما الثاني والثالث فمطابقة فيها في المعنى لأن القائل إذا قال لك من مالك هذا الغلام ؟ فلك أن تقول : زيد، فيكون مطابقا لفظا ومعنى، ولك أن تقول : لزيد، فيكون مطابقا للمعنى، ولهذا قرأ أبو عمرو الثاني والثالث [لله] مراعيا للمطابقة. أي أن أبا عمرو أراد في هذه القراءة مطابقة اللفظ والمعنى. ولا ريب أن القرآن الكريم في كل قراءة من قراءاته يكون مطابقاً للفظ والمعنى على حد سواء.

جـ- وأحيانا تجد أن الكرماني يستطرد في توجيه بعض القراءات دونما حاجة لها في توجيه المتشابه. فعند حديثه في سورة الجن يتحدث عن تكرار [أنَّ] المفتوحة الهمزة من قوله تعالى: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ إلى قوله : ﴿وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ [الجن/٣-١٤][٣] فيذكر الكرماني أن من قرأ بفتح همزة [أنَّ] في هذه الآيات كان عطفا على قوله: ﴿أنه استمع نفر من الجن﴾ [الجن/١] فيكون جملة الحقائق المذكورة في هذه الآيات من الموحى به. وأما من قرأ بكسر همزة [إنّ] فهو عطف على قوله في الآية الأولى: ﴿إنّا سمعنا قرآنا عجبا﴾ [الجن /١]، وعلى هذه القراءة تكون جملة الحقائق المذكورة في آيات سورة الجن هي من كلام الجن أنفسهم بعد أن آمنوا حين سمعوا القرآن . وهكذا ندرك كيف أن كل قراءة تفيد جدة في المعنى دون أن تعارض كلٌّ من القراءتين صاحبتها.

---

(١) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع ص ٩٣، ونسبها البناء إليه أي لابن عامر -. (انظر البناء، اتحاف فضل البشر، ص ١٨٣).

(٢) انظر البرهان ص ١٣٨، ١٣٩، فقرة ٣٣٤، وانظر ابن مجاهد، السبعة ص ٤٤٧.

(٣) انظر البرهان ص ١٩٧، فقرة ٥٣٨، وانظر ابن الجزري، النشر ٢/٣٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- وقلّما يستشهد الكرماني بالقراءات الشاذة حيث لم ألحظ عليه ذلك إلا في موضع واحد يستشهد بها على التفسير، وذلك في تنكير سلام الله سبحانه على يحيى: ﴿**وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا**﴾ [مريم/١٥][١] حين يبين أن السلام ولو أنه منكّر لكنه ليس قليلا لأنه من الله وما هو من الله ليس بالقليل ويستشهد بقراءة الحسن في تنكير الصراط [إهدنا صراطاً مستقيما].

٣) أما ابن الزبير فهو الآخر اشتهر بعلم القراءات كسابقه، وقد كان لذلك أثر في كتاب ملاك التأويل، ويكمن هذا الأثر في المظاهر الآتية :

أ- التكلف في إيجاد بعض المواضع المتشابهة نتيجة التصرف بمعرفة القراءات القرآنية، من أمثلة ذلك ما عرضه ابن الزبير في سورة الفاتحة من الاختلاف الواقع بينها وبين سورتي آل عمران والناس. فقال في الأولى : ﴿**مالك يوم الدين**﴾ [الفاتحة/٣]، و﴿**ملِك يوم الدين**﴾ بالقراءتين، و لم يَرِد اختلاف القراءات هذا في قوله تعالى : ﴿**مالك الملك**﴾ [آل عمران/٢٦]، و ﴿**ملك الناس**﴾ [الناس/٢] حيث وردت كل من الآيتين الأخيرتين على وجه واحد من القراءة، ويعلّل ابن الزبير ذلك بأن الآيتين الأخيرتين تتضمنان معنى المالك والملك فلم يحتج إلى الوجه الثاني من القراءة [٢].

وأحياناً يأتي ابن الزبير بالآيتين مما ليس فيه التشابه ظاهرا، فيتكلف إيجاد هذا التشابه بأن يورد أحد النظيرين المتشابهين على قراءة القلة والنظير الآخر على قراءة الأكثرين فيجمع بينهما. كما هو الحاصل عنده ما بين آيتي الأنبياء [٤٥] والنمل[٨٠] حيث قوله تعالى : ﴿**ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون**﴾، وفي النمل : ﴿**ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين**﴾[٣]. تلاحظ أن ابن الزبير يريد أن يجمع بين الآيتين ليعلل سبب الاختلاف بينهما فيأتي بقراءة ابن عامر في آية الأنبياء : ﴿**ولا تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون**﴾ ويجمع بينها وبين آية النمل حيث يبين لماذا قال في الأولى : ﴿**إذا ما ينذرون**﴾، وفي الثانية : ﴿**إذا ولوا مدبرين**﴾، ويلاحظ أن كلمة [الصم] في الآيتين مفعول به، لكنّ آية الأنبياء على قراءة ابن عامر وآية النمل على قراءة الجمهور [٤]. ولا ريب في أن هذا يجوز بيان وجه الاختلاف فيه، فهما قراءتان متواترتان، لكنّه لا يخلو من تكلف في إيجاد المتشابهات، الأمر الذي يلبس على الكثيرين.

---

(١) انظر البرهان ص ١٢٥، فقرة ٢٩٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢٤/١، ٢٥، وسيأتي دراسة هذه الآراء دراسة نقدية في الباب الثاني بإذن الله -.

(٣) انظر ملاك التأويل ٦٩٦/٢.

(٤) ابن مجاهد، السبعة، انظر ص ٤٢٩، و ٤٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- وأحيانا يستشهد ابن الزبير بقراءة الجميع على صحة موضع التشابه، مثاله حين جمع بين آيتي الأنعام [٣٧]، والعنكبوت [٥٠]:﴿**وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربه**﴾، وفي العنكبوت:﴿**آيات من ربه**﴾[١] بجمع الآيات تلاحظ أن ابن الزبير يؤكد أن إفراد الآية في الأنعام هي قراءة الجميع [٢].

جـ- استشهاد ابن الزبير بقراءة الأكثرين على موضع التشابه كما في قوله تعالى : ﴿**ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود**﴾[هود/٦٨][٣]. فقراءة الأكثرين الصرف في لفظ [ثمود] الأول، فجاءت منوّنة والمنع في الثانية حيث يعلل هذا الخلاف.

د- تصدى ابن الزبير لبعض القراءات الشاذة التي لا يذكرها إلا في القليل النادر. من ذلك ما ذكره في سورة الإخلاص وهو يفرّ ق بين [الواحد، والأحد]، حيث يبين أن قراءة [قل هو الله الواحد] هي قراءة شاذة وليس مقطوعا بها فلا يعتمد عليها مثبتا بذلك الاختلاف بين هذين اللفظين [٤].

وهكذا تدرك بوضوح أن تاج القراء وابن الزبير قد أفادا بنصيب لا بأس به من توظيف علم القراءات القرآنية في خدمة الآيات المتشابهات.

د) ترتيب النزول وأول وآخر ما نزل من القرآن

وهذه من مباحث علوم القرآن التي كثرت حولها الأقوال، حيث إن ترتيب النزول للآيات أمر غير متفق عليه. وهناك إشارات نادرة إلى ذكر بعض ما نزل قبل الآخر في توجيه بعض المتشابهات، فمن ذلك ما جاء عند الخطيب وهو يبين سبب الاختلاف الوارد بين آيتي الأعراف [٨٢]، والنمل[٥٦]؛ حيث قوله تعالى : ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم**﴾ وفي الأعراف ذكره بالإضمار [٥]؛ حيث يبين أن سبب الإضمار في آية الأعراف هو تقدم ذكر قوم لوط في آية النمل، والإظهار يكون في ما تقدم نزوله والإضمار في ما يكون بعد ذلك على حد قوله-.

ومن ذلك ما بينه ابن الزبير وهو يتحدث عن آية المائدة ﴿**أحلت لكم بهيمة الأنعام**﴾ حيث بين أن المقصود بها بقر الوحش وجاءت مختصة ببيان هذا الحكم وليس المقصود بها عموم الأنعام الشاملة للإبل والبقر والغنم. ويستدل ابن الزبير على أنها مختصة بالوحش من الأنعام بأن المائدة من أواخر ما

---

(١) انظر ملاك التأويل ٣٢٠/١.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر، وأبي عمرو في رواية علي بن نصر ﴿آية﴾ بالتوحيد، (انظر السبعة ٥٠١، والنشر ٢٤٨/٢).

(٣) انظر ملاك التأويل ٥٢٣/٢، ٥٢٤، وذكر أبو حيان في البحر أن قراءة الصرف تنسب للأعمش وابن وثاب، والصرف قراءة الجمهور. وذكر ابن مجاهد أن حمزة فيمن ترك الصرف، واستوفى الخلاف في قراءة الآية، (انظر البحر المحيط ٢٣٩/٥، والسبعة ص ٣٣٧).

(٤) انظر ملاك التأويل ٩٥٩/٢ فما بعدها.

(٥) انظر درة التنزيل ص ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزل، وقد اشتملت على كثير من متممات الأحكام كآية الوضوء والتيمم وهذا الحكم المتعلق ببهيمة الأنعام [١].

هـ) إشارات من المكي والمدني

ولم يرد من ذلك إلا إشارات يسيرة عند ابن الزبير في توجيه بعض المتشابهات. مثاله ما وقع بين آيات في البقرة وسورة الرعد، فجاء في البقرة [١٢٠] قوله تعالى : ﴿**ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾، ثم قال في ما بعد ذلك الآية [١٤٥] : ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين**﴾، وجاء في سورة الرعد [٣٧] : ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق**﴾[٢]، يعدّ ابن الزبير في توجيه ثانٍ لهذه الآيات المذكورة أن آية الرعد كانت أوجز هذه الآيات لأن السورة مكية ثم بعد ذلك تأتي آية البقرة الأولى فالثانية لأن في السور المدنية زيادة أحكام وزيادة علم أنزله الله سبحانه لنبيه -عليه السلام-.

ومن ذلك ما وقع عند ابن الزبير وهو يجمع بين آيتي المائدة والنحل حيث جاء في المائدة [٦] : ﴿**ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**﴾، وجاء في النحل [٨١] : ﴿**لعلكم تسلمون**﴾[٣] فعبّر بالشكر في المائدة لأنها في خطاب المؤمنين والآية مدنية ، وعبّر بالإسلام في النحل لأن سورة النحل مكية جاءت في بيان نعم الله سبحانه وتقريعا للمشركين المنكرين لهذه الأنعم فجاء قوله : ﴿**كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون**﴾.

و) رسم المصحف

وهو ما عرف بالمصحف العثماني وذلك لأنه كتب على عهد عثمان رضي الله عنه [٤] ولا ريب في أن هذا أمر جاء على التوقيف. ولقد عني تاج القراء بتوجيه بعض المتشابهات التي يرجع سبب الاختلاف فيها إلى رسم المصحف وهو تأثر واضح بكتابه خط المصاحف.

فمن ذلك ما أورده الكرماني من الاختلاف الواقع بين الآيتين في سورة المائدة من جهة، وسورة البقرة من جهة ثانية، وذلك من حيث إثبات [الياء] وحذفها، فجاء في سورة المائدة [٣]: ﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون**﴾ ، ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون**﴾ [المائدة /٤٤]

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٢٩ ٢٣١، والآية المتحدث عنها هي الأولى من المائدة.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٨٧، ٨٨.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٢٣٧، ٢٣٨.

(٤) الزرقاني، مناهل العرفان ١/٣٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في البقرة [١٥٠] : ﴿**فلا تخشوهم واخشوني**﴾ بإضافة [الياء] إلى فعل الأمر [١]. يقول تاج القراء إن هذا من فعل الخط وحذفت الياء من آية المائدة الثانية موافقة لما قبلها.

ومن ذلك ما ذكره أيضا حول الآية الأولى من سورة هود [١٤] : ﴿**فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله**﴾، قال وفي غيرها بإثبات النون نحو : ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**﴾ [القصص/٥٠][٢]، وهذا كما يقول الكرماني من فعل الخط، ويذكر أنه استوفى الحديث عن ذلك في كتابه خط المصاحف.

ز) ترتيب السور في المصحف

وهذا أمر توقيفي ولا يلتفت إلى ما وراء ذلك من الآراء. هذا وقد عدّت كتب المتشابه اللفظي ترتيب السور في المصحف أمرا مراعى في توجيه بعض المتشابهات، هذا وقد تفوّق ابن الزبير على صاحبيه في اعتماد أصل ترتيب السور في توجيه بعض المتشابهات، وذلك أثر طبيعي مما جاء في كتابه البرهان في ترتيب سور القرآن.

أما الخطيب وتاج القراء فلم يذكرا إلا إشارات في مراعاة هذا الأصل، فمن ذلك ما أورده الخطيب حول الاختلاف الواقع بين الأنعام [٥]، والشعراء [٦] : ﴿**فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾، وقال في الشعراء : ﴿**فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾[٣]، يقول الخطيب إن آية الشعراء جاءت مختصرة، لأن آية الأنعام سابقة لها، وهما مكيتان ، لكن توخي الاختصار في الشعراء لما تقدم بيانه في الأنعام. ولم يشر الخطيب إلى نوع الأسبقية هل هي في النزول، أو في الترتيب المعتمد في المصحف، أو في الأمرين معا !!

وأورد تاج القراء في سورة الحجر إشارة من ذلك، وذلك حول الآية الكريمة : ﴿**فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون**﴾ [الحجر/٥٢] لأن هذه السورة متأخرة فاكتفى بها عما في هود؛ لأن التقدير: فقالوا : سلاما قال : سلام . فحذف للدلالة عليه في سورة هود [٤].

أما ابن الزبير فيصرح أكثر من مرة بمراعاة أصل ترتيب السور في توجيه المتشابهات. فاستمع إليه مثلا وهو يتحدث عن التذكير في آية آل عمران [٤٩] للطير:﴿**فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله**﴾ والتأنيث في المائدة [١١٠]:﴿**فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني**﴾[٥]، يتحدث ابن الزبير عن وجه تخصيص كل سورة بما خصت به فيقول: " الجواب عن وجه التخصيص والله أعلم أن الترتيب الذي استقر عليه

---

(١) انظر البرهان ص ٥١، فقرة ٨١.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٩٥، فقرة ٢٠٤.

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) انظر البرهان ص ١٠٨، فقرة ٢٥٤.

(٥) انظر ملاك التأويل ١/١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن في سوره وآياته أصل مراعى وقد تقدم بعض إشارة إلى ذلك ولعلنا سنزيد في بيانه إن شاء الله وعودة الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أولى، وعودته على المعنى ثانٍ على ذلك، وكلا الرأيين عالٍ فصيح، فعاد في آية آل عمران على [الكاف] لأنها تعاقب [مثل] وهو مذكر فهذا لحظ لفظي، ثم عاد في آية المائدة إلى [الكاف] من حيث هي في المعنى صفة، لأن [المثل] صفة في التقدير المعنوي، فحصل مراعاة اللفظ أولا ومراعاة المعنى ثانيا على ما يجب ".

وأحيانا يشير ابن الزبير إلى كتابه البرهان في هذا الصدد، فمن ذلك ما أورده في التفريق بين المسارعة والمسابقة الواقعتين في الآيتين : ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**﴾ [آل عمران/١٣٣]، وفي الحديد [٢١]: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم**﴾[١]، يقول ابن الزبير إن المسارعة مقدمة على المسابقة، ثم يقول : " وقد أوضحنا في كتاب البرهان أن ترتيب السور متوقف على أصح المأخذين، وأما ترتيب الآي فلا توقف فيه، وأن كل ذلك معتمد فيه غير ترتيب النزول، وإذا ثبت هذا ثبت وجه تقديم المسارعة على المسابقة ".

هذا وقد كثرت إشارة ابن الزبير في هذا الشأن إلى كتاب البرهان، وهو يراعي ترتيب السور ويعتبره أصلا معتمدا في توجيه بعض المتشابهات [٢].

ح) الفاصلة القرآنية عند الكتب الثلاثة

تقدم أن الفاصلة هي كلمة رأس الآية. ولقد أخذت الفاصلة حيزا كبيرا في كتب المتشابه اللفظي، ويلاحظ أن هذه الكتب سلكت في التعامل مع الفاصلة اتجاهين متضادين هما:

الأول : تعليل الفواصل التي تختم بها الآيات القرآنية :

فقد عللوا الفواصل المتقاربة بين الآيات أي التي يجاور بعضها بعضا كقوله تعالى في الأنعام [١٥١]: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾، ثم قال في الثانية:﴿**تذكرون**﴾[١٥٢]، وفي الثالثة:﴿**تتقون**﴾ [١٥٣][٣].

وأحيانا تجدهم يعللون الفواصل المتباعدة بين مختلف السور والتي تكرر في قصة واحدة بشيء من الاختلاف كقوله تعالى في قصة صالح : ﴿**فيأخذكم عذاب أليم**﴾[الأعراف/٧٣]، ووقع في هود[٦٤] : ﴿**فيأخذكم عذاب قريب**﴾[٤]. ولم يكتف ابن الزبير بهذا وذاك إنما سلك اتجاها ثالثا فراح يعلل الفواصل التي تبدو غير مناسبة من حيث الظاهر، فراح يذكر المناسبة المعنوية لختم الآية بما ختمت به

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٧١، ١٧٢.

(٢) انظر مثلا ملاك التأويل ١/٤٠٤ حيث يفرق بين [نجّينا وأنجينا] مراعيا أصل ترتيب السور.

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٣٦، والبرهان ص ٦٦، فقرة ١١٦، وملاك التأويل ١/٣٥٤.

(٤) انظر درة التنزيل ص ١٥٥، وملاك التأويل ١/٤٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالذي وقع في أواخر المائدة [١١٨]:﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾[١].

والثاني : القول برعاية الفاصلة على حساب المعنى :

وقد كثر مثل هذا في الكتب الثلاثة بعامة، كالواقع بين سورتي الأعراف [١١٥]، وطه [٦٥]: ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين**﴾، وفي طه : ﴿ **أول من ألقى**﴾[٢]، وسيأتي مناقشة ذلك كله في الدراسة التطبيقية إن شاء الله.

ط) إشارات أخرى من علوم القرآن

وهذه استطردوا في بيانها دونما حاجة إليها ألبتة، كحديث ابن الزبير عن صور الوحي في سورة الشورى، وحديث الخطيب عن حمل المحكم على المتشابه في الموضع الأول من سورة فصلت[٣].

المطلب السابع : علوم اللغة في كتب المتشابه اللفظي

معلوم أن العلوم اللغوية – على تنوعها واختلافها – من أهمّ الأدوات التي تلزم المفسر، وبما أن توجيه الآيات المتشابهات لون من ألوان التفسير، فقد وظّفت الكتب الثلاثة علوماً لغوية مختلفة في خدمة هذا المجال، وسندرك بوضوح كيف أن اللغة كانت أداة ناجحة عند أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه الآيات المتشابهات. وتتمثل هذه العلوم بالنحو والبلاغة وحروف المعاني والأسماء الموصولة وبيان المفردات اللغوية والاستشهاد بالشعر، وإليك الحديث عن كل واحد منها سائلين العليّ القدير أن يوفقنا إلى علم ما ينفعنا.

أ) علم النحو عند الكتب الثلاثة:

ولكثرة تشعب مسائل هذا العلم في الكتب الثلاثة أرى أن ندرسه في كل كتاب على حدة مبتدئين –كالعادة– بأقدم هذه الكتب وهو درة التنزيل وذلك في ما يلي:–

١) **درة التنزيل** : برع الخطيب –رحمه الله– اكثر من غيره في إيراد مسائل علم النحو، وكثيراً ما كانت آراؤه هي المعتمدة عند تاج القرّاء وابن الزبير، مع توسع عند الأخير، وأستطيع أن ألخص المظاهر أو الجوانب التي عرض فيها الخطيب لعلم النحو في ما يأتي :–

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢٧٦/١.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٧٣، والبرهان ٨٠، فقرة ١٥٣، وملاك التأويل ٤٤٢/١.

(٣) انظر ملاك التأويل ٨٤٧/٢، ودرة التنزيل ص ٤١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- نقده للآراء والمذاهب النحوية، برع الخطيب في نقده بعض الآراء النحوية، من ذلك ما انتقد به السيرافي[١] في أول شرحه للكتاب[٢] حيث بين الأخير أنه يجوز أن تقوم الجملة مقام الفاعل وهذا غير جائز على مذهب البصّريين كما يقول الخطيب. وإنما تقوم الجملة مقام الفاعل في مذهب الكوفيين، أما البصريّون فيقدّرون إسماً مفرداً كما في قوله تعالى: ﴿**ثمّ بدا لهم من بعد ما رأو الآيات ليسجننه حتّى حين**﴾ [يوسف/٣٥] فقدّر البصريّون فعل البداءة وجعلوه في مقام الفاعل[٣].

نلحظ أن الخطيب عرض ما تقدّم بيانه في استطراد له وهو يتحدث عن الفرق بين آيتي البقرة [٥٨] والأعراف [١٦١] في قصّة موسى﴿**وسنزيد المحسنين**﴾، وحذف [الواو] من أية الأعراف.

ومن ذلك أيضاً ما أورده الخطيب في آية المائدة [٦٩] :﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ تلاحظ أنه يرّجح مذهب سيبويه[٤] على بقية المذاهب الاخرى ، وهو أن هذا التقديم للصابئين هو تقديم على نية التأخير فكأنه قال : ان الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله فلا خوف عليهم والصابئون هم كذلك ان امتثلوا بهذه الشروط؛ فهو تقديم على نيّة التأخير. ويعرض الخطيب لمذاهب أخرى في هذا الشأن حول هذه الآية[٥].

ب- استطراده في بيان وجوه الاعراب وآراء النحاة في ذلك. منه ما أورده حول آيتي البقرة [١٢٦] وإبراهيم [٣٥] ﴿**ربّ اجعل هذا بلداً آمناً**﴾ وجاء في إبراهيم تعريف البلد نلحظ أن الخطيب يقّدم قولين في توجيه هذا الموضع، وبعد أن يقدم القول الأول يذكر أن آية البقرة: ﴿**هذا بلداً آمناً**﴾ [هذا] مفعول أول و [بلداً] مفعول ثان. أما آية ابراهيم ﴿**هذا البلد آمناً**﴾ فيكون [هذا] مفعولاً أولاً، و [البلد] عطف بيان على مذهب سيبوية، وصفة على مذهب أبي العباس المبرّد[٦]، فكأنه قال : اجعل هذا البلد الذي صيّرته -كما أردت- ذا أمن إلى من آوى اليه[٧] .

---

(١) السيرافي هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد، نحوي عالم بالأدب، نسب الى سيراف من بلاد فارس، تفقه في عمان، وولي القضاء في بغداد سنة ٣٦٨هـ (انظر ترجمته الذهبي، السير، ١٦/٢٤٧، رقم ١٤٧).

(٢) المقصود بالكتاب هو كتاب سيبويه في النحو.

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٧ ، ١٨.

(٤) سيبوية هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، امام النحو، حجّة العرب، الفارسي البصري، ت ١٨٠ هـ. وقيل ١٨٨ هـ. ورجّح الذهبي الأول. (السير ٨/٣٥١، رقم ٩٧).

(٥) انظر درة التنزيل ص ٢١ ، ٢٢.

(٦) هو أبو العبّاس المبرّد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري النحوي الأنباري صحاب الكفل ، ت ٢٨٦ هـ. (انظر الذهبي، السير ١٣/٥٧٦، ترجمة رقم ٢٩٩).

(٧) انظر درة التنزيل ص ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك ما أورده من مذاهب نحوية في إعراب [الكاف] في [أرأيتكم] التي وردت مرتين في سورة الأنعام [٤٠، ٤٦]، فمذهب البصريّين أن [الكاف] حرف خطاب، أما عند الكوفيّين فهو اسم مضمر والتقدير؛ أرأيتم أنفسكم(١).

جـ- استطراده في بيان بعض القضايا اللغوية الجانبية. من ذلك حديثه عن [حيث] ومتى تجزم الفعل ومتى لا تجزمه ؟ وذلك بعد أن تحدّث عن التكرار في آيات القبلة : ﴿**ومن حيث خرجت فوّل وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ [البقرة /١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠](٢). فيبيّن الخطيب أن [حيث] لا تجزم الفعل الا اذا اقترنت بـ[ما]، تقول: حيثما تنزل أنزل، فالفعل هنا مجزوم. ويبطل هذا الجزم لفعل الشرط إذا قلت: حيث تنزل أنزل، ويصبح الفعل مرفوعاً. وقوله تعالى : ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ [كنتم] هو فعل ماض والجملة في موضع جزم. وليس كذلك قوله : ﴿**ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ فلا يكون هذا الفعل [خرجت] مجزوماً.

ومن ذلك أيضاً تفريقه بين النون المحذوفة من [إنّا وإنّي] واستخدام القرآن لكل منهما في مواقع متعّددة(٣).

د- إعراب بعض المتشابهات من أجل توضيح المعنى. وهذا مذكور كثيراً عند الخطيب حيث إنّ الإعراب فرع المعنى دائماً. من ذلك ما بينه من الاختلاف الواقع بين آيتي المائدة [٩] والفتح [٢٩] ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ وقال في الفتح : ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾(٤).

يبيّن الخطيب أنه في آية المائدة عدل عن ذكر المفعول الى جملة تضّمنت معناه، والجملة مبتدأ وخبر [لهم مغفرة وأجر عظيم] وهي في موضع مفرد منصوب، كأنه قال : وعد الله الذين آمنوا مغفرة. أما في الثانية فانتصب المفعول [مغفرة] لعدم وجود أي من دواعي الرفع. وإنما عبّر في أية المائدة بالجملة الخبرية لأنها أدعى وأقوى في استحقاقهم لهذا الوعد.

ومن ذلك ما أورده في الأنعام [١٧] : ﴿**وإن يمسسك بخير فهو على كلّ شيء قدير**﴾(٥) فاذا قدّرت الجملة: إن ينلك خيراً يقدر عليه، لم يستقم الكلام لأنّ الجزاء حقه أن يكون بعد الشرط والقدرة على الفعل لاتكون بعده: والمعنى : أن ينلك خيراً يرجى لأمثاله. لأنه قادرٌ عليه وعلى كلّ شيء. وكونه تعالى قادراً من صفات النفس، وإنالة الخير فعل من أفعاله فلا يصّح كونه قادراً متأخراً عنها، ومن هنا

---

(١) انظر درة التنزيل ، ص ١١٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٣٨.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٧٠

(٤) انظر المرجع السابق ص ٨٩ ، ٩٠.

(٥) انظر درة التنزيل ص ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لايصّح أن يحمل معنى جملة الجزاء [فهو على كل شيء قدير] على الظاهر، فلا بدّ من تقدير جواب محذوف حتّى يستقيم الكلام. وهكذا نلحظ من هذا المثال الأخير أن الخطيب جعل المعنى هو الأصل والإعراب تبعاً له.

هـ- قضايا نحوية أخرى، وهي قضايا طارئة كان يذكرها صاحب الدرة في توجيه بعض المتشابهات، وذلك حين تستدعي الضرورة ذلك. من ذلك ما أورده في التفريق بين جمع القلّة والكثرة ما بين [الخطيئات والخطايا]. فالخطيئات جمع مؤنث سالم وهو من جموع القلّة بدليل أنك تقول : دريهمات؛ وهو جمع الدرهم المصغّر[١].

ومن ذلك حديثه في سورة المدثر عن المصادر، [التذكرة والتذكير] بأنها مصادر لفعل واحد هو المضعّف [ذكّر]، مثل: قدم تقديم وتقدمة، وكرّم تكريم وتكرمة وهكذا[٢].

ولا يسعني الإطالة بأكثر من هذا في وصف المباحث النحوية عند الخطيب وستدرك شيئاً من هذا في الدراسة التطبيقية -إن شاء الله تعالى-.

٢) البرهان : لم يكن تاج القرّاء متّسعاً في ذكر المسائل النحوية لسببين :-

الأول : بناء كتابه على الايجاز. **والثاني** : أنه لم يكن أصيلاً في إيراد كثير من المسائل النحوية المبثوثة هنا وهناك عبر ثنايا كتاب البرهان. فأحياناً نجده يعتمد على الإعراب في فهم بعض المتشابهات ، من ذلك ما بينه من وجه الاختلاف بين آيتي النحل: ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا اساطير الأولين**﴾ [النحل/٢٤]، وقوله عن المؤمنين: ﴿**قالوا خيراً**﴾[٣] [النحل/٣٠] فرفع الأول [أساطير] لأنهم أنكروا إنزال القرآن فعدلوا عن الجواب فقالوا: أساطير الأولين. والثاني من كلام المتّقين وهم مقرون بالوحي والإنزال فقالوا: خيراً ؛ والتقدير أنزل خيراً ، فهو مطابق للسائل. وإعراب [خيراً] قد يكون مفعولاً أو مقولاً للقول أو صفة مصدر محذوف ؛ أي قالوا قولاً خيراً.

ومن ذلك استطراد تاج القراء في بيان جواب [لولا] في آيتي النور ففي الأولى قال: ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم**﴾ [النور/١٠] وفي الثانية قال : ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم**﴾[٤] [النور / ٢٠] فجواب الأولى قوله : لفضحكم بهذه المعاصي، والثانية: لعّجل في العقوبة.

٣) ملاك التأويل : وقد اشتهر هو أيضاً بالعلوم اللغوية التي من أبرزها علم النحو، وتكمن الجوانب النحوية في ملاك التأويل في ما يأتي:-

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٥.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٥٠٧.

(٣) انظر البرهان ص ١١١ ، فقرة ٢٥٨.

(٤) انظر البرهان ص ١٣٩، فقرة ٣٣٦، ٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- رجوعه المتكّرر إلى كتاب سيبويه، وهو من أوائل ما صّنف العلماء في هـذا العلـم. وعلمنـا - فيما سبق- كيف أن ابن الزبير درس هذا الكتاب الأمر الذي جعله يتأثر به إلى حد بعيد. من ذلك مثـلاً ما نقله عنه من الشواهد الشعرية التي استدل بها على أن حذف المضاف يفيد المبالغة. وذلـك في معرض بيانه لآية آل عمران [١٣٣]: ﴿**وجّنة عرضهـا السـماوات والأرض**﴾[١] ؛ أي مثـل عـرض السـموات والأرض. فلمّا حـذف المضـاف المقـدّر [كعـرض] صـارت الجملـة مبتـدأ وخـبراً، [عرضهـا السـماوات والأرض] وذلك بقصد المبالغة. ويستدل على هذه المبالغة الناشئة عن حذف المضاف ببعض الأبيات عـن سيبويه -رحمه الله- كقول الشاعر :

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في بطن منحوت من الساجي[٢].

فجعل النهار في قيد وسلسلة، وإنّما المجعول هو الشخص الموصوف نهاره بذلك.

ومن ذلك ما أورده عن الكتاب في آية الأنعام [٢٥]: ﴿**ومنهم من يستمع إليـك وجعلنـا علـى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً**﴾[٣]، فبين أن صلة [من] غالباً ما يراد بها الجماعة، وقـد يـراد بها الواحد أو الأثنان. ثم يقول ابن الزبير :"وقد بوّب سيبويه -رحمه الله- على حال [مـن] في وقوعهـا على من ذكر. فقال في كتابه :"هذا باب إجرائهم صلة [من] وخبره إذا عنيـت اثنـين كصلـة [اللذيـن]، وإذا أريد الجماعة كصلة [الذين] ثم ذكر الآية: ﴿**ومنهم من يستمعون إليـك**﴾ [يونس/٤٢]، وأنشـد بيت الفرزدق :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من ياذئب يصطحبان[٤]

و لم يقتصر ابن الزبير على مراجعة كتاب سيبويه في فروع النحو فحسب، بل كان يرجع إليه في فروع لغوية أخرى، -على ما سيأتي بيانه في ما بعد- -إن شاء الله-.

ب- إعراب بعض المتشابهات، وقد كان يحدث من ابن الزبير مثل هذا تمهيداً لفهـم معـاني تلـك الآيات، ولا ريبَ أنه بذلك يجري على ما سلكه صاحب الدرّة في هذا الموضـوع حيـث تبيّـن كيـف أن معرفة الإعراب تعين على فهم المعنى المراد.

من ذلك ما أورده ابن الزبـير حـول الآيـات الثلاثـة : ﴿**وللـدارُ الآخـرة خـير للذيـن يتقـون**﴾ [الأنعام/٣٢] وجاء في يوسف [١٠٩] : ﴿**ولدارُ الآخرة خـير للذيـن اتقـوا أفـلا تعقلـون**﴾ وجـاء في الأعراف [١٦٩] : ﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقـون**﴾[٥]. نلحـظ أن ابـن الزبـير يمهّـد لتوجيـه هـذا

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٧٣، ١٧٤.

(٢) البيت أورده سيبويه بلا نسبة (انظر السيرافي، شرح أبيات سيبويه ١/٢٣٧، والكتاب لسيبويه ١/١٦٠ ، ١٦١).

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٣٠٤ - ٣١٠.

(٤) البيت للفرزدق، (انظر الكتاب ٢/٤١٦، ديوان الفرزدق ص ٦٢٨).

(٥) انظر ملاك التأويل ١/٣١٧ ، ٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التشابه بذكر الإعراب، فيبين أن [اللام] الواقعة قبل ذكر [الدار] في آية الأنعام هي الموطئة للقسم. وأنها لم توجد في آية الأعراف. ووقعت [الآخرة] في آيتي الأنعام والأعراف وصفاً للدار. أما في آية يوسف فجاءت على الإضافة [واللام] هي المؤكدة. ثم يبدأ ابن الزبير عادته ببيان مناسبة الوارد في كلّ سورة من هذه السور.

جـ- استطراد ابن الزبير في بيان بعض الفروع النحوية. من ذلك ما عقده من فصل في بيان جواز تعدّي الفعل إلى مضمر متّصل مثل [أرأيتكم] ؛ حيث بيّن أنه يجوز ذلك لأنها محمولة على الرؤية القلبية، وإنها من أفعال الظن[1].

ومن ذلك استطراده في بيان موقع [ما] في الآية الكريمة: ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾[2] [الزمر/٤٥] وغير ذلك من الفروع النحوية التي استطرد في بيانها.

أما قول ابن الزبير إن (اللام) التي في آية الأنعام هي الموطئة للقسم، فهو كلام غير صحيح، والحق أنها لام الابتداء الداخلة على المبتدأ، والمؤكدة له. ولا تدخل اللام الموطئة للقسم إلا حين تجر الاسم الذي بعدها وجاء ذكر الدار مرفوعاً هنا.

هذا ولقد توخّيت الاختصار في عرض النحو عند ابن الزبير لأن كثيراً من القضايا النحوية التي كان يعرضها قد سبقه اليها صاحب درة التنزيل.

ب) العلوم البلاغية في كتب المتشابه اللفظي:

عرضت كتب المتشابه اللفظي لذكر ضروب شتّى من البلاغة القرآنية، لاسيما وأنها تدرس النصوص القرآنية من حيث التطبيق. فنجد من هذه المتشابهات ما قدّم في موضع وأخر في آخر، وما عرّف في موضع ونكر في آخر، وما أكد في موضع وخلا من التأكيد في آخر، وهكذا. ولذا، فإنك ستجد تداخلاً واضحاً بين ما سأتناوله الآن من جهة، وما سيأتي بيانه في ما بعد من الحديث عن صور المتشابه اللفظي في القرآن الكريم من جهة ثانية. فبين الموضوعين عموم وخصوص من هذا الوجه، حيث إن الحديث عن صور المتشابه اللفظي في القرآن الكريم يشمل ما تحدثت عنه الكتب الثلاثة من الموضوعات البلاغية من حيث التطبيق على نصوص القرآن الكريم، وغير هذه الموضوعات كإبدال الكلمة بالكلمة أو الحرف بالحرف، -وسيأتي بيان ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى-.

وإليك الموضوعات البلاغية التي تحدثت عنها كتب المتشابه اللفظي وهي كما يلي :-

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٣٢٥.

(٢) انظر المرجع السابق ٢/٨٣٠ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١) التقديم والتأخير:

وقد تعرضت كتب المتشابه اللفظي للحديث عن هذا الموضوع من حيث النظرية والتطبيق. أما من حيث النظرية، فنلحظ أنهم كانوا يوردون بعض المواقف المقتضبة حول التقديم والتأخير في ثنايا شرحهم للأيات التي كانوا يتحدّثون عنها.

فعند الحديث عن التقديم والتأخير بين آيتي البقرة [٥٨] والأعراف [١٦١]: ﴿**وادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّة**﴾ وعكس ذلك في الأعراف تلحظ أن صاحب الدرة يعد ذلك من باب التخيير والتفنن في القول، فالأصل عنده حكاية المعنى[١].

أما ابن الزبير فيقول إنه قدّم في البقرة الأمر بالسجود لأنه سابق على ابتداء الدعاء ثم يتساوى المطلوبان. ثم يبيّن أن العرب إذا أخبرت عن شيئين عطفت أحدهما على الآخر بالواو؛ فإنها تبدأ بالأهم والأولى. ونقل عن سيبويه القول في أنهم يقدّمون ما هو أهم لهم وهم به أعنى [٢]. ثم يبدأ بالتمثيل لذلك من القرآن كقوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ [البقرة/٤٣] فقدّم الصلاة لأنها الأهم -على حد قوله-.

ومن الواضح أن الكتب الثلاثة سلكت المسلك نفسه من حيث التطبيق على بعض المتشابهات من تلك التي كان الاختلاف فيها راجعاً إلى التقديم والتأخير. فهم مجمعون على أن العرب تقدّم ما كان الإهتمام بشأنه أكثر، أو ما هو مشكوك به بالنسبة للمتكلم.

من ذلك ما عرضوه في آية البقرة [١٧٣]: ﴿**إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله**﴾ وفي مواضع ثلاثة أخرى من القرآن أخر الجار والمجرور فقال: ﴿**وما أهل لغير الله به**﴾[٣] [المائدة/٣، والأنعام/١٤٥، والنحل/١١٥]. ففي آية البقرة كان الاهتمام بشأن تحريم ما ذبح لغير الله. وفي الآيات الأخرى كان التركيز على الإهلال لغير الله تعريضاً بما كانت تصنعه العرب حينما كانت تتقرّب بشتّى القربات.

كما تجد تركيز ابن الزبير بشكل خاص على فكرة تقديم ما هو أهم في كثير من المواضع المتشابهة، وتجده يكرّر الاستشهاد ببيت الكتاب

لتقربنّ قرباً جلذياً ما دام فيهن فصيلٌ حيا[٤]

حيث يكرر الاستشهاد به على هذه القضية نحواً من ست مرات.

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٦ ، ١٧.

(٢) انظر ملاك التأويل ٦١/١ ، ٦٢، وكتاب سيبويه ٥٦/١.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٤٠، والبرهان ص ٣٤ ، فقرة ٣٣، وملاك التأويل ١٠٤/١.

(٤) خزانة الأدب ٩٥/٤ ، وانظر ملاك التأويل ١٠٦/١ ، ٥١٥/٢ ، ٥٨٠ ، ٦٣٠، ٧٣٢، ٧٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما من حيث التطبيق فلم تقتصر تعليلات الكتب الثلاثة على تقديم ما هو أهم، فقد راعوا أسباباً أخرى كان من أجلها التقديم في هذا الموطن والتأخير في الآخر. كأن يكون مثلاً لمراعاة المناسبة كما مرّ معنا في آيتي الأنعام [١٠٢] والمؤمن [٦٢] :﴿**ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء**﴾ ﴿**ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لااله الا هو**﴾[١].

وفي باب الدراسة التطبيقية سنلمّ بكثير من الأغراض التي كان من أجلها التقديم والتأخير، حيث لم تقتصر المسألة على تقدم الأهم وتأخير ما ليس كذلك، لأن هذا باب عظيم من أبواب البيان القرآني، وهو كثير الفوائد جمّ المحاسن -كما وصفه- شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله-[٢].

٢) أسلوب النداء:

وهو من أساليب الإنشاء الطلبي. ويتضح أن كتب المتشابه اللفظي تسلك أحياناً نهج المفسّرين والبلاغيّين فتذكر الفائدة من ذكر المنادى كما هو في قوله تعالى في سورة المائدة [٢٠] : ﴿**واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾[٣]، حيث يقولون إن المنادى ذكر في الآية إشارة إلى اعتناء موسى -عليه السلام- بالمخاطبين ومبالغة منه في تنبيههم.

٣) الجملة الاسمية والفعليّة :

جاء في كتب المتشابه اللفظي التفريق بين التعبيرين عندما يعّبر عن أحدهما بالإسمية وعن الآخر بالفعلية، ويكون بينهما تشابه في اللفظ.

ومن الواضح أن ابن الزبير كان أكثر بياناً في إيضاح الفرق بين الجملة الإسمية والفعلية، ولعلّ عذر الخطيب في ذلك أنه لم يكتمل على عهده القول بنظرية النظم التي جاء بها شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني، الأمر الذي جعل تعبيرات العلماء في ذلك العصر عن تلك القضايا -أعني قضايا النظم- تتسم بالفتور وعدم الاستقرار على رأي ثابت.

من ذلك ما أوردته الكتب الثلاثة في التفريق بين آيتي الأعراف [٦٢ ، ٦٨] حيث جاء على لسان نوح -عليه السلام- لقومه: ﴿**أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ وجاء على لسان هود -عليه السلام- لقومه : ﴿**أبلغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين**﴾.

يبيّن الخطيب أنه عبّر على لسان نوح بالجملة الفعلية لأنهم اتّهموه بالضلال، والضلال من صفات الفعل بينما جاء على لسان هود بالجملة الإسمية التي تقابل السفه، وهي من صفات الثبات[٤]. في

---

(١) انظر ما تقدم ص ٧٣

(٢) الجرجاني ،دلائل الاعجاز ، ص ٨٣.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٩٦، والبرهان ص ٥٤ ، فقرة ٨٨، وملاك التأويل ٢٥٠/١.

(٤) انظر درة التنزيل ص ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين يلجأ تاج القرّاء إلى تكلّف المناسبة بين الألفاظ في كل من التعبيرين[١].

أما ابن الزبير فيقرر أن الجمله الفعلية دالة على التكرار والاستمرار والتجدد: [وأنصح لكم] أما الاسمية فهي دالة على الثبات وملازمة الوصف وهذا في مقابل ما وسموه به من السفاهة[٢].

وهكذا نجد أن نظرية النظم كانت أكثر نضوجاً في ذهن ابن الزبير عما وجد عند صاحبيه. ولنتأكد من صحة ما تبين انظر لما قالوه حول آيتي هود [١١٧] والقصص [٥٩]: ﴿**وما كان ربك مهلك القرى بظلم**﴾ ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم**﴾[٣]، لا شك بأنك ستلاحظ أن ابن الزبير كان أسرع الثلاثة في إدراك الفرق بين الآيتين -وسيأتي بإذن الله-.

٤) البيان التصويري:

وهذا السبيل سلكه ابن الزبير في بيان بعض النظائر المتشابهة كآية الأعراف [١٢٤] التي جاءت من كلام فرعون: ﴿**لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثمّ لأصلّبنكم أجمعين**﴾[٤]. يبين ابن الزبير موقع [ثم] وأنها جاء التعبير بها في هذه الآية لبيان أمرين : أحدهما : التهويل في حال المعطوف وأنه لو جيء به وحده لكان كافياً -وهو الصلب- وذلك التهويل في مقابلة ما أحدثه السحرة من هول وتخويف حين استرهبوا الناس بسحرهم. وثانيهما : أن العطف بـ [ثمّ] يصوّر التعبير عن نفسية فرعون حين أراد أن ينتصر لنفسه، ويتخلّص ممّا لحق به من الهزيمة والخسران حين آمن السحرة برب العالمين فأراد أن لا يتأثر ملؤه بما تأثر به السحرة، فجاء بهذا الوعيد المهول على هذه الصورة.

ومن ذلك ما بيّنه ابن الزبير في آية الكهف [٩٧] في وصف السدّ :﴿**فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا**﴾[٥]. فجاء الفعل أولاً بالتخفيف ليتناسب مع الظهور على السدّ. وجاء ثقيلاً على الأصل ليتناسب مع نقب السدّ. ولاشكّ في أن عدم القدرة على نقب السدّ أشدّ من عدم الظهور عليه، فتناسب الأخف مع الأخف، والأثقل مع الأثقل.

٥) الإيجاز والإطناب :

وهذه الحقيقة -أعني فكرة الإيجاز والإطناب- استخدمتها كتب المتشابه كثيراً في حلّ بعض المتشابهات حيث يكون الكلام مطنباً به في موضع ومختصراً في آخر لتقدّم بيانه. ويمتاز الخطيب بأنه كان أكثر اعتدالاً في التعويل على هذه الفكرة في توجيه المتشابهات، فتجده يعتمد هذا الأسلوب ما بين آيتي الأنعام [٥] والشعراء [٦]: ﴿**فقد كذبوا بالحقّ لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾

---

(١) انظر البرهان، ص ٧٤ ، فقرة ١٣٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٤٠٠-٤٠٢.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٢٣١، والبرهان ص ٩٩، فقرة ٢١٩ ، وملاك التأويل ٢/٥٣٢.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٤٤٧.

(٥) انظر ملاك التأويل ٢/٦٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي آية الشعراء جعل التكذيب مطلقاً وعبر بالسين بدل سوف[١]، وعد الخطيب ذلك اختصاراً لتقدمه في الأنعام، حيث راعى البيان في الأنعام والاختصار في الشعراء.

أما ابن الزبير فمن الواضح أنه يبالغ كثيراً في الاعتماد على موضوع الإيجاز والإطناب في توجيه بعض المتشابهات. ففي حين يتّجه الخطيب -يتابعه تاج القرّاء- يتّجه إلى النظر في العلل النحوية والفروق بين الحروف والأسماء الموصولة، نلحظ أن ابن الزبير يوّجه تلك المواضع نفسها على الإجمال، معتمداً نظريته المعتادة وهي الإيجاز في موضع والإطناب في آخر.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكرتهُ الكتب الثلاثة في التفريق بين الآيات في سورة البقرة [١٢٠ ، ١٤٥] وسورة الرعد [٣٧] حيث قوله تعالى :﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من من الله من ولّي ولا نصير**﴾ وقال في ما بعد :﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾ ووردت آية أخرى في الرعد مشابهة للآيتين عبّر فيها بلفظ [ما] دون [الذي] وبحذف حرف الجّر [مِنْ][٢].

نلحظ أن الخطيب يفرّق بين هذه المواضع عن طريق ملاحظة الفروق بين الأسماء الموصولة؛ أعني [ما، والذي] المعبّر بها في هذه الآيات ويخرج بفرق دقيق في ما بينها، وهذه الدّقة تفوق ما عند ابن الزبير الذي يعتمد اعتماداً كلّياً على فكرة الإيجاز والإطناب، الأمر الذي يجعل أفكاره عرضة لشيء من السطحية وعدم العمق الفكري.

وهناك مواضع كثيرة جاءت من هذا القبيل يبرز من خلالها تفوّق صاحب الدرّة على ابن الزبير -وسيظهر ذلك بوضوح من خلال الدراسة التطبيقية- -إن شاء الله تعالى-.

٦) الحذف والذكر:

كان هذا الموضوع من الأسس العامة التي بنيت عليها صور المتشابه اللفظي في القرآن الكريم. فكثيراً ما تجد آيتين متشابهتين في اللفظ لكنّهما تختلفان من حيث الحذف والذكر، بحيث يوجد في الأولى ما لايوجد في الثانية. وهذا هو مسلك عام في الحذف والذكر، وهو ما عبّر عنه الزركشي بالنقص والزيادة[٣].

وهذا الموضوع متعلّق بالآيات القرآنية وهو أخص مما تعارف عليه البلاغيون من أقسام الحذف والذكر، فتلك مباحث عامّة تشمل القرآن وغيره من النصوص الأدبية[٤].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٠٧ ، ١٠٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٢٥، والبرهان ص ٣٠، فقرة ٢٤، وملاك التأويل ١/٨٥-٨٨.

(٣) الزركشي ، البرهان، انظر ١/١١٥.

(٤) انظر مثلاً كتاب البلاغة فنونها وأفنانها، وعلم المعاني، د. فضل عباس ١/٢٤٧ فما بعدها حيث يتحدث عن الحذف والذكر عند البلاغيين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا اعتمد فيه على تعليل الحذف والذكر في بعض المتشابهات مثل ما وقع بين آيتي هود [١٠] وفّصلت [٥٠] فقال في الأولى : ﴿**ولإن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولّن ذهب السيئات عنّي**﴾، وفي فصّلت: ﴿**ولإن أذقناه رحمة منّا من بعد ضراء مسته ليقولّن هذا لي**﴾[1]. تلاحظ أنهم يعلّلون حذف [مِنْ ،ومِنّا] في هود وذكرها في فصّلت، فيرى الخطيب أن الذكر في سورة فصّلت جاء لتقدم ذكر [مِنّا] في الآية السابقة: ﴿**ولإن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثمّ نزعناها منه إنه ليؤوس كفور**﴾ [هود/٩].

وذكرت [مِنْ] في فصّلت: [مِنْ بعد ضراء] لأنه لّما حدّ الرحمة فقال: [مِنّا] حدّ الطرف الذي بعدها ليتماثل المقترنان، ولّما لم يكن ذالِك في هود لم يحتج لذكر [مِنْ] في تلك السورة. ويرى ابن الزبير أنه قال [مِنّا] في فصّلت لتقدّم ذكر الشركاء.

٧) الالتفات :

وقد بينه ابن الزبير بأنه الانتقال من الغيبة الى الخطاب أو من الخطاب إلى الغيبة أو إلى التكلم. وذلك عند حديثه عن آية النحل [٧٢]: ﴿**وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون**﴾[2].

يبيّن ابن الزبير أن ما في هذه الآية : ﴿**أفبالباطل يؤمنون**﴾ انتقال إلى الحديث عن حال الكافرين الذين تقّدم ذكرهم في السياق القرآني: ﴿**ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى**﴾ [النحل/٦٢] فجاء ما في الآية الكريمة على طريق الإلتفات للكافرين الذين تقدّم ذكرهم وجاء بالضمير الغائب [هم] لتأكيد ذلك.

ويستطرد ابن الزبير بعد ذلك بالتدليل على ظاهرة الالتفات بما جاء من الشعر العربي والقرآن الكريم. كقوله تعالى : ﴿**هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف**﴾ [يونس/٢٢]. نلحظ كيف التفت من المخاطب [كنتم] إلى الغائب: ﴿**وجرين بهم بريح طيّبة**﴾ وتلك هي أمثلة عامة على الإلتفات تعارف عليها من كتبوا عن الإلتفات وهو كثير في القرآن الكريم.

ومن ذلك ما بينه تاج القراء من حكمة الالتفات الواقع في سورة الكهف في كلام العبد الصالح فحينما ذكر السفينة قال : ﴿**فأردت أن أعيبها**﴾ [الكهف/٧٩]، وحين ذكر قتل الغلام قال :﴿فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ [الكهف/٨١]، وحين ذكر بناء الجدار قال : ﴿**فأراد**

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٤٢١ ، وملاك التأويل ٥٠٩/٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ٦١٣/٢-٦١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربّك أن يبلغا أشدهما﴾ [الكهف/٨٢] [(١)]. فتلاحظ أنه ورد في المثالين الأولين بضمائر المتكلّم. وفي الآية الثالثة بضمير الغائب حيث يعلّل الكرماني سبب هذا الاختلاف.

٨) التعريف والتنكير :

لم تتحدث كتب المتشابه عن هذه الظاهرة البلاغية من الناحية النظرية، بل أوردت بعض الأمثلة التطبيقية، وذلك ممّا كان معرّفاً في موطن ومنكرّاً في آخر. من ذلك ما ورد من تعريف [الحقّ] في سورة البقرة [٦١] : ﴿**ويقتلون النبيين بغير الحق**﴾ وتنكيره في آل عمران [١١٢]: ﴿**ويقتلون الأنبياء بغير حقّ**﴾ حيث كانت كتب المتشابه اللفظي تتولى تعليل أسباب الاختلاف بين هذه الآيات. -وسيأتي تفصيل ذلك في ما بعد -بإذن الله-.

٩) التأكيد :

وهو أيضاً لم يعرضوا له من حيث النظرية سوى ما جاء في استطراد للخطيب -رحمه الله- حين ذكر فائدتين للتوكيد بضمير الفصل [هو] وذلك في قوله تعالى : ﴿**إن الله هو ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾ [الزخرف/٦٤][(٢)]. حيث يبين أن التأكيد بهو في مثل هذا الموضع يكون لأحد وجهين هما:

الأول : إما ان يريد أن المؤكد ثابت على الصفة التي جعلها خبراً عنه. لاعلى غيرها.

فإذا قيل : إن زيداً هو أخوك ؛ أي إنه صديقك لا عدوّك.

والثاني : وإما أن يريد أن صاحب هذه الصفة هو فلان لاغيره. فحين تقول : إن زيداً هو أخوك؛ أي إنه ليس عَمْراً.

أما من حيث التطبيق فكثيراً ما كانوا يوردون من المواطن المتشابهة ما أكد في موطن وخلا من التأكيد في آخر. كقوله تعالى في الكهف على لسان العبد الصالح لموسى -عليه السلام-:﴿**ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ [الكهف/٧٢] وفي الثانية بزيادة: ﴿**ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ [الكهف/٧٥] فتجد أن كتب المتشابه كانت تعلل أسباب هذا الاختلاف.

وهناك أغراض بلاغية أخرى يمكن أن تلمحها هنا وهناك، قامت كتب المتشابه بدراستها من ناحية التطبيق على النصوص القرآنية ويطول الحديث عن ذكرها. ومن الإشارات الأخرى التي تحدثوا عنها حديثهم عن الوصل والفصل بين بعض الجمل القرآنية، كما تحدثوا عن الإضراب ؛ (بل) وغير ذلك من الموضوعات المختلفة.

---

(١) انظر البرهان ص ١٢٣، فقرة ٢٨٩.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٦٨،٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآثرت أن أفصّل ذلك كلّه في فصل الدراسة التطبيقية حتّى أجنّب نفسي التكرار المخلّ بطبيعة هذه الدراسة.

وقبل أن أختتم الحديث عن البلاغة في كتب المتشابه اللفظي، أحببت أن أشير إلى ملاحظة هامة كانت كثيراً ما ترد على كتابات تاج القرّاء وابن الزبير في توجيه المتشابه حيث تجد أنهم يعتمدون القول بالبليغ والأبلغ بالنسبة لألفاظ القرآن الكريم.

فلا يمكن أن يكون لفظ من الألفاظ القرآنية أبلغ من أي لفظ آخر جاء في القرآن، وإنّما الكلمات والألفاظ جاءت كلّها على مستوى واحد من البلاغة دونما تفاوت في ما بينها.

وجاء كلٌ على ما يناسب السياق الذي ورد فيه.

ومن الأمثلة على وقوع هذه الظاهرة عند تاج القرّاء ما أورده من الاختلاف بين آيتي النمل [١٢] والقصص [٣٢]: ﴿**وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء**﴾ وفي القصص جاء بلفظ: ﴿**اسلك**﴾[١] تلاحظ أن تاج القرّاء يعدّ كلمة [أدخل] أبلغ من [اسلك].

ومن ذلك ما وقع عند ابن الزبير من أن [السفول] أبلغ من [الخسران][٢]، فهذا كلّه لايمكن التسليم به فكلّ ما جاء في القرآن إنّما جاء على الوجه الأتمّ والأكمل.

ج) حروف المعاني في كتب المتشابه اللفظي :والاسماء والفعول

من المعلوم أن حروف المعاني تمثّل القسم الثالث من أقسام الكلام، وذلك بعد الأسماء والأفعال. هذا وقد سمّاها البعض بالحروف المفردة[٣].

ويتبين -لأول وهلة- أن كتب المتشابه اللفظي أسهمت بنسبة كبيرة في خدمة معاني الحروف وبيان المراد بها، وذلك تمهيداً لتوجيه كثير من المتشابهات. فتلاحظ حديثهم عن الواو العاطفة، وأنواع الفاءات وأحرف الجرّ واللامات وغير ذلك ممّا سأحدثك عنه الآن. وأرى من الأفضل أن نتحدث عن هذا الموضوع -عند كلّ واحد من الكتب الثلاثة- على حدة، وذلك لندرك حجم الإضافة العلمية التي أضافها كلّ واحد من الثلاثة.

وذلك كما يلي:

١) الخطيب الإسكافي :

تحدّث عن الفرق بين [الواو] العاطفة و[الفاء] في أكثر من موطن من المواطن المتشابهة، وذلك تمهيداً لحلّ الاختلاف الواقع في ما بينها. ومن ذلك ما أورده في أوّل حديثه عن المتشابهات في سورة

---

(١) انظر البرهان ص ١٤٥، فقرة ٣٥٨.

(٢) انظر ملاك التأويل ٧٠١/٢.

(٣) ابن هشام، مغني اللبيب انظر ١٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البقرة، من التفريق بين العطف بالواو والعطف بالفاء. حيث يبيّن الخطيب أن العطف بالفاء إنما يكون عند وجود علاقة شرطيّة جزائية بين المعطوف والمعطوف عليه، فلا يتحقّق المعطوف إلاّ بحصول المعطوف عليه كقوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا**﴾ [البقرة/٥٨][١].

فالأكل مترتب على الدخول وجاء بمثابة الجزاء لذلك الشرط. وهذا لا يكون حين يعطف بالواو التي تفيد مطلق المغايرة.

ويمتاز الخطيب بعدم القول بالتناوب أو الزيادة في الحروف وهذا يميّزه عن صاحبيه، فتراه ينظر إلى أصل المعنى الذي استخدم له الحرف ثم يوّجه المتشابه بناء على ذلك المعنى للحرف. من ذلك ما أورده في التفريق بين الحرفين [إلى، وعلى] حيث يذكر أن [إلى] وضعت للمنتهى، أما [على] فوضعت في الأصل للفوقية أو وضع الشيء فوق الشيء وهي من العلوّ. ثم على ضوء ذلك يشرح موضع التشابه[٢].

وممّا يدلّ على عدم اعتماد الخطيب على ظاهرة تناوب الحروف تفريقه بين [السين ، وسوف] الواقعتين بين سورتي الأنعام [٥] والشعراء [٦] : ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾، ﴿**فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾[٣] حيث يعد الخطيب أن القول بعدم الفرق بينهما غير صحيح. ويظهر لي أنه يفرّق بينهما من حيث البيان والاختصار، حيث إنّ [سوف] أكثر بياناً وإطناباً، في حين أن [السين] للاختصار وكلا الحرفين يشتركان في إفادة معنى الاستقبال.

٢) الكرماني :

ويتأثر تاج القرّاء بالخطيب بالنسبة لنظرته لبعض الحروف، لكنّه يؤخذ عليه أمران هما:-

الأول: القول بالزيادة حيث يورد أقوالاً في زيادة بعض الحروف دون تعليق على ذلك . وذلكم هو مسلك كثير من اللغويين والمفسّرين. من ذلك ما أورده في سورة الأعراف من الأقوال في زيادة [لا]. وذلك في قوله تعالى : ﴿**ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك**﴾ [الأعراف/١٢][٤] ومثله ما أورده من الأقوال في [منكم] في آية النور [٥٥] : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم**﴾[٥] حيث يورد الأقوال بالزيادة دونما رد لها.

---

(١) انظر درّة التنزيل ص ١٠.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٣٥

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٠٨.

(٤) انظر البرهان ص ٦٨،٦٩ ، فقرة ١٢٠.

(٥) انظر البرهان ص ١٤١، فقرة ٣٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمر الثاني الذي يؤخذ على تاج القراء : قوله بالترادف والتناوب ما بين الحروف. من ذلك ما أورده في أول الرعد في التفريق بين [اللام، وإلى] حيث عدّهما واحداً بالنسبة للتعبير بهما عن الزمان. حيث يقول: "جرى ليوم، وإلى يوم كذا". ويعتمد على مناسبة الألفاظ للتوفيق بين الآيات دون النظر في المعاني الأصلية لكلا الحرفين[١].

٣) أما ابن الزبير :

فهو الآخر متأثر بالخطيب بالنسبة لبعض حروف المعاني كحروف العطف. ويمتاز منهجه في إيراد حروف المعاني بما يأتي:-

أ- تأثر ابن الزبير بمنهج الخطيب في شرح معاني بعض الحروف، وذلك تمهيداً لفهم المقصود بكل من النظائر المتشابهة. مثاله : تفريقه بين [الواو، والفاء] العاطفتين حيث بين أن [الفاء] للترتيب والتعقيب، أما [الواو] فهي لمطلق الجمع ولا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً[٢]. ولكن الذي يميّز عبارة ابن الزبير أنها كانت أكثر استقراراً، لاسيما وأنه قد أفاد من تجربة الخطيب من جهة، ومن جهة ثانية فإن الكلام عن حروف المعاني قد استقر القول فيه على عهد ابن الزبير أكثر من العصر الذي عاش فيه الخطيب، حيث ما زال التفتيق عن أكمام تلك المعاني قائماً على قدم وساق في تلك الآونة.

ب- استطراده في بيان معاني بعض الحروف دونما حاجة لها في توجيه المتشابه. فتراه يعقد فصلاً خاصاً لبيان المقصود من الحرف [أم]، حيث يبين أنها تأتي على وجهين:

الأول : أن تكون متصلة وهي [أم] الاستفهامية التي يذكر معها المعادل.

والثاني: أن تكون منقطعة عمّا قبلها بحيث يقصد بها الإضراب عمّا قبلها والاستفهام عمّا بعدها، كقولهم : إنها لإبل أم شاة[٣]. ومن الملاحظ أن ابن الزبير يذكر المعنيين ويقتصر عليهما بحيث لم يتحدث مثلاً عن [أم] التي للتعريف ولا عن [أم] الزائدة[٤].

جـ- حديث ابن الزبير عن الفروق بين معاني بعض الحروف. من ذلك حديثه عن الفرق بين [ألا وأن] المفتوحتي الهمزة والمخفّفتين، حيث يبين أن [أنْ] هي حرف تفسير وتقع بعد ما يراد من القول، كقوله تعالى: ﴿**وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم**﴾ [ص/٦] أما [ألا] المخففّة المفتوحة الهمزة فهي حرف استفتاح[٥].

---

(١) انظر البرهان ص ١٠٣، فقرة ٢٣٣.

(٢) انظر ملاك التأويل ٤١/١.

(٣) انظر المرجع السابق ١٢٣/١.

(٤) انظر ابن هشام، مغني اللبيب، ٤٧/١ فما بعدها.

(٥) انظر ملاك التأويل ٣٧١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك ما بيّنه من الفروق بين تراخي الزمان وتراخي الرتبة بعد حديثه عن الآية الأولى من النساء حيث استطرد في بيان ذلك[١].

د- كما يمتاز ابن الزبير بظاهرة التعليل البياني لبعض الحروف أثناء توجيه المتشابهات، من ذلك ما بينه في حرف الوعاء [في] -كما يسمّيه- وذلك عند قوله تعالى : ﴿**ويوم نبعث في كل امة شهيداً عليهم من أنفسهم**﴾ [النحل/٨٩][٢]. حيث يبين ابن الزبير أنه جاء بحرف الوعاء [في] لبيان مزيد من اللصوق والترابط بين شخصه -صلى الله عليه وسلم- وجسم هذه الأمة، فهو إلى جانب التعبير عنه بأنه من أنفس المؤمنين، ملتصق بهم فكأنه ساكن في داخلهم لشّدة هذا الإلتصاق وهذا الترابط بين الداعي والمدعّوين.

ومن ذلك ما تقدم بيانه في تصوير المعنى المراد بـ [ثم] في آية الأعراف -كما مرّ[٣].

هـ- القول بالزيادة : وهذا ممّا يؤخذ على ابن الزبير من ذلك ما بيّنه في آيتي النجم [٣٠] والقلم [٧]: ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله**﴾[٤] فذكر أن [الباء] زائدة للتأكيد.

و- قول ابن الزبير بالترادف أو التناوب ما بين الحروف فتجده مثلاً لا يفرّق بين التعبير بـ [إلى وعلى]، كما لايفرّق بين التعبير بـ [إلى واللام]، غير أنه يذكر أنه يجوز الوجهان في كلام العرب، دون أن يذكر فروقاً معنوية في هذا الشأن[٥].

وهكذا يتبين أن ابن الزبير يشبه تاج القراءّ وكثيراً من المفسرين من حيث القول بالزيادة والتناوب بين الحروف. وهذا لايمحو ما قدّمه الرجل من آثار طّيبة في خدمة معاني الحروف، وخصوصاً في ما تبين لك من المميّزات الأربع الأولى.

د) الأسماء الموصولة في كتب المتشابه اللفظي:

من الوسائل المهمّة التي اعتمدت عليها كتب المتشابه اللفظي في توجيه المتشابهات بيانهم للفروق بين الأسماء الموصولة المعّبر بها في الآيات المختلفة. فقد يوجد نظيران متشابهان في اللفظ، ولكن عبّر في أحدهما بالاسم الموصول [ما] ، وعن الآخر بـ [الذي]، فذلك هو موطن الاختلاف ممّا كانت هذه الكتب تعني ببيانه.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٨٨-١٩٠.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٢٢.

(٣) انظر ما تقدم بيانه ص [٦]ه

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٣٤٤.

(٥) انظر ملاك التأويل ٢/٨٢٤ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك ما أورده الخطيب في التفريق بين [ما ، والذي] الموصولتين وذلك في سورة البقرة حيث يفرق بين التعبيرين: ﴿**بعد الذي جاءك من العلم**﴾ [البقرة/١٢٠]، ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ [البقرة/١٤٥][١]. حيث يمهّد لبيان ذلك بذكر الفروق بين [ما والذي] وجعل ذلك من وجوه عدّة:-

١) أن [الذي] أكثر بياناً من [ما]؛ ذلك أن [الذي] تذكر أسماء الاشارة في ما قبلها، كما تذكر صلة الموصول في ما بعدها . كقوله تعالى : ﴿**أمن هذا الذي هو جند لكم**﴾ [الملك/٢٠]، ولايجوز أن تستخدم [ما] بدل الذي في هذا الموضع. ولايكون هذا في [ما] لأنه لايوصف بالذي.

٢) أن [ما] تذكر بعدما يكون من الصفة المبيّنة لها وليس ذلك في [الذي]. حيث من المعلوم أن [ما] من النكرات المبهمة التي يلزمها البيان.

٣) أن [الذي] تثنى وتجمع وتؤنث بخلاف [ما] التي ليس لها شيء من ذلك كلّه.

٤) أن [الذي] تلحقها [أل] التعريف بخلاف [ما] غير المعرّفة. وبناء على ما تمهّد من هذه الوجوه يمضي الخطيب -رحمه الله- في التفريق بين الآيات.

أما ابن الزبير فهو أكثر إيجازاً من الخطيب في التفريق بين [ما والذي]، فيعدّ أن [الذي] أكثر عراقة في الموصولية من [ما] التي هي أكثر افادة للإطلاق والعموم؛ أعني [ما] حيث يمكن أن يشاركها معانٍ أخرى غير الموصولية كالتعجّب والاستفهام والشرط، الأمر الذي يزيد في إبهامها. أما [الذي] فهي ألصق من [ما] بالتعريف فلا تكون إلا اسماً معرفاً. وفي هذا الصدد يفرّق ابن الزبير بين الموصولين [مَنْ، والذي] حيث يبين أن [مَنْ] تذكر عندما يراد الاستغراق فهي أكثر ابهاماً من [الذي]. كقوله تعالى : ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزيّنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ [النحل/٩٧][٢]. فذكرت [مَنْ] تناسباً مع [مِنْ] الاستغراقية: ﴿**من ذكر أو أنثى**﴾ وتناسباً مع ما ذكر حيث عبّر بما الموصولية المبهمة في آخر الآية: ﴿**بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ فـ [من] مثل [مَا] من حيث الإبهام. و[الذي] مختصة بالتعريف فقط.

ويستدرك ابن الزبير على ما قرّره من قبل، قائلاً بأنه قد يفهم معنى الشرط من [الذي]، كأن تقول : الذي يأتيني فله درهم. ويجيب عن ذلك بأن مثل هذا التركيب جاء على شروط معلومة ولاتكون الذي إلا للتعريف كما قرر من قبل[٣].

وهكذا تلاحظ أن الخطيب كان أكثر تجرّداً وموضوعية في التفريق بين [ما،والذي]، الأمر الذي يمكننا من خلاله حمل كلامه على جميع الآيات القرآنية التي ترد فيها مثل هذه الأسماء الموصولة ؛ أعني [ما، والذي]. أما ابن الزبير فكان أكثر ايجازاً من جهة، وقد حصر التفريق بين [ما، والذي] على الآيات

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٢٥.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٢٦-٦٢٨.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٦٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواقعة بين النحل والزمر، حيث كان يفرّق بين الأسماء الموصولة من خلال تحليله لتلك الآيات بخلاف ما كان عند الخطيب هذا ومن الملاحظ أن الإضافة التي أضافها ابن الزبير هي التفريق بين [ما والذي] من حيث العموم والإطلاق والابهام في [ما ومَنْ] كذلك الموصوليّتين أكثر من [الذي].

تفريق الكتب الثلاثة بين [ما ومَن]:

لم تجزم الكتب الثلاثة بفرق واضح بين [ما، ومن] الموصوليّتين. وتلاحظ أنهم اعتمدوا على السياق في التفريق بينهما. ففي الآيات [٥٥،٦٦] الواقعة في سورة يونس: ﴿**ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض**﴾، ﴿**ألا إنّ لله من في السماوات ومن في الأرض**﴾[١] تلاحظ أن الكتب الثلاثة تبيّن أنه ذكرت [مَنْ] دون [ما] في الموضع الثاني لأنها في سياق مواساته -عليه السلام- بمَن في السموات ومنَ في الأرض من جنود الله من الملائكة والمؤمنين. أما ورود [ما] فهو شامل لكلّ ما على الأرض من الموجودات.

كما نلحظ أن تاج القراءّ يركّز على الفكرة نفسها، فعند حديثه عن آية الرعد [١٥]: ﴿**ولله يسجد مَنْ في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾[٢] يبيّن الفرق بين [ما، ومَنْ] دون أن يشير اليه صراحة. وهذا الفرق هو ما استقرّ عليه رأي المحققين في اللغة، مِنْ أن [ما] تستخدم لعموم المخلوقات من العقلاء وغيرهم، وأن [مَنْ] للعقلاء كالإنس مثلاً[٣].

تصرف الخطيب في معاني الأسماء الموصولة لنصرة ما يتبناه من الآراء:

لم ألحظ ذلك على الخطيب إلا مرة واحدة وذلك في الآيات في سورة المائدة [٤٤، ٤٥، ٤٧]: ﴿**ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله إولئك هم الكافرون**﴾ ثم قال : ﴿**الظالمون، والفاسقون**﴾[٤]. تلاحظ أن الخطيب يعدّ معنى المجازاة والشرط في [من] الثالثة؛ أعني المقترنة بالفسق. أما الآيتان الأوليان فيعدّ أن [مَنْ] بمعنى [الذي] وليس فيها المجازاة وأنها نازلة في اليهود. ولا ريب أن هذا غلو في إبطال غلّو الخوارج الذين كانوا يتشّددون بالاستدلال بهذه الآية. والتحقيق أن [مَنْ] هنا اسم موصول، وقد ضّمنت معنى الشرط والمجازاة في الآيات الثلاث[٥].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٢١٢. والبرهان ص ٩٣. الفقرات ١٩٣-١٩٥، وملاك التأويل ٤٨٩/١-٤٩٢.

(٢) انظر البرهان ص ١٠٤، فقرة ٢٣٦.

(٣) انظر مثلاً الزمخشري، الكشاف ٢٤٤/٢.

(٤) انظر درة التنزيل ص ٩٩.

(٥) الشيخ محمد الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه، انظر ٢٩٣/٣، حيث يذكر أن [مَنْ] في هذه الآيات اسم موصول يفهم منه الشرط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ) الاستشهاد بالشعر والأمثال العربية في كتب المشتابه اللفظي:

أكثرت كتب المتشابه اللفظي من الاستشهاد بالأبيات الشعرية، ولقد كان كتاب ابن الزبير أكثرها اعتماداً على الشواهد الشعرية، وسبب ذلك يرجع إلى أنه كان أكبر هذه الكتب من جهة، وحتّى يتناسب إيراد هذه الأبيات مع أفكاره الاستطرادية من جهة أخرى.

ولقد كان الاستشهاد بالشعر في كتب المتشابه يسير في مسالك متعددة نجملها كالأتي:-

١- الاستشهاد بالشعر على معانٍ بلاغية. وهذا وجد عند ابن الزبير بإسهاب. من ذلك ما استشهد به على التشبيه الواقع في آية البقرة [١٧١] : ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع الا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم لايعقلون**﴾[١]. فالمشبّه هو حال الكافرين في خطاب الرسل إيّاهم بحيث لايسمعون منهم إلا الصوت دون أن يعقلوا المراد بالمواعظ التي يطلقها الرسل. والمشبّه به هو حال الغنم حيث يدعوها الراعي فلا تسمع منه الا صوت الدعاء والنداء دون أن تعقل معنى ذلك الصوت. ثمّ يورد ابن الزبير اعتراضاً على ما تقدم قائلاً : "إن ظاهر سياق الكلام في آية البقرة تشبيه الكفّار بالناعق بالغنم لا بالغنم، فكيف يرجع تقدير الآية الى ماذكرت؟". ويجيب عن ذلك بأن إيجاز الكلام يقتضي حذف ما يفهم السياق اختصاراً، فالتقدير في الآية ما ذكرت من الإشارة الى التشبيه بالطرفين. ويستدل على هذا الإيجاز في التشبيه بالبيت القائل:

وانّي ليعروني لذكرك فترة كما انتفض العصفور بلّله القطر[٢].

فشبه ما يعروه من الفترة بانتفاض العصفور. وليس المراد هذا الظاهر من الكلام إنما المراد أكثر من هذا الإيجاز، المراد اذن تشبيه ما يعروه بما يعرو العصفور بعدما يدركه بلل المطر، وأنه ينتفض عندما يدركه ذلك القطر كما ينتفض العصفور، فحذف في كلّ من الطرفين ما أثبت نظيره. فالتقدير في البيت إنّي ليعروني لذكرك فترة فأنتفض كما يعرو العصفور فترة فينتفض، فشبّه ما يعروه بما يعرو العصفور والانتفاض بالانتفاض. ويستشهد بكلام سيبوية في هذه الآية حيث قوله بأنهم لم يشبّهوا بما ينعق وإنّما شبّهوا بالمنعوق به وإنما المعنى: مثلك ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع ولكنه جاء على ضرب من الإيجاز في الآية[٣].

٢- الاستشهاد بالشعر على مسائل نحوية، ومثل هذا كان عند الخطيب مثاله: ما وقع في الآية الكريمة : ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ [المائدة/٩].

فجملة [لهم مغفرة] في موقع المفرد المنصوب ويشبه هذا ما جاء من قول الشاعر :

---

(١) انظر ملاك التأويل ٣٥/١.

(٢) البيت مذكور في خزانة الأدب (٥٥٢/١، والبيت لابي صخر الهذلي).

(٣) انظر ملاك التأويل ٣٦/١ ، وكتاب سيبويه ٢١٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدنا الصالحين لهم جزاء وجنات وعيناً سلسبيلاً[١]

ولقد مرّ بنا استشهاد ابن الزبير ببيت الفرزدق على جواز التعبير بـ [مَن] الموصولة عن المثنى: (نكن مثل من يا ذيب يصطحبان)[٢].

٣- الاستشهاد بالشعر على توضيح بعض الحقائق اللغوية. من ذلك ما تجده عند الخطيب وهو يبيّن أن ما بعد [ما] الموصولة يكون صفة مبيّنة لها ويستشهد على ذلك بالبيت :

ربما تكره النفوس من الامر فرجة كحلّ العقال[٣].

ومن ذلك استشهاد ابن الزبير على التراخي في الرتبة والمنزلة ببيت الكشاف :

ألا يا اسلمي ثم أسلمي ثم أسلمي[٤].

٤- الاستشهاد بالشعر على تكرير بعض الألفاظ المتشابهة، مما كرّر في أواخر القرآن من الألفاظ الواقعة في قصار السور كتكرار لفظ [البلد] في سورة البلد. ومثله تكرير [الميزان]. ومن الأبيات التي استشهدوا بها على توضيح هذه الحقيقة قول الشاعر:

لاأرى الموت يسبق الموت شيئاً نغص الموت ذا الغنى والفقيرا[٥].

فهو يدل على جواز التكرار في اللغة إنْ كان المكّرر يختلف عن الاسم الأول الذي تم تكريره من حيث المعنى، أو يكون بمثابة الخيال له كما قال صاحب الدرّة.

أما ابن الزبير فتجده يعقد موازنة أدبية بين النص الشعري المتقدّم والآيتين الأوليين من سورة البلد[٦]. وذلك ليثبت أنَّ النص القرآني أجلّ في البلاغة وأرفع في قدر الفصاحة.

أما النصّ الأدبي [لا لأرى الموت يسبق الموت شيئا] فجاء على الفصيح من كلام العرب ذلك أنه كرّر هذا اللفظ في صدر هذا البيت لتهويل أمر الموت، والأصل أن يأتي به مضمراً لكنه أظهره تهويلاً لأمره. أما ما وقع في الشطر الثاني للبيت [نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيراً] فهو تكرير أعلى في الفصاحة من التكرير الذي حدث في صدر البيت، ذلك أن التكرير الذي جاء في العجز كان في جملة ثانية على جملة الصدر. والتكرير في جملتين أفصح من التكرير الواقع في جملة واحدة كما في صدر البيت.

أما تكرير لفظ [البلد] فهو أرفع قدراً وذلك من ثلاثة وجوه هي :-

أ- أن هذا التكرير جاء لتعظيم شأن البلد الحرام وهو مكة -شرفها الله-.

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٨٩.

(٢) انظر ما تقدم بيانه ص٣٦ .

(٣) انظر درة التنزيل ص ٢٥.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/١٩٠، والبيت في ديوان حميد بن ثور ص ١٣٣.

(٥) انظر درة التنزيل ص ٥٠٨، والبيت في الكتاب ١/٣٠.

(٦) انظر ملاك التأويل ٢/٩٥٠-٩٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- أن هذا التكرير جاء في جملتين منفصلتين بحيث يكون أكثر فصاحة ممّا لو كان في جملة واحدة، فالأولى :﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ والثانية : ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾.

جـ- أنه وقع الاعتراض بجملة أجنبية بين اللفظين المكرّرين [البلد] الأول والثاني. فكأنه قال أقسم بهذا البلد العظيم؛ الذي هو محلّل لك دون غيرك فسيقت هذه الجملة من باب الاعتراض وهي ليست من المقسم به في شيء.

ومن ذلك أيضاً استشهاد ابن الزبير على تكرير لفظ [الميزان] في سورة الرحمن [٧-٩] بالبيت :

وإنَّ صخراً لحامينا وسيّدنا وإنَّ صخراً إذا نشتوا لمنحار[١].

وهكذا يتضح أن ابن الزبير يكثر من الشواهد الشعرية استدلالاً على مثل هذه الحقائق. وهو في ما بينه من الموازنة الأدبية بين النص القرآني من سورة البلد والنص الأدبي يحاكي ما كان يعقده أبو بكر الباقّلاني -رحمه الله- في كتاب اعجاز القرآن[٢].

٥- الاستشهاد بالشعر على بيان معاني بعض الكلمات:

من ذلك ما وقع عند الخطيب في بيانه لمعنى [اللهو] حيث يبيّن أن هذا المسمّى اذا أطلق فإنه يدل على اجتلاب المسرّة بمخالطة النساء. ويستشهد على ذلك ببيت امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لايحسن اللهو أمثالي[٣].

٦- الاستشهاد بالشعر على تعدّد اللغات :

من ذلك ما وقع في ملاك التأويل من أن اللغة الشهيرة تثنية [الرسول] وجمعه. وهناك لغة أخرى يطلق فيها [الرسول] على الواحد والجمع والمؤنث والمذكر ويستشهد على ذلك بالبيت القائل :

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر[٤].

وهكذا يتبين أن استشهاد كتب المتشابه اللفظي بالشعر كان متوسطاً ما بين الضرورة والاستطراد دونما ضرورة. ولقد رأينا كيف أن الشواهد الشعرية كانت وسائل هامة في توضيح فكرة التكرار في بعض المتشابهات وكيف أدت وظائف لغوية مختلفة في خدمة الآيات المتشابهات.

كما يلاحظ أن تاج القرّاء لم يقع عنده شيء من الاستشهاد بالشعر سوى ما تابع عليه الخطيب في بعض الأبيات. وقد كان يستطرد في ذكر بعض الأبيات الشعرية دونما حاجة لها في توجيه المتشابهات

---

(١) انظر ملاك التأويل ٨٨٢/٢، والبيت مذكور في شرح ديوان الخنساء ص ٩٠.

(٢) أبو بكر الباقلاّني ، اعجاز القرآن - انظر مثلاً من الموازنات التي عقدها بين القرآن والشعر ص ١٩٧ فما بعدها.

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٢٣، والبيت في ديوان امرء القيس ص ١٤٠.

(٤) انظر ملاك التأويل ٦٨٢/٢، والبيت في ديوان الهذليين ١٤٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لامن قريب ولامن بعيد كالذي وقع عنده في أوائل سورتي مريم والنور وهو يشرح ما ورد فيهما من المتشابهات[١].

استشهاد كتب المتشابه اللفظي بما جاء من أقوال العرب :

لم تكن مسألة الاستشهاد بالأمثال العربية أمراً ذا بال عند أصحاب كتب المتشابه الثلاثة، لكنّني أحببت أن أردفها لموضوع الشواهد الشعرية في كتب المتشابه لكون كل من الموضوعين من كلام العرب وآدابها.

هذا والظاهر أن استشهادهم بالأمثال العربية كان يأتي على الندرة لتوضيح بعض المعاني وتجلية بعض المفاهيم. من ذلك ما وقع عند الخطيب في آية النحل [٦١] : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**﴾ [٢]، فأضمر ذكر [الأرض] من باب الإيجاز للعلم بها وقد استعملت العرب ذلك في كلامها فقالت: ليس عليها أصدق من فلان ؛ أي على الأرض ، وليس تحتها أكذب من فلان؛ أي السماء.

ومن ذلك ما ذكره تاج القرّاء في آية السجدة مستدلاً على طول أيام الشدة وقصر أيام السرور بقول القائل سَنة الوصل سِنة، وسِنة الهجر سَنة[٣]. ومعناه أن وصل السعادة يأتي على عجل بالمباغتة. بينما ضروب الشدة وأيامها تطول كأنها سنين.

ومن ذلك ما وقع عند ابن الزبير وهو يستدل على قضية الحذف في كلام العرب وأنه أمر شائع في كلامهم. وفي هذا الصدد ينقل عن سيبويه قولهم : اللهم ضبعاً وذئباً. وهذا اذا كانوا يدعون على غنم رجل بالهلاك. فإذا ما سألتهم ما تعنون؟ قالوا : اللهم اجمع ضبعاً وذئباً[٤].

و) شرح المفردات اللغوية في كتب المتشابه اللفظي :

قامت كتب المتشابه اللفظي بشرح وتفسير بعض المفردات اللغوية وقد بيّنوا نوعين من الألفاظ هما:-

الأول : ما يلزم في توجيه الآيات المتشابهة. كالطامّة والصاخّة. وسجّين وعلّيين.

والثاني : ما لا لزوم له في توجيه المتشابه وإنما ذكر استطراداً كتفسير [الكبت] في المجادلة وأصل الاسم [ثمود] وغير ذلك على ما سيأتي بيانه بعد قليل.

واليك الآن بعض الأمثلة في شرح الكتب الثلاثة للمفردات اللغوية وذلك كما يأتي:-

---

(١) انظر البرهان ص ١٢٥، فقرة ٢٩٢ =، وص ١٣٩، ١٤٠، فقرة ٣٣٧، ومن الأمثلة على متابعة الخطيب في إيراد الشواهد الشعرية انظر مثلا البرهان ص ٥٢، فقرة ٨٣، والدرة ص ٨٩ ، ٩٠.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٢٦٥.

(٣) انظر البرهان ص ١٥٩، فقرة ٣٩٦. والمقصود بآية السجدة هي الآية [٥] : (ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون).

(٤) انظر ملاك التأويل ٦٤٢/٢ ، وكتاب سيبويه ٢٥٥/١، ٢٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- أما الخطيب فقد تناول تفسير بعض الكلمات. ومن الملاحظ عليه أنه يغير عادته فيذكر مصادره بعض الشيء في هذه المرّة. فنجده مثلاً ينقل رأي كتاب العين[١] في معنى [اللهو] في سورة الأنعام، حيث يبّين أنه كلّ ما يشغلك من هوى أو طرب[٢].

ومن ذلك نقله عن أبي عبيدة في معنى [سحّين] أنها شديدة. ويذكر أقوالاً أخرى في تفسير ذلك المعنى. كما ينقل أقوالاً مختلفة في معنى [علّيين] بأنها المراتب العالية وأقوال أخرى ناقلاً عن الزجّاج في هذا الشأن[٣].

ومن ذلك تفسيره للمقصود بكلّ من [الطامّة والصاخّة][٤] وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في الدراسة التطبيقية على المتشابه اللفظي.

٢- أما تاج القرّاء فيسلك مسلك الخطيب في توضيح بعض معاني المتشابهات إسهاماً منه في توجيهها ومعرفة الفروق في ما بينها. ومن ذلك ما نقلة في التفريق بين [التبديل والتحويل] حيث يبيّن أن [التبديل] هو تغيير الشيء عمّا كان عليه قبل مع بقاء مادة الأصل، كما في قوله تعالى : ﴿**بدّلناهم جلوداً غيرها**﴾[٥] [النساء / ٥٦]. و[التحويل] نقل الشيء من مكان

إلى مكان آخر. ومن ذلك تفسيره لأصل [الثمد] بأنه الماء القليل[٦].

٣- وكذلك الحال بالنسبة لابن الزبير فقد فسّر كثيراً من المفردات، كتفسيره [الفسق] بأنه الخروج في أصل معناه[٧] ومن ذلك بيانه معنى [الخلق والجعل] في أول النساء[٨].

وأحياناً تجد ابن الزبير يعتمد مصادر أخرى في شرح بعض الكلمات وقد مرّ بك كيف استشهد بكلام ابن عطّية في تفسير معنى التأوّه[٩]. ومن ذلك ما نقله عن سيبويه أن من أقسام الجعل ما كان بمعنى التصيير كقولهم : جعلت الطين خزفاً[١٠].

وهكذا تلاحظ أن جانب المفردات اللغوية كان مرتكزاً هاماً لا غنى عنه في توضيح وتوجيه بعض المتشابهات.

---

(١) كتاب العين هو للخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وأحد أئمة الأدب ت ١٧٠هـ. (السير ٤٢٩/٧، برقم ١٣١).

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٢١.

(٣) انظر المرجع السابق ص ٥٢٥، ٥٢٦ والزجّاج معاني القرآن واعرابه ٢٩٩/٥.

(٤) انظر درة التنزيل ص ٥١٨.

(٥) انظر البرهان ص ١٦٥، فقرة ٤٢٠.

(٦) انظر المرجع السابق ص ٩٩، فقرة ٣١٨.

(٧) انظر ملاك التأويل ٤٥٩/١.

(٨) انظر المرجع السابق ١٨٥/١ ، وقد تقدم تفصيل هذا من قبل.

(٩) انظر ما تقدم في هذه الدراسة ص [illegible] .

(١٠) انظر ملاك التأويل ٥٣٧/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثامن : العلوم الأخرى في كتب المتشابه اللفظي

علمت في ما سبق كيف أن كتب المتشابه اللفظي قد جمعت مادتها العلمية من مصادر مختلفة، ممثّلاً ذلك بشتى العلوم النقلية والعقلية.

فمن النقل رأينا جوانب اعتمادها على القرآن والسنة، والمأثور من التفسير. ومن العلوم العقلية رأينا كيف استندوا لآراء المفسرين وفهم سياق القرآن الكريم، بالإضافة إلى ما وظّفوه من علوم القرآن واللغة في فهم المتشابهات وتوجيهها.

ومما يبرز في هذه المرحلة -وبعد كلّ ما تقدّم- نجد أن كتب المتشابه اللفظي لم تكتف بهذه العلوم التي تم الحديث عنها، وإنما استطردوا في ذكر علوم أخرى كانت تقدّم بعض الخدمات اليسيرة في توجيه المتشابهات. ومن الملاحظ أن هذه العلوم كانوا يستطردون في بيانها على الأغلب، وتدرك أن ابن الزبير كان أكثر المتوسعين في هذا المجال.

وهذه العلوم التي عرضوا لها هي علم اصول الفقه، وعلم الكلام، وعلوم العقيدة الأخرى، والتفسير الموضوعي، والقصص القرآني، وغير ذلك من هذه الموضوعات، وإليك الحديث عن كلّ موضوع من هذه الموضوعات بشكل موجز يتناسب مع حجم هذه الدراسة -ان شاء الله-.

أ) علم أصول الفقه:

انفرد ابن الزبير -دون صاحبيه- بالاستطراد في ذكر بعض الموضوعات الأصولية، وذلك امتداد طبيعّي لخبرته بعلم أصول الفقه، ولقد علمنا في ما سبق أن من مؤلفات ابن الزبير شرح الإشارة للباجي في الأصول[١].

فمن الإشارات الأصولية عند ابن الزبير ما ارتكز عليه في توجيه ما تكّرر من آيات القبلة حيث قوله تعالى: ﴿**فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ [البقرة/١٤٤] وقوله في ما بعد في آيتين متعاقبتين :﴿**ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾.[البقرة/١٤٩، ١٥٠][٢]. حيث يبّين ابن الزبير أن كلّ حكم تكليفي يريد الله الاعتناء به فإنّه يؤكده من جميع الاحتمالات التي قد تقدح في شرعيّة ذلك الحكم، فيسدّ بذلك جميع الاعتراضات التي قد ترد عليه في ما لو كان مطلقاً.

ويضرب ابن الزبير لمثل هذه الأحكام التكليفية بحكم الصيام حيث حده الله تعالى من جوانبه المختلفة، فبيّن مقداره وأحكامه للمريض والمسافر، وأموراً متعدّدة أخرى يمكن أن تخلّص هذا الحكم

---

(١) الباجي هو العلامة الحافظ القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد صاحب التصانيف، كان بالمّرية ت ٤٩٤ هـ. (السير ١٨/٥٣٥، برقم ٢٧٤).

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٩٦-١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التكليفي من احتمالات الإطلاق والعموم. وكلّ ذلك إنما جاء تخليصاً لهذه الأمة من الحرج والإصر الذي وضع على بني إسرائيل، فكثر الخلاف في ما بينهم، ويمثل على ذلك اختلافهم الواقع في نوع البقرة التي أمروا بذبحها.

ومن هذا التمهيد ينطلق ابن الزبير في توجيه آيات القبلة مبيّناً أن قوله تعالى في المرة الأولى : ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ إنما هو خاص به -صلى الله عليه وسلم. وأن قوله في ما بعد : ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ هو عام للمسلمين.

ثمّ يورد ابن الزبير اعتراضاً على ما تقدّم قائلاً ما معناه : فإن قلت إن خطاب النبي إنما هو خطاب لأمته والحكم على الواحد حكم على الجماعة، فما دليل التخصيص به -صلى الله عليه وسلم؟ يجيب ابن الزبير علن ذلك قائلاً إن الآية :﴿**فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ يحتمل أن تكون خاصة أو عامة، وإنما ذكرنا التخصيص فيها قطعاً لذوي الزيغ والضلالات من أهل الإرتياب، فهذا الكلام إنما هو موجه لهم وليس للذين يسلّمون لنصوص الكتاب والسنة.

وهكذا تلاحظ أن ابن الزبير يفيد من خبرته بعلم الأصول في التمهيد لتوجيه بعض المتشابهات. وهكذا يبّين الجوانب المعنوية الأخرى الكامنة وراء التكرار الحاصل في آيات القبلة، وسيأتي بيان ذلك مفصّلاً في الدراسة التطبيقية.

ومن ذلك ما بيّنه مِنْ قوّة المفهوم المسمى بدليل الخطاب وذلك في آيةّ البقرة [١٧٣]: ﴿**وما أهل به لغير الله**﴾ [١] حيث يبّين أن الاهتمام إنما جاء بالضمير المجرور [به] وجاء معبّراً عنه كسائر صنوف المحرّمات بأداة الحصر [إنما] في الآية نفسها : ﴿**إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله**﴾ فهذا الحصر يؤكد قوّة هذا المعنى. ويستطرد ابن الزبير قائلاً بأن قوة الحصر في الحديث : (إنما الولاء لمن اعتق) تكون أقوى من الحصر في قوله -عليه السلام-: (فيما سقت السماء العشر)[٢].

ومن ذلك ما بيّنه من العموم في آيات الحكم في سورة المائدة [٤٤،٤٥،٤٧] : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ ثم وسمهم بالظلم والفسق في آيات لاحقة[٣]، حيث يبّين ابن الزبير أن هذه الآيات وإن نزلت على سبب خاص وهو فعل اليهود في إنكار الرجم، فلا يمنع ذلك من

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٠٧.

(٢) الحديث الأول رواه البخاري في صحيحه برقم ٤٥٦، ، (انظر الفتح ١/٥٥)، ومسلم في صحيحه برقم ١٥٠٥، (٢/١١٤٥ واللفظ له) والحديث الثاني رواه أحمد في سننه ١/١٤٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٩٢٩ وابن خزيمة في صحيحه ٤/٣٧، برقم ٢١٠٧، وقال محققه اسناده صحيح.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٢٦٦ ، ٢٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمومها لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومن جهة ثانية يدفع غلو الخوارج في استدلالهم بعموم هذه الآيات على تكفير مرتكب الكبيرة.

وأحياناً تجد ابن الزبير يعتمد فكرة العموم والخصوص في توجيه بعض المتشابه بحيث يكون بعض النظائر المتشابهة عاماً والبعض الآخر خاصاً بفريق من الناس، من ذلك ما وقع من الإختلاف بين آية النحل [٥٥] والعنكبوت [٦٦] والروم [٣٤] حيث قال في الأولى والثالثة : ﴿**ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون**﴾، وفي العنكبوت ﴿**ليكفروا بما آتيناهم وليتمتّعوا فسوف يعلمون**﴾ [(١)]. حيث يبّين أن آية العنكبوت جاءت خاصة في بيان حال من ركبوا في الفلك، أما آيتي النحل والروم فجاءتا عامّتين في بيان أحوال الناس وإن كان فيهما التفصيل لحال الفريق المعرض، وإنما جاء الوعيد عامّاً.

وهكذا يتبين أن ابن الزبير قد أفاد من خبرته الأصولية في توجيه كثير من المتشابهات وهناك أمثلة أخرى يمكن أن تدركها في ملاك التأويل لاتتسع مساحة هذه الدراسة لبيانها.

ب) علم الكلام:

وهو العلم الذي بمعرفته يتم الدفاع عن العقيدة بالنظر والاستدلال العقلي. و لم يقع في كتب المتشابه اللفظي سوى إشارات يسيرة، من ذلك استطرد الخطيب في بيانه، فأحياناً كنت أجده يعرض لبعض المسائل الكلامية دون توسع مسمّياً أصحابها بأهل النظر.

ومن ذلك ما أورده الخطيب في تصديه لرأي بعض أهل النظر الذين جعلوا الأفعال منها ما هو لله ومنها ما هو للعبد. ففي قوله تعالى على لسان المسيح -عليه السلام- : ﴿**أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرء الأكمة والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم**﴾ [آل عمران/٤٩][(٢)]. ينقل الخطيب رأياً يقول إنه لم يقل [بإذن الله] تفريقاً منه بين فعل الله وفعل نبيّه عيسى -عليه السلام-. فخلق الطير من الطين وإبراء الأكمة والأبرص والإنباء بالمدّخر في البيوت إنما هي من أفعال عيسى، وما عدا ذلك ممّا ذكرته الآية هو من فعل الله.

ويبطل الخطيب هذا القول جملة وتفصيلاً عادًّا ذلك سهواً منهم. ويبّين أن هذه الأفعال التي لم تقترن بالإذن في آل عمران اقترنت باذن الله في سورة المائدة، كالخلق وإبراء الأكمة والأبرص فكلّ بإذنه وإرادته تعالى حيث قوله في المائدة [١١٠]: ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني**﴾، ويفسر [الإذن] أنه بمعنى الإرادة، وأن كل فعل لا يخرج عن إرادته -تعالى-.

---

(١) انظر ملاك التأويل ٦٠٣/٢ فما بعدها.

(٢) انظر درة التنزيل ، ص ٦٦، ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك تصّديه لكلام بعض أهل النظر والإعراب في قوله تعالى : ﴿آلله خير أمّا يشركون﴾ [النمل/٥٩][١]. فالتفضيل الذي في الآية لايحمل على حقيقته كما يفهمه بعض أهل اللغة والكلام. فأفعال الله -سبحانه- المشار إليها في أيات النمل من الخلق للماء وبسط الأرض وجعل الأنهار إلى غير ذلك، لاتشترك مع المعبودات الباطلة بأدنى نسبة من الخيرية إذ الخير كلّه في فعل الله دون ما يعبد من دونه، ممّا لاحول له ولا قوّة. فليس هناك أدنى قاسم مشترك من الخيرية بين فعله -سبحانه- وتلك المعبودات. ويعضد الخطيب رأيه هذا بعدد من الشواهد القرآنية كقوله تعالى : ﴿أذلك خير أم جنّة الخلد التي وعد المتّقون﴾ [الفرقان/١٥]، فالنار لاخير فيها ألبتّة لكنّه ذكرها مفضّلاً الجنّة عليها تناسباً مع ما اعتقده المشركون الذين ظنوا الخيرية تكون في النار وليس هذا التفضيل على حقيقته.

ويلاحظ أن الخطيب أورد ما تقّدم احترازاً عمّا جاء عند أهل الإعراب في باب أفعل التفضيل. فإذا قلنا إن هذه الإسطوانة أطول من تلك، فذلك يعني اشتراكهما بنسبة من الطول لكنّ المفضّلة تخالفها بنسبة طول أكبر، فمثل هذا التفضيل لايحمل على معناه الحقيقي في ما تقدّم بيانه من الآيات الكريمة.

وفي هذا الصدد يقدّم الخطيب لهذا الموضوع بقوله : "وتكلّم أهل النظر في قولك هذا أفضل من هذا، فقال بعضهم : يقال هذا في الخير الذي لاشرّ فيه والشر الذي لاخير فيه، إذا كان يتوهّم بعض الجهّال الأمر على خلاف ما هو به هذا الخير خير من الشرّ. وأنكر على ما خالف هذا".

وهكذا تلاحظ أن الخطيب لم يكن مولعاً بإيراد المسائل الكلامية، إنما كان يورد ما دعت اليه الحاجة كدفع شبهة تطرأ، أو ظن قد يتوهمه البعض. ومن جهة ثانية تلاحظ عدم استطراده في بيان كلام أهل النظر وكيف أنه كان يوظف الشواهد القرآنية في حلّ الإشكالات الطارئة عن مسائل أهل الكلام -كما رأيت- في المثالين المتّقدمين.

أما ابن الزبير فقد امتاز بعدم التعرض للمسائل الكلامية الا على الندرة حيث يورد ذلك بشكل مقتضب دونما توسع. من ذلك ما قاله مقرّراً به عقيدة أهل السنة من جواز التكليف بما لايطاق عقلاً لا شرعاً حيث يجوز ذلك من الناحية العقلية دون أن يكون ذلك واقعاً فعلاً في هذا الشرع، ثم يقرّر ابن الزبير أن ذلك بسط في مظانّه[٢].

ج) علوم العقيدة في كتب المتشابه اللفظي:

كانت كتب المتشابه اللفظي تعرض للحديث عن بعض مسائل الاعتقاد بما يخدم غرضها في توجيه المتشابه اللفظي، وترى أن الحديث عنه ضروريٌ تتميماً لما تقرّر في توجيه الآيات المتشابهة. ومن ذلك ما كانوا يستطردون في بيانه دونما حاجة.

---

(١) انظر درة التنزيل ، ص ٣٣٦.

(٢) انظر ملاك التأويل ٨٣٣/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المسائل التي تعرضوا للحديث عنها أمثل بما يلي :-

١- كثرة تفريقهم بين [الفسق والكفر]. فتجد الخطيب مثلاً يفرّق بينهما قائلاً : إن الفسق فسقان فسق كفر كما في قوله تعالى :﴿**كذلك حقت كلمة ربّك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**﴾ [يونس/٣٣][١]. وفسق المعصية وهو ما ليس بكفر ومنه الآية : ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾ [النور/٥]. ومثله ما وقع عند ابن الزبير أيضاً[٢].

ويتوسع ابن الزبير في الحديث عن الفسق الأكبر أعني فسق الكفر مبيّناً أنه من أوصاف الكافرين، وأنه صفة أثقل من صفة الكفر حينما يوصف به الكافرون[٣].

وامتداداً لما تقرّر تلاحظ أن ابن الزبير أيضاً يفرق بين ظلم الكفر وظلم المعصية. فوصف الظلم يطلق على الكافر المتلبّس بالكفر وعلى العاصي الذي ظهرت منه المعصية[٤].

٢- حرصهم على تنزيه الله تعالى وتصحيح بعض مفاهيم الاعتقاد. فقد حرصت كتب المتشابه اللفظي على ذلك كثيراً خصوصاً إن احتاج الأمر ذلك. فانظر مثلاً إلى صاحب الدرة في سورة الأعراف [١٤،١٥] عند قوله تعالى : ﴿**قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين**﴾[٥]، حيث يبّين أن كلام الرب -تعالى- ليس من باب الإجابة على سؤال اللعين إنما هو من مقتضيات حكم الله في الأزل، فحين طلب منه الإمهال قال له إنك في حكمنا من الممهلين والمؤخرين. وكذلك الحال بالنسبة للعطف على الواقع بين الآيتين في سورتي الحجر [٣٦-٣٨] وص [٧٩-٨١] : ﴿**قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم**﴾. حيث يبيّن الخطيب أن هذا ليس من عطف الجواب على السؤال إنّما هو من عطف الكلام على الكلام لإن الله لايجيب العصاة.

ومن ذلك ما وقع في ملاك التأويل أكثر من مرّة في تصحيح نظرة الناس للهداية والإضلال، فالله -سبحانه- لايهدي القوم الظالمين لأنه سبق في علمه أنهم لايؤمنون، وأنه حقّت كلمته على أولئك منذ الأزل أنهم لايؤمنون[٦].

٣- دفاعهم عن عصمة الأنبياء إن اقتضت الضرورة ذلك. كدفاعهم عن يحيى وموسى وداود ومحمد -عليهم السلام-. وكثيراً ما كانت كتب المتشابه اللفظي تستطرد في هذه المحاجّة دونما قصد في توجيه المتشابهات.

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٢١٠ فما بعدها.

(٢) انظر ملاك التأويل ٤٨٨/١.

(٣) انظر المرجع السابق ٢٥٤/١ فما بعدها.

(٤) انظر ملاك التأويل ٧٣٥/٢.

(٥) انظر درة التنزيل ص ١٤٣، والبرهان ص ٦٩،٧٠ فقرة ١٢١.

(٦) انظر ملاك التأويل ٤٥٩/١،٤٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك ما ذكره تاج القرّاء في أوّل مريم وهو يدفع عن عصمة يحيى -عليه السلام- حيث ذكر أن الأنبياء معصومون عن الكبائر غير معصومين عن الصغائر[١]. أما ابن الزبير -رحمه الله- فقد كان أكثر تعرضاً للدفاع عن عصمة يحيى، حيث بيّن أنه لم يأت فعل الذنوب وبذلك فسّر معنى [الحصور]؛ أي المحبوس عن الذنوب. وليس المقصود به المنع من إتيان النساء لأنه نقص والأنبياء منزّهون عن النقائص[٢].

ومن ذلك دفاعهم عن عصمة نبّي الله موسى -عليه السلام-: ﴿**إنّي لا يخاف لدّي المرسلون إلا من ظلم**﴾ [النمل١٠،١١][٣]، حيث يبيّن الخطيب أن هذه العبارة: ﴿**إلا من ظلم**﴾ إنما هي كلام معترض دخل على القصة كما في قوله تعالى : ﴿**وكذلك يفعلون**﴾ [النمل/٣٤]، حيث كان اعتراضاً جاء من كلام الله -تعالى- تعقيباً على كلام ملكة سبأ: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها). ويبيّن الخطيب أن هذا الاستثناء يفسر على وجهين :

الأول: أن يكون متصلاً فقوله :(لايخاف لدّي المرسلون)، يدلّ على أنّ غيرهم يخافون فترك ذكرهم لقوّة الدلالة عليه كما قال : ﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ**﴾ [النحل/٨١]، فحذف البرد لعلم المخاطبين به. وعلى هذا يكون الاستثناء تقديره : إذا كان غير المرسلين يخافون فإنّه يستثنى منهم من محا ظلمه بتوبته.

والثاني : أن الاستثناء منقطع تقديره: لكن من ظلم من غير المرسلين ثمّ بدلّ سيئة بحسنة فالله غفور رحيم.

أما ابن الزبير فلم يعتمد إلا الوجه الثاني في الاستثناء حيث عدّه من قبيل المنقطع. فالمعنى : إلا من ظلم من غير المرسلين ثمّ تاب من بعد ذلك. هذا وقد رد ابن الزبير كون الاستثناء متصلاً لأن المرسلين منزهون عن الظلم الذي يفسّر بمعنى الكفر في هذه الآية. وعدّ ابن الزبير القول باتصال هذا الاستثناء من التحريف والضلال الذي لا يجوز لأن الرسل معصومون عن الظلم حيث تلاحظ أن ابن الزبير يقّرر هذا وهو يردّ على الفرق الضّالة القائلة باتصال هذا الاستثناء[٤].

وهكذا يتضح أن كلام ابن الزبير يعدّ أكثر دقة مما جاء عند الخطيب، حيث لا يليق بهذا الاستثناء إلا الإنقطاع. أما قول الخطيب إن هذا الاستثناء جاء بصورة الكلام المعترض في السياق، فهو خطأ في الدليل والمدلول.

---

(١) انظر البرهان ص ١٢٥ ، وآواخر الفقرة ٢٩١.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٥٧.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٣٣٥ فما بعدها.

(٤) انظر ملاك التأويل ٢/٧٥١-٧٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن حيث الدليل نجد أن الخطيب يستشهد على كون هذا الاستثناء اعتراضاً بقوله تعالى تعقيباً على قول ملكة سبأ : ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل/٣٤]، وهذا من الممكن أن يكون من كلام الملكة نفسها كما يمكن أن يكون من كلام الله ولا مستند للخطيب في القطع بأنه اعتراض من كلام الله جاء من باب التعقيب على كلامها.

أما من حيث المدلول عليه فإنّ هذا الاستثناء: ﴿إلا من ظلم﴾، لا يجوز أن يكون متّصلاً لأنه يجعل بعض المرسلين في عداد الظالمين والأنبياء منّزهون عن مثل هذا. هذا مع أن الخطيب قدر الاتصال في الاستثناء على خلاف هذا -كما مرّ- حيث نزّه هو الآخر الأنبياء عن الظلم، لكن الأولى أن يكون هذا الاستثناء من قبيل المنقطع غير المتّصل.

وهكذا نجد أن كتب المتشابه اللفظي كانت تبذل جهوداً متفاوتة في الدفاع عن عصمة الأنبياء، غير أن مقصودها واحد وهو اثبات هذه العصمة لأنبياء الله ورسله.

٤- الردّ على بعض الفرق في مذاهبها الاعتقادية. من ذلك رد الخطيب لمذهب الخوارج القائلين بتكفير مرتكب الكبيرة [١]. ومن ذلك تصدي ابن الزبير لمذاهب الجبرية والمعتزلة في قضية الكسب والاختيار حيث بيّن أن الأوامر والتكاليف التي أمر الله بها إنما هي من الأمور الكسبية التي يفعلها العبد، وأن معرفة ذلك تؤدي الى السلامة من مذاهب القدرية والجبرية[٢].

٥- وهناك مسائل أخرى متفرّقة هنا وهناك لها شيء من الصلة بمسائل الاعتقاد كانت كتب المتشابه تتحدث عنها في بعض الأحيان. من ذلك تفريق الخطيب بين [الآيات والسلطان المبين] حيث إن [الآية] هي العلامة على صدق الرسول. أما [السلطان المبين] فهي الحجّة القاهرة للقوم كالعذاب مثلاً[٣]. ومن ذلك إشارة ابن الزبير إلى عجز العرب عن معارضة القرآن مع علمهم بما هو نظمه وبيانه وعلى الرغم من أنه جاء على لسانهم لكنه يفوق المستوى البشري[٤]. لكنك تلاحظ أن هذه إشارات يسيرة ليست بذات بال في موضوع المتشابه وإنما آثرت الإشارة إليها من باب الأمانة والموضوعية في عرض المصادر.

د) التفسير الموضوعي :

يلاحظ أن صاحب ملاك التأويل كان أكثر من صاحبيه من حيث العرض الموضوعي لبعض الآيات المتشابهات. هذا ولقد عرفت -في ما سبق- كيف أن الكتب الثلاثة قد توسعت في استخدام قاعدة السياق القرآني في فهم النصوص المتشابهة. فنجدهم كثيراً ما يحّللون الآيات المجاورة لكلّ نظير من

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٩٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٨٥٠.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٢٢٩.

(٤) انظر ملاك التأويل ٢/٥٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النظائر المتشابهة حتّى يتسنّى فهمه بوضوح، وهذا ما يمكن لحظُهُ بسهولة فائقة من خلال نظرة عابرة في درة التنزيل وملاك التأويل.

و لم يكتف ابن الزبير بالتحليل الموضوعي للسياقات المختلفة للنظائر المتشابهة بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك بكثير. ويمكنني أن أسجّل أشكال العرض الموضوعي للأيات القرآنية في ملاك التأويل بالجوانب الآتية:

١- عرض بعض المفاهيم والحقائق القرآنية من خلال الجمع بين الآيات المتشابهات. مثاله ما عرضته كتب المتشابه من حشد للنصوص القرآنية حول مفهوم الجزاء الأخروي للمؤمنين يوم القيامة. ويلاحظ أن ابن الزبير كان أكثر من الخطيب من حيث استقراء النصوص القرآنية التي أشارت إلى حقيقة الجزاء الأخروي. حيث ذكر ثلاث عشرة آية تبيّن هذا المفهوم ابتداء بقوله تعالى في النساء [١٣] : **﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾**[١]، وانتهاء بآية البيّنة **﴿جزاؤهم عند ربّهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربّه﴾** [٨].

والذي تستنتجه من خلال استعراض هذه الآيات أن الخطيب وابن الزبير كانا يكتفيان بذكر بعض الفروق اللفظية بين هذه الآيات معللين هذه الاختلافات تعليلاً معنوياً. غير أنك يمكن أن تلمس بوضوح أن ابن الزبير كان أكثر عرضاً لمفهوم الجزاء الأخروي من خلال الآيات الكريمة، هذا وخصوصاً إذا ما علمنا أنه قد أفاد ممّا كتب صاحب الدرة وكان أكثر منه استقراء للنظائر المتشابهة المتعلقة بهذا الموضوع.

غير أن ابن الزبير هو الآخر -وعلى الرغم من تفوّقه من حيث العرض الموضوعي- لم يستوف عرض الجانب الموضوعي لمفهوم الجزاء الأخروي بصورة تامّة، بل كان كصاحبه مكتفياً بلحظ بعض أوجه التشابه والأختلاف بين الألفاظ في هذه الآيات بشيء من التوسع في عرض السياق.

وممّا يؤكد على تفوّق ابن الزبير في مراعاة الجانب الموضوعي لبعض المفاهيم القرآنية ما بيّنه في أول سورة الرعد[٢]، حيث يبيّن أن حصول التوحيد وإثبات الرسالة يسير عبر منهجين في عرض الدلائل الاعتبارية. وهذان المنهجان هما :-

الأول : ما يدرك بالحواسّ وإطالة التفكير بالموجودات. كقوله تعالى : **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾** [البقرة/٢١،٢٢].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٠٠ - ١٠٤ ، وملاك التأويل ١/١٩٣-١٩٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٥٥٠-٥٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمنهج الثاني : ما يدرك من خلال الاعتبار بالمأثور من حال الامم السابقة المكذّبة بالرسل، وكيف كان الله -سبحانه- ينتقم من المكّذبين وينجّي المؤمنين.

ثم يقرر ابن الزبير أن الربع الأول من القرآن كان التركيز فيه منصبّاً على المنهج الأول. في حين كان الربع الثاني يركز على المنهج الثاني. ومن السور التي انفردت بذكر المنهج الأول -أعني إطالة التفكر- سورة الرعد. ومن السور التي ركزت على المأثور من حال الأمم سورة الأعراف.

فبمثل هذه الروح الموضوعية كان ابن الزبير يعرض بعض المفاهيم والحقائق القرآنية. وتلاحظ أن ابن الزبير بذل هذه المحاولة العقلية في تقسيم مناهج الدلائل الاعتبارية من أجل إثبات المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه في أول الرعد حيث قوله تعالى: ﴿**تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربّك الحق**﴾ حيث بيّن أن المقصود بآيات الكتاب ما أشار اليه اللوح المحفوظ من الآيات المتعلقة بالضرب الأول. أما قوله: ﴿**والذي أنزل اليك من ربّك الحق**﴾ فهو إشارة إلى الضرب الثاني -أي المأثور من حال الأمم-[١].

٢- الموازنة الموضوعية بين بعض سور القرآن . كان ابن الزبير يتعمّد إجراء مثل هذه الموازنات بين موضوعات السور المختلفة التي تحتوي على النظائر المتماثلة حتى يتسنّى توجيهها. ولقد مرّ جانب من هذا المضمار عند الحديث عن مراعاة المناسبة الموضوعية أثناء الحديث عن المناسبات في كتب المتشابه اللفظي وكيف عقد ابن الزبير مقارنة موضوعية بين سورتي الحجر والشعراء[٢].

ومن المقارنات الأخرى عند ابن الزبير ما بيّنه من الإختلاف ما بين سورتي الرعد [٣٧] وطه [١١٣] ففي الأولى قال : ﴿**وكذلك أنزلناه حكماً عربيّاً**﴾ وفي الثانية : ﴿**وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً**﴾[٣]. حيث ذكر [الحكم] في سورة الرعد اشارة الى ان هذه السورة قد اختصّت في بيان أحوال المكلفين وبسط الرزق وما إلى ذلك من موضوعات هذه السورة التي تتجلّى من خلالها حكمة الخالق -سبحانه-.

أما سورة طه فكان التركيز فيها منصبّاً على قصة موسى وهارون التي بيّنها الله لنا من خلال هذا القرآن فكان لفظ القرآن أولى بالذكر هنا.

٣- العرض الموضوعي لبعض المصطلحات القرآنية. لم أجد من ذلك إلا ما كان عند ابن الزبير -رحمه الله- وهو يفرّق بين استخدام القرآن لكلمتّي [السبيل والطريق].

أما كلّمة [السبيل] فهي أعمّ من [الطريق] ويراد به أمور مختلفة من حيث الاستعمال القرآني، حيث يلاحظ وروده في الربع الأول من القرآن واحداً وخمسين مرّة.

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٥٥٣.

(٢) انظر ما تقدم بيانه في هذه الدراسة ص [illegible].

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٥٦٩-٥٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاء في سورة البقرة في أربعة عشر موضعاً. وفي آل عمران في سبعة مواضع، وفي النساء في ستة عشر موضعاً، وفي المائدة والأنعام في ستة مواضع وهكذا. و[السبيل] غالباً مايراد به الخير.

أما [الطريق] فهو الأقل استعمالاً حيث لم يذكر في القرآن إلى في أربعة مواضع[١].

هـ) القصص القرآني :

كان للحديث عن القصة في القرآن نصيب وافر في كتب المتشابه اللفظي من الناحية النظرية والتطبيقية. فمن حيث النظرية يلاحظ أن كتب المتشابه اللفظي اعطت مواقف واضحة وصريحة من حيث تكرار القصّة في القرآن وفائدة هذا التكرار، وغير ذلك مما ستعلمه بعد قليل.

أما من حيث التطبيق فقد علمت أن موضوع الكتب الثلاثة كان منصّباً على التفريق بين المتشابهات من القرآن، وكان للقصص القرآني نصيب الأسد في هذا المضمار، فتلاحظ بوضوح كيف أن كتب المتشابه اللفظي كانت تحلّ مواطن الاختلاف بين القصص -كسائر المتشابهات- من جهة الألفاظ والتراكيب.

ومن الملاحظ أن جهود الكتب الثلاثة في التفريق بين القصص كان منصباً على التفريق بين المتشابهات من القرآن.

ومن الملاحظ أن جهود الكتب الثلاثة في التفريق بين القصص كان منصباً على إدراك الفروق اللفظية -على الأغلب- وإذا ما تجاوزنا ما كان يتوسّع فيه ابن الزبير فمن الواضح أن سبب ذلك هو الإنسجام مع موضوع المتشابه اللفظي الذي يتمّ التركيز فيه على الناحية اللفظية أكثر من الجانب الموضوعي، لذا تلاحظ أن الكتب الثلاثة كانت تدور في هذا الفلك -أعني فلك الألفاظ- دونما إسهاب في الفروق الموضوعية بين القصص.

ولايفهم من هذا بعد الخطيب وابن الزبير عن تحليل السياقات المختلفة للقصص القرآني، فقد كانت عنايتهم بارزة في هذا الجانب في كثير من الأحيان، لكن الذي قصدته أنهم لم يكونوا ليعرضوا القصة الواحدة عرضاً موضوعياً في السور المختلفة حيث أماكن ورودها فلا ريب أن ذلك اختصاص آخر يدخل في دائرة اختصاص كتب القصص القرآني.

وعلى العموم يمكن إجمال مواقف الكتب الثلاثة من القصص القرآني وتكرار القصة في القرآن بالجوانب الآتية :-

١) أن الأصل في القصص القرآني حكاية المعاني دون الألفاظ. فالقرآن الكريم نقل إلينا هذه القصص بمعانيها دون ألفاظها. ومن الملاحظ تركيز الكتب الثلاثة على هذه القطية وخصوصاً حينما لا يجدون تعليلات بيانية واضحة لمواطن التشابه.

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢٢٢/١ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانظر مثلاً إلى الخطيب في سورة البقرة [٥٨] عند قوله تعالى : ﴿**وادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّة**﴾ وعكس ذلك جاء في الأعراف [١٦١] [١]، تجده يعلّل هذا الاختلاف بقوله : "والجواب عن ذلك بما يحتاج اليه في مواضع من القرآن في هذه الآية التي قصدنا الفرق بين مختلفاتها وهو أنه ما أخبر به الله -تعالى- عن قصة موسى -عليه السلام- وبني اسرائيل وسائر الأنبياء وما حكاه من قوله -عز وجل- لهم لم يقصد إلى حكاية الألفاظ بأعيانها، وإنما قصد إلى اقتصاص معانيها. وكيف لايكون كذلك واللغة التي خوطبوا بها غير العربيّة فإذا حكاية اللفظ زائلة وتبقى حكاية المعنى. ومن قصد حكاية المعنى كان مخيّراً بأن يؤدي بأي لفظ أراد وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لايدلّ على ترتيب كالواو ولو قصد حكاية اللفظ ثمّ وقع في المحكي اختلاف لم يجز....الخ".

هذا ولقد تكرّر موقف الخطيب من هذه المسألة -أعني حكاية المعاني دون الألفاظ- كلّما وجد نفسه أمام فروق لفظية لا يجد بينها تعليلاً بيانياً شافياً فتجده يعالجها بهذه النظرة السريعة على الجملة دونما خوض في تفاصيل هذه الفروق. ومن ذلك ما بينه في أول الأعراف حين ذكر الفروق بين قصة آدم -عليه السلام- في مختلف السور[٢].

ويستحسن تاج القراء هذا الموقف من الخطيب حيث يقول : "وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل فأجاب عنها وقال: إنّ اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها كان اختلافها واتفاقها سواء إذا أدى المعنى المقصود، وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤونة السهر الى السحر"[٣].

أما ابن الزبير فهو الآخر يعوّل على مسألة حكاية المعنى دون الألفاظ كما تلاحظ ذلك بوضوح من خلال تفريقه بين المواطن الثلاثة في قصّة موسى وذلك بين طه والنمل والقصص، ومن الملاحظ أن ابن الزبير يذهب الى ما هو أبعد من هذا حيث يردّ اختلاف بعض الألفاظ الى كونها منقولة من اللسان العبري كما في تفريقه بين [السين ولعلّ] بين السور الثلاث، -وسيأتي تفصيله في باب التطبيق -بإذن الله-[٤].

تلكم هي نظرة الكتب الثلاثة إلى هذه المسألة -حكاية المعاني دون الألفاظ- غير أنني آثرت أن استقصي مواقف الكتب الثلاثة حول هذه المسألة لأسجل ثلاثة اشكالات قد ترد على هذه القضية حينما تؤخذ على إطلاقها دون قيود. وهذه الاشكالات هي:-

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٦ ، ١٧.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٤١.

(٣) انظر البرهان ص ٧١، آخر الفقرة ١٢٣.

(٤) انظر ملاك التأويل ٦٧٢/٢ - ٦٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- إغفال جانب مهم من الفروق البيانية بين مواطن الاختلاف في القصص. فتلاحظ أن الكتب الثلاثة كانت تلجأ لمثل هذا التعليل عندما كانت تستيئس من لحظ الفروق البيانية بين الآيات. فكنت أجدها تفرق بينها على الجملة قائلة إن الأصل حكاية المعاني ولا عبرة باختلاف الألفاظ.

فالأصل إذاً أن يتم تدبّر هذه الآيات على اختلافها لإدراك الفروق الكامنة فيما بينها. فصحيح أن القرآن نقل إلينا معاني هذه القصص لكنّه ساق هذه المعاني بأسلوب محكم يجمع بين جمال الإيجاز وروعة الإعجاز كما أشار الى ذلك استاذنا الدكتور فضل حسن عباس -حفظه الله- [١]. فالأصل إذن إدراك هذه الفروق البيانية قدر الطاقة البشرية لأنه أسلوب معجز، ولو كان اقتصاص هذه الأخبار بالمعاني دون الألفاظ. فالله الحكيم الخبير هو أعلم بالأسلوب الذي يلقي فيه أحسن القصص.

ب- أن القول بحكاية المعاني دون الألفاظ قد تعزّز من القول المتهافت الضعيف الذي يقول إن القرآن نزل بمعناه دون لفظه وذلك بنسبة أو بأخرى. وهذا ما ضعفه كثير من العلماء وردّوا عليه[٢]. فالقرآن نازل بلفظه ومعناه من عند الله وأن الله -سبحانه- حين اقتص علينا معاني هذه القصص كان ذلك منه ابتداء ولايجوز أن يتصرّف بهذه المعاني على غير الوجه الذي حكاه الله -سبحانه- في كتابه.

جـ- والإشكال الثالث الذي قد يرد على حكاية المعاني دون الألفاظ هو أن القصص القرآني يصبح كغيره من القصص التاريخي والأقاصيص الأدبية بحيث يمكن التصرّف فيه على وجوه مختلفة بحيث لا يعبّر عن الواقع الحقيقي للقصة القرآنية.

ولا ريب في أن تلك دعوى متهافتة لاتنهض بها حجّة حيث أنّ القصص القرآني ولو أنه نقل إلينا من ألسنة غير عربية جاء على أصدق مضمون وقد توخّيت فيه أمانة النقل والصدق في الأداء كيف وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير.

هذا ولقد استشعر الاستاذ عبد الكريم الخطيب مثل هذه الاعتراضات فرد عليها رداً شافياً يقطع السبيل على كل أفّاك أثيم مرجف بأسلوب القرآن في عرض القصص[٣] وهكذا يتبّين بوضوح أن مسألة حكاية المعاني دون الألفاظ في القصص لابد لها من الإحتراز عن مثل هذه الإشكالات الخطيرة قطعاً لأطماع أهل الزيغ والضلالات. غير أنّني أحب أن أقرّر شيئاً هاماً أيضاص، ذلكم هو أن الكتب الثلاثة لم تقصد فيما أوردته من الحديث عن القصص أياً من الاشكالات المتقدمة لامن قريب ولا من بعيد وإنّما عرضتْ ما عرضته بنوايا خالصة سليمة لاتشوبها الشوائب والأكدار. وإنما وضعت هذه الاشكالات للتحذير منها من جهة، وبياناً لأنها لم تكن من مقصودهم من جهة ثانية.

---

(١) أ.د. فضل حسن عباس القصص القرآني ، انظر ص ١٩٣.

(٢) عبد الوهاب غزلان ، البيان في مباحث من علوم القرآن، انظر ص ٥٧ ، فما بعدها والاتقان ص ١/ ٩٠ حيث أورد السيوطي هذا القول دون أن يرد عليه

(٣) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٦٦،٦٧،٧١-٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢) ومما امتازت به كتب المتشابه اللفظي تركيزها على مسألة تنوع المحكي والمقامات الوعظية المختلفة لكلّ نبيّ من الأنبياء عبر السور المختلفة. ذلك أن لكلّ مقام مقالاً فكانت كلّ سورة تعرض من قصة ذلك النبيّ ما يناسب ذلك المقام. فقصة نوح -عليه السلام- وردت في الأعراف وهود والمؤمنون وكان فيما بينها شيء من التشابه في السور الثلاث. والذي تجده أن الخطيب يعلّل الاختلاف في مطالع هذه القصة ما بين السور الثلاث من حيث اختلاف مقولة نوح -عليه السلام- يرجع ذلك إلى اختلاف المقام.

وهذا ما كان من ابن الزبير إلا أنه امتاز -كعادته- ببيان وجه المناسبة ؛ أعني مناسبة كل مقولة من هذه المقولات لموضوع السورة التي جاءت فيها. حيث بيّن وجه مناسبة قول نوح -عليه السلام- في الأعراف [٥٩] : ﴿**إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾، وفي هود [٢٥] : ﴿**إنّي لكم نذير مبين**﴾ وفي المؤمنين [٢٣] : ﴿**أفلا تتّقون**﴾[١].

وهكذا تلاحظ أن ابن الزبير يتوسع أكثر من الخطيب في تعليل مناسبة الوارد في كلّ سورة لموضوع السورة التي جاء فيها.

وهذا يكون تمشياً مع منهجه العام في التوسع في ذكر المناسبات كما رأيت من قبل.

٣) كما امتاز ابن الزبير عن صاحبية بذكر مناهج ثلاثة من مناهج دعوة الرسل أممهم إلى الحق والإيمان كما عرضه القصص القرآني.

وهذه المناهج في دعوة الرسل هي:

أ- ورود القصة مقتصرة على الدعاء وإبداء الحجّة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوّين سوى الإخبار بتكذيبهم. من ذلك قصة إبراهيم في الصافات حيث لم يرد من كلام الأمة المكذبة إلا الشيء اليسير[٢].

ب- وورود إجابات يسيرة من الأمم الى أنبيائهم بعد دعائهم لهم من ذلك قصّة إبراهيم كما صوّرتها سورة الشعراء حيث كان القوم يجيبون عن كلّ ما يسألهم عنه نبيّهم: ﴿**إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين**﴾ [الشعراء/٦٩،٧٠]

جـ- المحاورات الطويلة بين الأنبياء وأممهم كما هو الحال في قصّة شعيب مع قومه كما عرضتها الآيات في سورة هود. ثم يقرّر ابن الزبير بأن القصص القرآني في ذكر الأنبياء وأممهم لم يخرج عن واحد من هذه المناهج الثلاثة[٣].

---

(١) انظر درة التنزيل ص ١٥٠، وملاك التأويل ١/٣٨٤-٤٠٠.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٧٤٦ ، وقصة ابراهيم في الصافات الآيات (٨٣-١١١).

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٧٤٦، وقصة شعيب في سورة هود الآيات من (٨٤-٩٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و) إشارات من علوم أخرى وقع ذكرها في كتب المتشابه اللفظي :

من هذه الإشارات يمكن أن أسجّل الجوانب الآتية :-

١- التفسير العلمي . حيث كان ابن الزبير يحاول شرح بعض الآيات التي تتحدث عن بعض الظواهر الكونية مظهراً براعة الخالق في الخلق الأمر الذي يقود إلى مزيد مِنْ العظة والاعتبار في خلق الله. مثاله ما بينه في تعليل الفواصل الختامية في سورة الأنعام [٩٧] حيث قوله تعالى : ﴿**قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون**﴾، ثمّ ختم الآية التالية بقوله : ﴿**يفقهون**﴾ [٩٨] والثالثة بقوله : ﴿**يؤمنون**﴾ [٩٩][(١)].

فختم الأولى بذكر العلم في معرض الحديث عن النجوم والأفلاك وكيف تدور الكواكب وكيف أن القمر يقطع الفلك في ثماني وعشرين ليلة، في حين يستغرق زحل نحواً من سنة وثلاثين عاماً فمثل هذه الأمور لا تتحصل معرفتها إلا بالعلم المنقول والخبر المخبر به.

كما ختمت الآية الثانية بذكر الفقه لأنها كانت في معرض الحديث عن النشأة الإنسانية، وكيفية انتقال النطفة من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء، ثم تشكّلها إلى أعضاء تجمع في ما بينها وظائف مختلفة إلى غير ذلك ولا ريب في أن فهم هذه الحقائق والتفكّر فيها هو من خير ما يقود الى الاعتبار ببديع صنع الخالق.

وهكذا يتبين أن ابن الزبير كان يعرض ما توصّل إليه الناس في زمانه من الحقائق العلمية التي تصدق آي القرآن. ولعلّ ممّا يبرز ذلك بوضوح إضافة إلى ما تقدم ما بيّنه في تعليل الفواصل في النصف الثاني من سورة المؤمن حيث يكثر في الآيات التي تحمل في طيّاتها الكثير من الحقائق العلمية[(٢)].

٢- آداب البحث والمناظرة. وهذا ما تجده أيضاً عند ابن الزبير حيث يبدي براعة فائقة في عقد التمهيدات والمقدّمات التي يبني عليها النتائج في ما بعد في توجيه المتشابه. من ذلك ما عقده من التمهيد حول توجيه معنى كلّ من الآيتين : ﴿**ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً**﴾ [مريم/٥٣]، وقوله: ﴿**وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً**﴾ [الفرقان/٣٥][(٣)]. فلماذا اختصّت سورة مريم بذكر مقام النبوة وسورة الفرقان بذكر مقام الوزارة؟ يمهّد ابن الزبير لهذه الغاية بتمهيد مضمونة أن سور القرآن الكريم حين ذكرت الرسل -عليهم السلام- قرنت مع ذكرهم حال المكذّبين من أممهم على الأغلب. فحين يذكر الرسول يذكر معه من كذّبه من أمته. ومن السور التي أطالت أكثر من غيرها سورة الأعراف وهود والشعراء. ثم يأتي بعد هذه السور سورة المؤمنون. وكانت سورة القمر من أواخر السور تعرّضاً لهذه المقامات حيث ذكرت حال الرسل وأممهم بضرب من الإيجاز.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٣٤-٢٣٨.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٨٣٩ فما بعدها.

(٣) انظر ملاك التأويل ٢/٦٦٣-٦٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خلال هذا التمهيد ينفذ ابن الزبير إلى توجيه موضع التشابه مبيّناً أن مقام النبوّة قد ذكر في مريم تناسباً مع مقام الفئة العليّة من الأنبياء الذين لم يذكر معهم حال الأمم المكذبّة سوى ما كان في شأن إبراهيم -عليه السلام- في حين اختصّت سورة الفرقان بذكر مقام الوزارة إجابة لما طلبه موسى -عليه السلام- من ربّه في سورة طه [٢٩، ٣٠] حين قال : ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي**﴾.

ومن ذلك ما قدّمه من تمهيد مطوّل في سورة المائدة حول آيات الحكم [٤٤، ٤٥، ٤٧] : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ ثم ذكر بعد ذلك الظلم والفسق[١] تلاحظ أن ابن الزبير يريد أن يقول إن هذا تدرّج في الوعيد لكلّ من لم يحكم بما أنزل الله. وقد جاء هذا التدرّج وفق ما اطّرد من آيات الوعد والوعيد في ذكر الأخف قبل الأثقل. فالفسق في نظره أثقل من الكفر والظلم أثقل من الكفر.

وحتّى تتّضح هذه الحقيقة يسوق ابن الزبير أدّلة مطوّلة من آي الوعد والوعيد محلّلاً لها ومن أجل أن يثبت وجهته التي رمى اليها.

وأحياناً يكون التمهيد الذي يقدّمه ابن الزبير عبارة عن جملة من أمهات وحقائق العلوم المختلفة التي برع فيها كالأصول والمنطق وغير ذلك. ففي أول سورة طه تجد أن ابن الزبير يعرض جملة من أمهات العلوم كدلالة المنطوق وصور دلالة اللفظ على المعنى الى غير ذلك من حقائق مختلفة وذلك تمهيداً لتوجيه ما تكرّر من قصّة موسى -عليه السلام- بين السور الثلاث طه والنمل والقصص. حيث جعل هذه الحقائق العلميّة والعقلية المقدّمات التي بني عليها ما توصّل إليه من نتائج في توجيه ما تكرّر في تلك السور الثلاث[٢].

وهكذا يتضح أن ابن الزبير هو وحده الذي كان ينفرد بهذه الإشارات من العلوم المختلفة. ولاشكّ في أن سبب ذلك هو مناسبة أسلوبه المتوسّع في توجيه المتشابه اللفظي.

وهكذا ينتهي بنا المقام بعد طول التطواف في التعرّف على مصادر كتب المتشابه اللفظي الثلاثة. وبالجملة فإنّه يمكنني بعد الدراسة الوصفية الاستقرائية أن أقسّم مصادر الكتب الثلاثة إلى أقسام ثلاثة من حيث خدمة علم المتشابه اللفظي وهذه الأقسام هي :-

١- مصادر أصيلة في توجيه الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً كفهم السياق القرآني وأقوال المفسّرين وعلوم اللغة على اختلافها والمناسبات وغير ذلك ممّا تبيّن مفصلاً.

٢- مصادر مساعدة في توجيه الآيات المتشابهات بحيث تكشف الغموض الذي قد يكتنف بعض المتشابهات كأسباب النزول وشواهد المأثور على اختلاف أنواعه.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٥٤-٢٥٨.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٦٦٧-٦٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث

أصول المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة وصورهُ ومنهجه

تمهيد :

بعد أن تعرفنا على كتب المتشابه اللفظي الثلاثة وأصحابها ومصادرها العلميّة، يجدر بنا في هذه المرحلة أن نخطو معاً خطوات أخرى إلى الإمام. تلك الخطوات التي يمكن أن تشكل معبراً آمناً ومسلكاً منهجيّاً للحديث عن المتشابه اللفظي من حيث التطبيق -كما عرضته الكتب الثلاثة-.

لم يبق لنا إذن في هذه المرحلة إلا أن نتعرّف على الصور أو الأصول العامة التي يمكن استنباطها من منهج القرآن الكريم في عرض الآيات المتشابهات، ووفقاً لما جاء في كتب المتشابه اللفظي من هذه الآيات.

فما أنواع المتشابه اللفظي التي قدمّتها الكتب الثلاثة؟ وما الأصول والمرتكزات التي يمكن أن نرّد لها الآيات المتشابهات ؟ للاجابة عن هذه التساؤلات لا بد من أن نتعرّف على جهود الأقدمين في هذا المضمار.

المطلب الأول : تقسيم الزركشي في البرهان لصور المتشابه اللفظي وأنواعه :

أورد الإمام الزركشي -رحمه الله- أنواع المتشابه اللفظي في القرآن بعامّة، وقد جعلها في خمسة عشر فصلاً يهمّنا ما جاء في الفصل الأوّل منها. وذلك لأن بقية الفصول التي عرض للحديث عنها لم تتحدّث عنها الكتب الثلاثة وإنّما جعلت حديثها منصبّاً على ما جاء من الأقسام المذكورة في الفصل الأول وهو ما تشابه باعتبار الأفراد.

والمتشابه باعتبار الأفراد جعله الزركشي في أقسام ثمانية هي :

١) أن يكون في موضع على نظم وفي آخر على عكسه. نحو ما جاء في البقرة [٥٨] : **﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾**، وفي الأعراف [١٦٠] : **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾**.

٢) ما يشتبه بالزيادة والنقصان. نحو ما جاء في البقرة [٦] : **﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**، وجاء في غيرها : **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون﴾** [يس/١٠].

٣) التقديم والتأخير . نحو تقديم [اللعب] على [اللهو] في الأنعام [٣٢] دون العنكبوت [٦٤] التي تقدّم فيها ذكر [اللهو].

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤) التعريف والتنكير. نحو ما جاء في البقرة [٦١] : ﴿**ويقتلون النبيّن بغير الحق**﴾، وفي آل عمران [١١٢] : ﴿**ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾.

٥) الجمع والإفراد. نحو ما جاء في البقرة [٨٠] : ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾، وفي آل عمران [٢٤]: ﴿**معدودات**﴾.

٦) إبدال حرف بغيره. نحو ما جاء في البقرة [٣٥] : ﴿**وكلا منها رغداً حيث شئتما**﴾، وفي الأعراف [١٩]: ﴿**فكلا من حيث شئتما**﴾.

٧) إبدال كلمة بأخرى نحو ما جاء في البقرة [٦٠] : ﴿**فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً**﴾، وفي الأعراف [١٥٩] : ﴿**فانبجست**﴾.

٨) الإدغام وتركه . نحو ما جاء في الأنعام [٤٢] : ﴿**لعلهم يتضرعون**﴾، وفي الأعراف [٩٤] جاء مدغماً :﴿**لعلهم يضرعون**﴾[١].

وبعد أن يعرض الإمام الزركشي لهذه الأقسام الثمانية المتقدمة الذكر ويمثل على كل قسم منها، نجده يعقد فصولاً أخرى للمتشابهات في القرآن مما ورد على صيغة واحدة في موضعين، أو في ثلاثة أو أربعة وهكذا يستمر في عرض ما تشابه من الصيغ القرآنية من حيث عدد ورودها في القرآن[٢].

ونلاحظ أن الإمام الزركشي يصنف هذه الصيغ المتشابهة من حيث ورودها في القرآن، فيجعل كل عدد في فصل واحد ممثلاً لذلك. فنجده مثلاً يعقد فصلاً لما جاء على حرفين، أي ذكر في موضعين في القرآن كقوله تعالى في الزخرف [٨٤] : ﴿**وهو الحكيم العليم**﴾، وفي الذاريات [٣٠]: ﴿**إنه هو الحكيم العليم**﴾.

ومن أمثلة ما جاء على ثلاثة أحرف قوله تعالى : ﴿**قليلاً ما تذكّرون**﴾، [الأعراف/٣ ، والنمل/٦٣، والحاقة /٤٢]، وهكذا يستمر الإمام الزركشي في التمثيل لهذه الصيغ المتكررة إلى أن يصل لذكر ما تكرر في ثلاثة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم.

ومما يجدر ذكره أن هذه الفصول التي ذكرها الإمام الزركشي ممّا جاء على حرفين فأكثر لم يتعرّض لبيان علّة التكرار فيه لأن المقام في ذلك يطول. ومن جهة ثانية نجد أن كتب المتشابه اللفظي لم تتحدّث عن مثل هذه الصيغ وإنّما اكتفت ببحث المتشابهات مما جاء باعتبار الأفراد كما عرض له الإمام الزركشي حيث عرضت لذلك من حيث التطبيق وليس من حيث النظرية كما فصّله الزركشي.

ويجدر الإشارة أن أقرّر هنا أن ما عرضه الزركشي من الفصول اللاحقة مما جاء على حرفين فصاعداً هو من المتشابه اللفظي الذي يجدر أن يفرده الباحثون بالدراسة والبحث.

---

(١) انظر الزركشي ، البرهان، ١/١١٢ -١٣٣.

(٢) انظر المرجع السابق ١/١٣٣-١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحقيق بالقول أن كتب المتشابه اللفظي لم تدرس مثل هذه الصيغ الكثيرة التكرار نظراً لأنها عنيت بدراسة ما جاء من وجهين أو ثلاثة على الأغلب. فقليلاً ما كنت أجدهم يتدارسون الصيغ الكثيرة التكرار سوى ما تكرر من آيات النعيم الأخروي حيث أوصلها ابن الزبير الى ثلاث عشرة آية مبيناً وجوه الاختلاف في ما بينها[1].

وأود أن أشير إلى أن هذه الصيغ الكثيرة التكرار في القرآن -مع أنها من المتشابه اللفظي- إلا أن هذا لايمنع من إدخالها في باب الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم، فدراسة مثل هذه الصيغ المتشابهة من الناحية الموضوعية يمكن أن يجعلها أكثر وضوحاً وإشراقاً ممّا لو درست من الناحية اللفظية فحسب. ولهذا فقد كان المتشابه اللفظي من أصلح البذور التي ينبغي أن ينهض عليها التفسير الموضوعي للقرآن.

المطلب الثاني : ما يمكن استدراكه على الإمام الزركشي في صور المتشابه اللفظي:

لم يكن جهد الإمام الزركشي في البرهان من الجهود المتخصّصة بالنسبة للكتابة في موضوع المتشابهة اللفظي، وكل ما في الأمر أنه تحدث عن علم الآيات المتشابهات من حيث النظرية مع التطبيق على بعض الأمثلة. فهو إذن تحدّث عن هذا العلم كحديثه عن باقي مباحث علوم القرآن المختلفة.

وهذا يدفعني إلى القول إن الإمام الزركشي -رحمه الله- حين ذكر المتشابهات باعتبار الإفراد إنما ذكر أبرز أقسامها حيث جعلها في ثمانية أنواع -كما مر-.

وبعد نظرة استقرائية لما عرضته كتب المتشابه اللفظي من الآيات المتشابهات وجدت أن المتشابه اللفظي يحوي صوراً وأنواعاً أخرى لم يذكرها أحد والتي يمكن تقسيمها في مجموعتين هما :-

الأولى: الآيات المتكررة بأكملها دونما اختلاف بين المكّرر، وهذا في القرآن موجود وقد عرضت له كتب المتشابه اللفظي كقوله تعالى : ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون**﴾ مرتين في البقرة هما الآيتان [١٣٤، ١٤١] ومن الممكن اعتبار هذا المثال ممّا جاء على حرفين كما وصف الزركشي -رحمه الله-.

ويكثر مثل هذا التكرار في السور المكية كما هو الحال في سورة الرحمن والمرسلات وغيرها من السور المكية.

ومثل هذه الآيات المكّررة هي عينها التي أخذت كتب المتشابه اللفظي على عاتقها العناية بها وتوجيهها حيث حرصوا في مقدّماتهم على ذلك -كما مر- بيانه حين عرفت بكتب المتشابه اللفظي .

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٩٣-١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المجموعة الثانية : فهي الآيات المكررة بشيء من الاختلاف. وقد عدّ الإمام الزركشي صوراً ثمانياً من وجوه هذا الاختلاف. وبعد استقراء لما جاء في كتب المتشابه اللفظي تبيّن أن هناك صوراً أخرى أجملها في ما يأتي مع التمثيل على كلّ منها. وهي:-

١) ما يشتبه بالتذكير والتأنيث. نحو ما جاء في آل عمران [٤٩]: ﴿**فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله**﴾، وفي المائدة [١١٠] : ﴿**فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني**﴾.

٢) ما يشتبه بتغير صيغة الفعل. ولذلك صور مختلفة منها :

أ- تغير صيغة الفعل المبني للمعلوم الى ما لم يسمّ فاعله نحو ما جاء في البقرة [٥٨] :﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية**﴾، وفي الأعراف [١٦١] : ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية**﴾.

ب- إبدال الفعل باسم الفاعل في موضع دون آخر نحو ما جاء في الأنعام [٩٥] : ﴿**يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ**﴾، وجاء في يونس [٣١] : ﴿**ويخرج الحيّ من الميت ومخرج الميّت من الحي ومن يدبرّ الأمر فسيقولون الله**﴾.

جـ- إبدال الماضي بالمضارع . نحو ما جاء في الأنعام [١١٧] : ﴿**إن ربك هو أعلم من يضلّ عن سبيله**﴾، وفي غيرها : ﴿**أعلم بمن ضلّ عن سبيله**﴾ [النحم /٣٠ ، والقلم /٧].

د- تغيّر صيغة الفعل من حيث ارتباطه بالضمائر المتصلة. نحو ما جاء من تكرار فعل الإرادة في قصة موسى والخضر -عليهما السلام- . فقال في شأن السفينة :

﴿**فأردت أن أعيبها**﴾ [الكهف/٧٩]، وفي شأن الغلام : ﴿**فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك**﴾ [الكهف/٨٢].

٣) ما يشتبه بين الجملة الاسمية والفعلية. نحو ما جاء في سورتي براءة [٣٢] والصف [٨] في الأولى قال تعالى: ﴿**ويأبى الله إلا أن يتم نوره**﴾، وفي الثانية : ﴿**والله متم نوره**﴾.

٤) التغير في بنية اسم الفاعل. فجاء في الأنعام [٩٩] : ﴿**والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه**﴾، وفي ما بعد : ﴿**متشابهاً وغير متشابه**﴾ [الأنعام/١٤١].

٥) ما يشتبه بين الإضمار في آية والإظهار في أخرى. نحو ما جاء في آل عمران [١١] : ﴿**كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بأياتنا**﴾، وفي الأنفال [٥٢] : ﴿**بآيات الله**﴾.

٦) ما يشتبه بين الإيجاز في موضع والإطناب في آخر. نحو ما جاء في سورة يونس من ذكر بني إسرائيل: ﴿**فما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغياً بينهم**﴾ [يونس/٩٣] وفي الجاثية [١٧] :﴿**فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم**﴾. ويجوز أن يجعل هذا مما يشتبه بالزيادة والنقصان كما عبر الإمام الزركشي إذ لاعبرة باختلاف المسميات إذا كان المراد واحداً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧) ما يشتبه بتغير الإعراب. نحو ما جاء في النحل في ذكر الكافرين : ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنـزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾ [النحل/٢٤]، وجاء ذكر المتقين : ﴿**وقيل للذين اتقوا ماذا أنـزل ربكـم قالوا خيراً**﴾ [النحل/٣٠].

٨) ما يشتبه من حيث ذكر الحرف في موضع والمصدر في آخـر. نحـو مـا جـاء في النحـل [٧٨]: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾، وفي غيرهـا [المؤمنـون/٧٨]: ﴿**قليـلاً مـا تشكرون**﴾.

تلكم هي بعض صور المتشابه اللفظي كما بينته الكتب الثلاثة إضافة إلى ما تحدث عنه الزركشي في البرهان. وقبل أن أختتم حديثي أحب أن أقرر أمرين هامين هما:

الأول : أن كل موطن من مواطن التشابه يمكن أن يحمل أكثر من صورة مـن صـور الاختـلاف، فقد يكون الموطن الواحد مختلفاً من حيث التعريف والتنكير والجمع والإفـراد في آن واحـد. وقـد يكـون متبايناً من حيث التقديم والتأخير وإبدال كلمة بأخرى وهكذا. ولا أظن أنني بحاجة لضرب الأمثلة.

والثاني : أنه قد يحدث التداخل في تسمية صور بعض المتشابه اللفظي وهذا أمـر لا إشـكال فيـه. فما يشتبه من حيث الإيجاز والإطناب قد يعبر عنه آخرون بأنه مشتبه من حيث الزيـادة والنقصـان. ومـا يشتبه من حيث التذكير والتأنيث قد يعبر عنه آخرون بأنه مشتبه من حيث النقص والزيـادة حيـث تزيـد علامة التأنيث وهكذا تبقى مجرد اصطلاحات تخدم مقصوداً واحداً ولا مشاحة في الاصطلاح.

وإلى هنا ينتهي بنا الحديث عن علم المتشابه اللفظي في جانبه النظري، من حيث معنـاه، والتـأليف فيه، ومصادر كتب المتشابه اللفظي وصور المتشابه كما عرضها القرآن الكريم.

ولنمض الآن في بيان علم المتشابه اللفظي من الجانب العملي وهو القسم الأهم في هذه الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني

الدراسة التطبيقية على كتب المتشابه اللفظي الثلاثة.

ويشتمل على ثلاثة فصول:-

الفصل الأول: دراسة المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة.

الفصل الثاني: المقارنة والموازنة بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة.

الفصل الثالث: القيمة العلمية للكتب الثلاثة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

دراسة المتشابه اللفظي في الكتب الثلاثة.

تمـــهيد:

لقد وقفنا في الباب الأول من هذه الدراسة على علم المتشابه اللفظي من الجانب النظري، وذلك من حيث معناه وضوابطه وأهميته وأشهر من كتبوا فيه وصوره وما سوى ذلك مما تم تفصيله من قبل.

كما علمنا أيضاً أن كتب المتشابه اللفظي الثلاثة -الإسكافي والكرماني والغرناطي- كانت هي السباقة إلى دراسة الآيات المتشابهات، وأنها تملك من الأصالة العلمية ما لا يملكه غيرها ومن أجل ذلك فقط عكفت على دراسة مصادرها دراسة تفصيلية لنتعرف على وسائلها الأصيلة في خدمة توجيه الآيات المتشابهات.

وفي هذا الباب سنتناول المتشابه اللفظي من حيث التطبيق على النصوص القرآنية -كما جاءت به الكتب الثلاثة- مرتباً حسب ترتيب سوَر القرآن.

ولا أزعم أن هذه الدراسة ستكون بمثابة البديل عن كتب المتشابه اللفظي، وكل ما أتطلع إليه هو تقديم خلاصة فكرية لآراء أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه الآيات المتشابهات. ومن ثم محاولة استجلاب آراء أخرى من قديمة وحديثة في خدمة الآيات المتشابهة لإخراج هذا العلم من الناحية العملية في صورة أكثر بهاء وإشراقاً.

ولما كانت الكتب الثلاثة مشتملة على المتشابه وغير المتشابه آثرت أن أقصر هذا الفصل على دراسة الآيات المتشابهات فقط دون غيرها وذلك وفقاً للمعايير والضوابط التي وضعتها لضبط الآيات المتشابهات دون غيرها في أول هذه الدراسة. وعليه فسيتم استبعاد ما هو من غير المتشابه اللفظي على ضوء الضوابط والأسس التي قررتها من قبل.

وهكذا نبدأ المسير على بركة الله عبر هذه الرياض القرآنية لنتعرف على جمال الإيجاز، وروعة الإعجاز، ودقة هذا النظم الكريم، وجمال التناسب بين آية وسورة. سائلاً العلي القدير أن يوفقني وأن يعينني في تقديم ما هو أتم وأقوم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- سورة الفاتحة:

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

وجاء في الأنعام[١]: **﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾.**

وفي الكهف [١]: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾.**

وفي سبأ [١]: **﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾.**

وفي فاطر [١]: **﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة﴾.**

هذه سور خمس في القرآن افتتحت بحمده تعالى، وقد تحدث عنها ابن الزبير من وجوه نجملها في ما يأتي :

الأول: أنه في مفتتح السور الخمس قدم ذكر الحمد بينما تأخر في الجاثية[٣٦]حيث قوله تعالى: **﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾** بيان ذلك أنه جاء في بالجاثية الجواب لقهر المكذبين الذين بدا لهم سيئات ما عملوا يوم القيامة، فكأنه قيل بعد ما طوى حساب أولئك المكذبين لمن الحمد؟ فجاء الجواب (فلله الحمد) أما في أم القرآن مثلاً فكان بمثابة تعليم للمؤمنين، فلم يناسب إلا التقديم.

الثاني: مناسبة افتتاح كل من السور الخمس بالحمد. أما الفاتحة فلأنها مطلع القرآن حسب الترتيب الثابت لسوره، فمن جميل التناسب أن تفتتح بهذا الوصف العلي.

أم الأنعام فافتتحت بالحمد تبشيراً بإبطال العقائد الشركية التي كان عليها المشركون.

أما في سورة الكهف فلذكر قصة أصحاب الكهف وذي القرنين، وهو ما لم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة التي افتتحت بالحمد تبشيراً بإبطال شبهات اليهود في إثارة هذه التساؤلات عن تلك القصص.

أما في سبأ فلما جاء من ذكر داود وسليمان، وما بسط الله لهما من المسخرات حيث ذكر ذلك بإسهاب أكثر من غيرها من السور.

أما في فاطر فوقع فيها التعريف بانفراده تعالى بخلق السماوات والأرض، وانفراده بإمساكهما، فناسب افتتاحها بذكر الحمد في أولها.

الثالث: وفي وجه ثالث يستطرد ابن الزبير في بيان مناسبة ما أعقب ذكر الحمد من وصفه تعالى في كل من السور الخمس، ففي أم القرآن مثلاً قال: **﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ما لك يوم الدين﴾** [الفاتحة/١-٣] فجاءت مثل هذه الأوصاف في عقب الحمد تعريفاً بالرب تعالى، وأنه ملك الدارين والمتفرد بالخلق والأمر. وهكذا يمضي ابن الزبير في بيان وجه التناسب في السور الباقية مما يمكن أن يدرك من خلال الفهم التحليلي لكل موضع من هذه المواضع الخمسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرابع: أنه لم يطرد في الخواتيم والإنتهاآت المتعلقة بذكر الحمد ما اطرد في الافتتاحات من اختلاف التوابع. ففي أوائل السور الخمس اختلفت الأوصاف المتبعة بالحمد، ففي الفاتحة قال: ﴿**رب العالمين الرحمن**﴾، وفي الأنعام قال: ﴿**الذي خلق السماوات والأرض**﴾ وهكذا باقي السور. في حين لم تختلف التوابع في نهاية الآيات المختتمة بالحمد كقوله تعالى: ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ [الأنعام/٤٥] وقوله: ﴿**وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ [الزمر/٧٥] وقوله: ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ [يونس/١٠] وهكذا نلاحظ أن جميع هذه الخواتيم اطردت على هذا الوصف في ذكر الحمد. يبين ابن الزبير أن سبب ذلك أن الاطراد في الخواتيم؛ إنما هو بمثابة تشريع للمؤمنين، وحث لهم على حمده تعالى في خواتيم أعمالهم. فجاء على هذه السورة و لم تختلف التوابع كما كان في مفتتح هذه السور المبتدئة بذكر الحمد[١].

ينشط ابن الزبير منذ اللحظة الأولى في نفي التكرار غير المفيد في صيغ الحمد في القرآن الكريم وتلاحظ كيف أفاد فائدة كبيرة من تحليل السياقات المختلفة للآيات الكريمة، وكيف اعتمد قاعدة التناسب في النظم والموضوع لإثبات أن كل صيغة من هذه الصيغ المكررة إنما جاءت لتلبية مقصد موضوعي من مقاصد هذه السور على اختلافها وتنوعها.

هذا وقد اختلفت أنظار العلماء والمفسرين في التوفيق بين السور الخمس المفتتحة بذكر الحمد. وهذا من خلاف التنوع الذي لا شيء فيه بل إن كل رأي يمكن أن يقدم شيئاً جديداً في خدمة المفهوم أو الصيغة القرآنية.

فانظر مثلاً إلى النضج العقلي الذي بدا من الإمام الرازي -رحمه الله- وهو يفرق بين هذه الصيغ في السور الخمس، حيث جعل قوله في الفاتحة: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ بمنزلة النموذج من التربية العامة لجميع المخلوقات. أما السور الأربع الباقية فجعلها أقساماً من هذه التربية العامة فكل يشكل قسماً من هذه التربية التي حوتها سورة الفاتحة فسورة الكهف -مثلاً- تشكل قسم التربية الروحانية حيث إنزال القرآن الذي هو هداية للأرواح[٢].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ [الفاتحة/٢].

وهذا عند من يعد البسملة آية حيث يصبح ذلك من التكرار. ويذكر تاج القراء في فائدة التكرير أقوالاً ثلاثة الأول أنها جاءت للتأكيد. وقيل كرر لأن المعنى وجب الحمد لله لأنه الرحمن الرحيم. وقيل

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٧-١٨.

(٢) الرازي مفاتح الغيب، انظر ١/١٨٠، ١٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنه كرر لأنه في البسملة ذكر المنعم دون المنعم عليهم، فكرر ليشمل المنعم عليهم أيضاً وهم المربوبون الذين قال فيهم: ﴿**رب العالمين**﴾ الرحمن بهم أجمعين والرحيم بالمؤمنين خاصة يوم الدين[١].

أما ابن الزبير فيجيب عن هذا الموضع بأسلوب مختلف حيث يبين أن هاتين الصفتين ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ فصل بهما بين صفات الترهيب ﴿**رب العالمين مالك يوم الدين**﴾، ووقع ذلك على أتم التناسب حيث ذكرت صفة الرحمة قبل الشروع بذكر يوم الجزاء وما فيه من أهوال إيناساً ولطفاً بحال هذه الأمة[٢].

وهذا الذي ذكره ابن الزبير اعتبره الفيروزأبادي قولاً رابعاً أضافه إلى الأقوال التي أوردها عن تاج القراء في تكرير هذه الآية[٣].

وقريباً من الأقوال المتقدمة كان رأي ابن جماعة الذي عدّ ذلك التكرار من باب التنبيه على الصفات المتضمنة لحمده تعالى وشكره. فكان بمثابة التفصيل من بعد الإجمال[٤].

أما قول تاج القراء أن الرحيم خاص بالمؤمنين دون الرحمن، فهو أمر لا دليل عليه يردّه ما جاء من عموم الآية الكريمة: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾ [الحج/٦٥] فهو رحيم بعامة الناس مؤمنهم وكافرهم على السواء، ويبقى ما تبناه ابن الزبير هو الأرجح نظراً لموافقته سياق سورة محمد.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة/٣].

يتكلف ابن الزبير عدّ هذا الموضع من المتشابه حيث يسأل عن سبب الاختلاف بين هذه الآية من الفاتحة وقوله تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك**﴾[آل عمران/٢٦] وقوله: ﴿**ملك الناس**﴾ [الناس/٢] فما السبب في مجيء آي الفاتحة على قراءتين (الملك والمالك) دون الآيتين الأخريين؟

يجيب ابن الزبير عن ذلك بأن آية الفاتحة تضمنت معنى الملك المالك بإفصاح القراءتين. أما آية آل عمران (مالك الملك) فيفهم منها معنى المالك الملك لأن الملك من له الملك. وقوله: (ملك الناس) مغنٍ عن الإفصاح بالمالك لأنه تقدمه قوله: ﴿**رب الناس**﴾ والرب هو المالك كما يقول. ولو ذكر المالك لكان تكراراً.

ويعود ابن الزبير إلى آية الفاتحة مبيناً أنه تم الإفصاح بالصفتين ﴿**رب العالمين، مالك يوم الدين**﴾ لأن مصرف الصفة الأولى وهي الرب بيان حال الدنيا، أما الثانية وهي ﴿**مالك يوم الدين**﴾ فبيان حال

---

(١) انظر البرهان ص ١٩، ٢٠، فقرة ١.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٢٢-٢٤.

(٣) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، أنظر ١/١٢٩، ١٣٠.

(٤) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآخرة وعلى هذا فقد تم الإفصاح بهاتين الصفتين دون آيتي آل عمران والناس لأن الكلام فيهما جاء مطلقاً[١].

هذا ويمكنني أن أسجل على كلام ابن الزبير الاعتراضات التالية:-

١) أن سؤاله عن سبب مجيء القراءتين في آية الفاتحة دون الآيتين الأخريين فيه ضرب من التكلف، ذلك أنَّ شأن القراءات القرآنية أمر بني على التوقيف وجاء إلينا بالتواتر.

٢) ثم إن هذا التساؤل عن أسباب عدم اختلاف القراءة في سورة الناس أوقع ابن الزبير في القول بالترادف حيث نلاحظ بتأثره الواضح بابن جرير -رحمه الله- الذي يقول بالترادف بين الرب والمالك[٢].

والحق أن لا ترادف بين الكلمتين إذ الرب أعم من المالك، بالإضافة إلى فروق أخرى يمكن أن تلاحظ بين الكلمتين ليس هذا مقام تفصيلها[٣].

٣) كما أوقع ابن الزبير نفسه في إشكال آخر وهو قوله: أن رب العالمين منصرف على حال الدنيا، ومالك يوم الدين على حال الآخرة، فهذا مما لا دليل عليه وقد أورده ابن جرير - رحمه الله- كاعتراض لمن يقولون بالتفريق بين الرب والمالك وقد دفع هذا الاعتراض و لم يقبله.

سورة البقرة

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿الم﴾[البقرة/١] وهذا من المتشابه معنى ولفظاً.

فمن حيث المعنى اختلفت أقوال العلماء في تفسير الحروف المقطعة وليس هذا محل تفصيل ذلك. وأشهر ما قيل إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله وقيل إنها أسماء للسور. وقيل إنها جاءت للتحدي.

وقد تحدث العلامة الزمخشري عن مثل هذه الأقوال، وأفاض في مناقشتها[٤].

أما من حيث كون هذه الحروف من المتشابه لفظاً فقد ورد الافتتاح بهذه الحروف (الم) في أوائل ست سور من القرآن؛ البقرة وآل عمران، ثم العنكبوت والروم ولقمان والسجدة.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٤-٢٦.

(٢) الطبري، جامع البيان، انظر ١/١٤٨-١٥٢.

(٣) د. فضل عباس، القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، انظر ص١٥، ١٦ من ذلك البحث حيث يذكر الفروق بين كلمتي الرب والمالك.

(٤) الزمخشري، الكشاف، انظر ١/١٩-٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ أن تاج القراء يقرر أن الموجب لذكر هذه الحروف أول البقرة هو الموجب لذكرها في سائر السور. وفي الأعراف [١] قال: ﴿المص﴾ لأنه قال في ما بعد ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ [الأعراف/٢][١].

أما ابن الزبير فيعتمد هو الآخر على التناسب في وجود الحروف فكل سورة تفتتح بالحروف المقطعة تكون هذه الحروف التي افتتحت بها أكثر من غيرها استعمالاً في كلماتها وتراكيبها. فحين يفتتح بالألف واللام والميم تكون هي الحروف الأكثر استعمالاً في السورة نفسها[٢].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ [البقرة/٢] وقال في موطن آخر: **﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾**[آل عمران/٣،٤]. ففي الأولى قال: **﴿هدى للمتقين﴾** لأنهم المختصون بالإيمان بالكتاب العزيز كما تقدم وصفهم في أول البقرة. بينما قال: **﴿هدى للناس﴾** لأن الآية تحدثت عن عموم الناس بمن فيهم أهل الكتاب وإنما ذكر الناس إحرازاً لفضل المتقين -ممن آمنوا بالقرآن- على أهل الكتاب[٣].

ومن المحدثين من قسم الهداية إلى قسمين؛ الهداية الخاصة وهي التي يوفق الله لها عباده بعد أن يسعوا في طلبها وعلى هذا النوع حمل الآية (هدى للمتقين).

والهداية العامة وهي إبانة الطريق لجميع الناس وعليه حملت آية آل عمران[٤].

ومن العلماء من أضاف نظيراً آخر إلى آية البقرة غير الذي ذكره ابن الزبير في آل عمران كما تقدم وهو قوله تعالى في لقمان [٣]: **﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾** فلما ذكر مجموع الإيمان في البقرة ناسب ذكر المتقين. ولما ذكر الرحمة ناسب التعبير بالإحسان[٥]. وهذا تناسب لطيف أشار إليه ما اطرد من آي القرآن كقوله تعالى: **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** [الأعراف/٥٦].

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة/٦] وفي يس [١٠]: **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**.

لم تذكر الواو في آية البقرة في قوله: **﴿سواء عليهم﴾** لأنه أخبر عن اسم إن. وما في سورة يس جاء من باب العطف على جملة قبلها وهي الآي السابقة لهذه الآية[٦].

---

(١) انظر البرهان ص٢١، فقرة ٥.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٢٩-٣١.

(٣) انظر المرجع السابق ١/٣١،٣٢.

(٤) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، انظر ١٠/٧،٨.

(٥) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص ٨٦، مسألة ١١. والسيوطي، معترك الأقران ١/٨٧.

(٦) انظر البرهان ص٢١، فقرة ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [البقرة/٢٣] وقال في مكان آخر: **﴿أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** [يونس/٣٨] وفي هود [١٣] قال: **﴿أم يقولون افتراه قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**.

والذي تلاحظه هنا أن تاج القراء اكتفى بإيراد فرق واحد من الفروق اللفظية بين هذه الآيات الثلاثة وهو التعبير بمن التبعيضية في سورة البقرة دون غيرها وذلك لأن هذه السورة سنام القرآن ولأنها جاءت بعد الفاتحة فقوله **﴿من مثله﴾** أي من مثل أي سورة من سور القرآن. ولو وجدت (مِن) في غير هذا الموضع لما فهم هذا القصد[١].

أما ابن الزبير فهو كعادته أكثر إدراكاً للفروق اللفظية ويجعلها من وجوه عدة:-

الأول: أما (مِن) حيث ورود من التبعيضية في البقرة دون غيرها ذلك أن المراد بآية البقرة إبطال شكهم بالنبوة لنبينا - عليه وآله السلام-. فكأنما قال لهم: إن كنتم في ريب من أمر هذا النبي فائتوا بسورة من نمط ما سمعتم من رجل مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- أما في آية يونس فالمقصود نفي إتيانهم بمثل القرآن.

الثاني: أن قوله في هود: **﴿بعشر سور مثله مفتريات﴾** هو من باب التوسعة على من يريد التحدي وناسب التوسعة بعشر سور قوله مفتريات لأن الكلام المفترى متوسع فيه أكثر مع علمهم بعدم القدرة على ذلك ولو حاولوا. وهذه التوسعة لم تذكر في آيتي يونس والبقرة.

الثالث: أنه خص الكلام المتحدى به بالافتراء في هود دون غيرها قمة في التدرج بالتوسعة عليهم حتى تنقطع بذلك أعذارهم.

الرابع: أنه قال في البقرة: **﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾** فذكر الشهداء لأن المقام هو مقام افتراض وجود رجل يأتي بمثل ما أتى به النبي -عليه الصلاة والسلام-. والسماع من مثل هذا الرجل يحتاج إلى الشهداء المصدقين لذلك.

أما في الآيتين الأخريين فقال: **﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾** ذلك لأن المطلوب الإتيان بمثل نظم القرآن، فطولبوا أن يأتوا بكل من يقدرون على الإتيان به استعانة به على الإتيان بمثل ذلك النظم[٢].

(١) انظر البرهان ص٢٣-٢٤، فقرة ٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٣٧-٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتلاحظ أن تاج القراء وابن الزبير تحدثوا عن هذه الآيات -آيات التحدي- ضمن الدائرة التخصصية لحدود كتبهم، وذلك في إدراك بعض الفروق اللفظية. ولكن هذا أمر غير كاف البتة لأن الفهم الموضوعي لهذه الآيات ضروري لإدراك مراحل التحدي بالقرآن.

ولقد نشطت كتب التفسير المختلفة من القديمة والحديثة في دراسة مراحل التحدي بالقرآن، والكل متفق على أن آية البقرة المدنية كانت آخر هذه المراحل. ولقد أضافوا آيات أخرى لم تذكرها كتب المتشابه اللفظي كقوله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ [الإسراء/٨٧].

و لم تذكر مثل هذه الآيات لعدم تشابهها مع سائر آيات التحدي بل تشبهها فقط من الناحية الموضوعية كما قررت ذلك بوضوح كتب التفسير والدراسات حول إعجاز القرآن[١].

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ [البقرة/٣٥] وفي الأعراف [١٩] ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾.

تفرق كتب المتشابه اللفظي بين هاتين الآيتين من وجوه مختلفة:-

الأول: أنه جاء عطف الأمر بالأكل على الأمر بالسكنى لآدم -عليه السلام- جاء في البقرة عطفاً بالواو لأن السكنى هنا بمعنى الإقامة. فالإقامة والأكل شيئان متغايران يجمع بينهما بالواو التي لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً. وهذا خلافاً لما جاء في سورة الأعراف حيث كان العطف للأكل على السكنى بالفاء لأن الأكل مترتب على دخول آدم للجنة فالسكنى هنا بمعنى الدخول إلى الجنة والذي يترتب عليه الأكل منها. وقد جاء في مقابلة أمر إبليس بالخروج منها حين قال له: ﴿**اخرج منها مذؤوماً مدحوراً**﴾ [الأعراف/١٨][٢].

ويذهب ابن الزبير إلى أن سبب العطف بالواو في البقرة هو أن قصة آدم في تلك السورة جاءت في مقام إخبار الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- فكان العطف بالواو لأن المقام هو بمثابة سرد للأحداث. أما في الأعراف فكان المقام يقتضي تعداد النعم على بني آدم فاحتيج إلى الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب[٣].

---

(١) من التفاسير التي تحدثت عن مراحل التحدي انظر مثلاً الرازي، مفاتح الغيب ١١٦/١، ١١٧، المسألة الخامسة، وتفسير المنار ١٩١/١ فما بعدها حيث ذكر أقوال العلماء في مراحل التحدي. وانظر ما كتبه أستاذنا د. صلاح الخالدي في البيان في إعجاز القرآن حيث ذكر آراء العلماء في مراحل التحدي مرجحاً رأي الأستاذ سيد قطب، (انظر ص٦٤-٧٠)، وانظر ما كتبه أستاذنا د. فضل عباس في كتابه إعجاز القرآن ص٣١ فما بعدها، الأمر الذي يغني عن الخوض في هذا الموضوع بالإضافة إلى أنه ليس من اختصاص هذه الدراسة.

(٢) انظر درة التنزيل ض١٠، والبرهان ص٢٥، فقرة ١١.

(٣) انظر ملاك التأويل ٤١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني: أنه زاد في البقرة ذكر الرغد تناسباً مع تعظيم هذا الإخبار الذي ابتدأ بنون العظمة (وقلنا) ولأن الأمر بالأكل كان بعد الإقامة. وهذا ما لم يوجد في الأعراف حيث كان الإخبار بـ (قال) بدل (قلنا) وكان الأمر قبل الإقامة فلم يحتج ذكر الرغد[١].

.ويرى ابن الزبير أن ذكر الرغد في البقرة جاء من باب إحراز التوسعة في الأكل وحرف الجر (من) في قوله: ﴿**منها رغداً حيث شئتما**﴾ يفيد مزيداً من إحراز هذه التوسعة لأن المأكول هو بعض ثمار الجنة. و لم يذكر الرغد في الأعراف لأن حصول التوسعة متيسر لأنه قال له: ﴿**من حيث شئتما**﴾.

الثالث: ثم يرى ابن الزبير أنه قال في الأعراف: ﴿**من حيث شئتما**﴾ لأن هذا القول يبيح الأكل من ثمر كل موضع فيه. أما قوله في البقرة: ﴿**حيث شئتما**﴾ بدون (من) - فإنها تعطي بأظهر الاحتمالين إباحة الأكل في كل موضع لا من ثمر كل موضع. فوجود -(من) تفيد المزيد من التوسعة[٢].

وهكذا نجد أن الخطيب وتاج القراء يتفوقان على ابن الزبير في هذا الموضع من التشابه وذلك لأسباب مختلفة أهمها:-

أ) قول ابن الزبير إن سورة البقرة جاءت في مقام الإخبار وسورة الأعراف في مقام تعداد النعم. قول تعزوه النظرة الموضوعية في كل من السورتين. ذلك أن القصص القرآني جاء كله في مقام الإخبار عن أحوال الأنبياء والأمم السابقة، ثم إن المتأمل في سورة البقرة وتحديداً في قصة آدم -عليه السلام- يلاحظ مسحة التكريم والإنعام منه تعالى على بني آدم. أما في الأعراف فتبدأ السورة بتقريع المكذبين بالرسالات ثم جاء بيان قصة آدم بمثابة البرهنة على خسران كل من يخضع لفتنة الشيطان ويكذب المرسلين.

ب) قول ابن الزبير إن الرغد ذكر في البقرة إحرازاً لمقام التوسعة أمر غير دقيق ذلك أن التوسعة محرزة في كل من الآيتين. ويعدّ تاج القراء أكثر دقة من ابن الزبير في هذا المقام وقد تقدم رأيه في هذا الصدد.

جـ) ومن جهة ثالثة نرى أن رأي صاحب الدرة وتاج القراء المتقدمين كان محط تأثير فيمن تحدث عن هذا الموضع من التشابه كالفخر الرازي وابن جماعة والسيوطي، فكلهم كان يعول على رأي الخطيب وتاج القراء[٣].

وإلى مثل هذا السبيل سار بعض المحدثين في كتاباتهم فكان اقتباسهم لأقوال الخطيب وتاج القراء

---

(١) انظر البرهان ص٢٥، فقرة ١١.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٤٣ - ٤٥.

(٣) انظر الرازي، مفاتح الغيب ٤/٣. وابن جماعة، كشف المعاني ص٩٨، مسألة ٢٢. والسيوطي، معترك الأقران ١/٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكثر مما أفادوه من ابن الزبير[١].

د) ومما يؤكد تفوق الخطيب وتاج القراء على ابن الزبير استناد الأولين إلى الأصول اللغوية في معاني الكلمات والحروف تلك الأصول التي بنوا عليها في ما بعد رأيهم في توجيه هذا الموضع من المتشابه. فهم يثبتون أولاً معنى الفاء والواو. فالفاء مثلاً تفيد الترتيب والتعقيب والتسبب حيث إن ما بعدها يكون مسبباً عما قبلها وهذا ما قررته كتب حروف المعاني في ما بعد[٢].

وكذلك الحال بالنسبة لمعنى السكون الذي يقول فيه الراغب إنه الثبات بعد الحركة وقد يستعمل في الاستيطان[٣].واستناداً إلى هذا الأساس في معنى السكنى كان الخطيب يوجه المتشابه. فحمل السكون الذي في البقرة على الإقامة وهو ما عناه الراغب بالاستيطان وحمل السكون في الأعراف على الدخول وهو ما أشار إليه الراغب بالثبات.

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة/٣٤] جاء هذا التصوير لإباء إبليس موجزاً في البقرة دون سائر سور القرآن حيث فصلت تلك السور المحاورة بينه وبين الرب تعالى كسورة الأعراف والإسراء وص وغيرها. يشير تاج القراء إلى هذا الموضع من الاختلاف دون أن يبين سبب ذلك. ويكشف ابن جماعة عن ذلك بقوله إن الإيجاز جاء في سورة البقرة المدنية لأن التفصيل تم في السور المكية[٤].

قلت لما كانت قصة آدم وإبليس في البقرة واردة في سياق التكريم للإنسانية ناسب ذلك إجمال الحديث عن معصية إبليس بترك السجود و لم تذكر المحاورة بينه وبين الرب تعالى كما في سائر السور المكية.

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [البقرة/٣٦]، وفيما بعد **﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾** [البقرى/٣٨]، وفي الأعراف [٢٤]: **﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾**، وفي طه[١٢٣]: **﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾**.

يتساءل تاج القراء عن سبب تكرير الأمر بالهبوط في سورة البقرة فيجيب عن ذلك بقوله إن الأول من الجنة والثاني من السماء[٥].

و لم يرتض الفخر الرازي هذا الوجه في سبب التكرير وعدّه ضعيفاً وذلك من وجهين:-

---

(١) السامرائي، التعبير القرآني، انظر ص٢٥٧ فما بعدها.

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب، انظر ١/١٦١-١٦٣.

(٣) الراغب، مفردات القرآن ص٤١٧.

(٤) انظر البرهان ص٢٤، ٢٥، فقرة ١٠. وابن جماعة، كشف المعاني ص٩٧، مسألة ٢١.

(٥) انظر البرهان ص٢٦، فقرة ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأول: أنه قال في الهبوط الأول: ﴿**ولكم في الأرض مستقر**﴾ ولو كان هبوطاً إلى السماء الدنيا من الجنة لكان الأولى أن تقال هذه الجملة عقيب الهبوط الثاني.

والثاني: أنه قال في الهبوط الثاني في البقرة: (اهبطوا منها) والضمير في منها عائد إلى الجنة وليس إلى السماء.

ثم يذكر الفخر وجهين آخرين في سبب هذا التكرير الواقع في البقرة أحدهما أنه كرر من باب تأكيد الأمر. وثانيهما وهو ما أضافه الفخر مرجحاً له على الوجهين السابقين حيث يقول: "وعندي فيه وجه ثالث أقوى من هذين الوجهين وهو أن آدم وحواء لما أتيا بالزلة أمراً بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط ووقع في قلبهما أن الأمر بالهبوط لما كان بسبب الزلة فبعد التوبة وجب أن لا يبقى الأمر بالهبوط. فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلم أن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها، بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة لأن الأمر به كان تحقيقاً للوعد المتقدم: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ [البقرة/٣٠]" [١].

أما ابن الزبير فيفرق بين آية البقرة الثانية التي فيها الأمر بالهبوط: ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى**﴾ حيث ذكر أنه لم ترد فيها العبارة ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ كما ذكر ذلك في سورة طه والأعراف وسبب ذلك تقدمه في الآية الأولى من البقرة التي كان فيها ذكر الهبوط فلم يعد في الثانية لأنه يصبح تكراراً[٢].

الآية الثامنة قوله تعالى: ﴿**فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[البقرة/٣٨]، وفي طه [١٢٣]﴿**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى**﴾. ذكر تاج القراء أنه عبر بالفعل المزيد في طه (اتبع) مناسب لما تقدم ﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ [طه/١٠٨] [٣].

أما ابن الزبير فيذكر في التفريق بين الصيغتين (تبع واتبع) وجوها ثلاثة:-

الأول: أنهما في أصلهما لمعنى واحد لكن روعي الزيادة في الصيغة في طه لزيادة المعنى.

الثانية: مراعاة الترتيب الثابت في المصحف فتبع هي الأصل واتبع هي الفرع فقدم الأصل في البقرة لتقدم وروده في القرآن وطه متأخرة عن البقرة في الترتيب الثابت[٤].

والوجه الثالث: أنه في الفعل المزيد (أتبع) المزيد من تعمل وتكلف المشقة بخلاف الفعل (يتبع) فعبر في البقرة بالفعل دونما زيادة لأنه لم يتقدم هذه الآية إلا شيء يسير من ذكر مكائد اللعين حيث إزلال الشيطان لآدم وحواء ﴿**فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه**﴾ [البقرة/٣٦] فناسب ذلك

---

(١) الرازي مفاتح الغيب ٣/٢٦.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٤٥.

(٣) انظر البرهان ص٢٦، فقرة ١٣.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٤٥،٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعبير بتبع وفي طه تقدم الآية بسط مكائد اللعين، وكيف أغوى آدم وحواء، وكيف تكلف المشاق في إقناع آدم الأكل من الشجرة فناسب هذا التعمل والتكلف الزيادة في الفعل فقال -اتبع-[١].

وهناك من يرى أنه عبر بالفعل - اتبع- في طه لإفادة معنى تجديد الاتباع وذلك ليناسب حال آدم -عليه السلام- حين وصفه الحق -جل وعلا- بقوله: ﴿**فنسي ولم نجد له عزماً**﴾ [طه/١١٥] وقوله: ﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾ [طه/١٢١] فناسب ذلك تجديد الأمر بالاتباع[٢].

قلت ويمكن التفريق بين الموضعين من حيث تاريخ النزول. ففي سورة طه قال (اتبع) والسورة مكية فذلك مناسب لطبيعة الدعوة في المرحلة المكية وما هي عليه من صعوبات ومشاق بحيث لم يكن إتباعها بالأمر السهل فناسب التعبير بالفعل المزيد. في حين كان إتباع أمر هذا الدين أكثر يسراً وسهولة في العهد المدني حيث كان للمسلمين كيان قائم فعبر بالفعل (تبع) في الآية المدنية من سورة البقرة.

والذي تلاحظه في هذا الموضع أن ابن الزبير كان أكثر دقة من تاج القراء وخصوصاً في ما عرضه من الوجه الثالث. أما تاج القراء فاكتفى بتكلف علة لفظية وقد مر تعقيبنا على ذلك عند الحديث عن أشكال المناسبة اللفظية عند الكرماني[٣].

الآية التاسعة قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ [البقرة/٤٨] وقال في ما بعد الآية [١٢٣]: ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون**﴾.

يفرق الخطيب بين هاتين الآيتين بالقول إن الآية الأولى ذكرت أنواعاً أربعاً من المراتب التي يمكن من خلالها تلقي المكاره ودفع الشدائد، وأن أياً من هذه الأنواع لا تنفع الظالمين في الآخرة. وهذه المراتب كما ذكرتها الآية هي المدافعة بالنفس فالشفاعة باللسان فأخذ الفداء ومن ثم النصرة. وفائدة تقديم أخذ الفدية على نفع الشفاعة في الآية الثانية أن قوله في الثانية: ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً**﴾ كان بمنزلة الفداء المحصور المؤقت بزمن. ويكون بعد ذلك الفداء فقال: ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ فلا ينفع إذن الفداء المؤقت ولا الفداء المخلص على وجه الرهن[٤].

ويرى تاج القراء أنه قدم الشفاعة في الآية الأولى قطعاً لأطماع من ظن أن آباءهم أو أصنامهم تشفع لهم. وقدم العدل في الآية الثانية ليكون لفظ القبول مقدماً فيها[٥].

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٤٦-٤٩.

(٢) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص ٩٩، مسألة ٢٣.

(٣) انظر ما تقدم بيانه ص ٥٠

(٤) انظر درة التنزيل ص١٢، ١٣.

(٥) انظر البرهان ص٢٦، فقرة ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ابن الزبير فيرى أنه تم تقديم الشفاعة في الآية الأولى مناسبة لما جاء قبل هذه الآية: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ [البقرة/٤٤] فالأمر بالبر من غير إخلاص واهتداء -كما هو حال بني إسرائيل- لا ينفعه أمره ذاك كما لا تقبل الشفاعة ولا تنفع الشافع ولا المشفوع له. أما في الآية الثانية فقد تم تقديم ذكر العدل لأنه الأصل والأحرى بأن يقدم على نفع الشفاعة[١].

والذي نلاحظه في هذا الموضع أن آراء الكتب الثلاثة اتسمت بالفتور وعدم القطع برأي مقنع، **فالأول** يستند إلى التفسير. **والثاني** يستند إلى تناسب الألفاظ مبتعداً عن السياق. **والثالث** يستند إلى طرف غير قوي من أطراف المناسبة بين الآيات.

هذا ولقد تعددت أراء العلماء والمفسرين حول هاتين الآيتين نسوق لك بعضها:-

١) يرى الفخر الرازي أن الحكمة في تقديم قبول الشفاعة على أخذ الفدية في الآية الأولى وعكس ذلك في الثانية حكمة ذلك أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة وفائدة تغيير الترتيب ما بين الآيتين الإشارة إلى هذين الصنفين[٢].

٢) ويرى القاضي ابن جماعة أن الضمير في (منها) راجع إلى النفس الأولى الجازية عن النفس الثانية وذلك في قوله: ﴿**ولا يقبل منها شفاعة**﴾ وفي (منها) الثانية: ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ إلى النفس الثانية المراد الجزاء عنها. وكأنه بين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها الشفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها. وبين في الآية الثانية أنَّ النفس الظالمة لا يقبل منها عدل عن نفسها ولا تنفعها شفاعة شافع فيها وقدم بذل العدل هنا للحاجة إلى الشفاعة عند رده وهذا السبب في قوله في الأولى: ﴿**لا يقبل منها شفاعة**﴾ وفي الثانية ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع وتنفع المشفوع له[٣].

٣) أما الإمام الزركشي فقد أطال النفس في الحديث عن هذا الموضع من التشابه حاكياً أن هذا الاختلاف ليس ضرباً من التفنن في الكلام وإنما ذلك لحكم يبينها من وجهين:-

الأول: تقديم الشفاعة في الأولى دون الثانية. أن قوله في الأولى: ﴿**ولا يقبل منها شفاعة**﴾ الضمير راجع فيها إلى النفس الأولى الشافعة لغيرها. فلما كان المراد في هذه الآي ذكر الشفاعة للمشفوع له أخبر أن الشفاعة غير مقبولة للمشفوع له احتقاراً له.

وهذا الخبر يبئس السامع ويجعله يترك المشفوع له. فيكون التقدير على هذا التفسير ل﴿**لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة**﴾ لو شفعت يعني وهم لا يشفعون فيكون ذلك تيئيساً لهم.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٥١،٥٢.

(٢) الرازي، مفاتح الغيب ٣/٥٤.

(٣) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص١٠٢، مسألة ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله: ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ إن جعلنا الضمير راجعاً إلى الشافع، أي النفس الأولى فقد جرت العادة أن يمضي هذا الشافع في الشفاعة قبل بذل الفداء. وإن جعلنا الضمير (منها) راجعاً إلى المشفوع فيه فهو أحرى بالتأخير ليكون الشافع قد أخبرهم بأن شفاعتهم قد قبلت[١].

وفي الآية الثانية قدمَ ذكر العدل والضمير في قوله (منها عدل) عائد على النفس صاحبة الجريمة التي عادة ما تقدم بذل العدل أو الفداء على الشفاعة فناسب ذلك تقديم العدل على نفع الشفاعة.

والوجه الثاني: أنه قال في الأولى: ﴿**ولا يقبل منها شفاعة**﴾ وفي الثانية: ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ وذلك لأن الضمير في الآية الأولى عائد على النفس الأولى وهي الشافعة والشفاعة إنما تقبل من الشافع فعبر بنفي القبول. أما في الآية الثانية فالضمير يعود إلى النفس الظالمة المشفوع لها فعبر بنفي النفع لأن الشفاعة إنما تنفع المشفوع له.

ثم يستطرد الإمام الزركشي -رحمه الله- ذاكراً أقوالاً أخرى عن السلف في هذا الموضوع يطول المقام إن قصدنا ذكرها[٢].

ونلاحظ هنا أن الإمام الزركشي في رأيه هذا قد أفاد من رأي القاضي ابن جماعة غير أنه كانت له بعض الإضافات من حيث الإتيان بالمقدمات وتفصيل النتائج المترتبة عليها.

٤) ويرى السيد رشيد رضا أن الاختلاف بين الآيتين إنما جاء تفنناً في الأسلوب ليبين أن لا فرق بين عدم قبول الشفاعة وأخذ الفداء على أي حال من الأحوال[٣]. وهذا ما سبق أن أبطله الإمام الزركشي ذلك أنه لابد من حكم بيانية وراء هذا الاختلاف فليس تنويع الأسلوب مقصداً مهماً لدى الفصحاء فكيف بالقرآن.

وممن سلك سبيل صاحب المنار من المحدثين الشيخ ابن عاشور حيث قال بطريقة التفنن في عرض هاتين الآيتين[٤].

٥) أما الأستاذ عبد الكريم الخطيب فيرى خلاف هذا يرى أن اختلاف النظم بين الآيتين جاء مراعاة للواقع ومقتضى الحال وتحقيقاً للإعجاز في نظم القرآن. فالآية الأولى خطاب لأصحاب الريب والشناعات من بني إسرائيل ممن يلبسون الحق بالباطل أن يخشوا اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شي، وقد جاء التعبير في هذه الآية بقبول الشفاعة وأخذ الفداء لأنه مجلوب على سبيل الإحسان للمفلس المحتاج في هذا اليوم، فهي بجابهة الأشقياء في مواجهة من يرجون عندهم العون والنصرة. أما الآية الثانية فهي مواجهة صريحة للأشقياء بمعزل عمن يرجون نصرهم وبمنقطع عمن

---

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، انظر ١/١٢٣-١٢٥.

(٢) الزركشي، البرهان، انظر ١/١٢٥-١٢٧.

(٣) السيد رشيد رضا، تفسير المنار، انظر ١/٤٥١.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، انظر ١/٦٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطمعون في الوقوف إلى جانبهم فإذا تعلق الأشقياء بهذه الآمال الكاذبة فلا فدية تقبل منهم، وإذا تمنوا أن يطلع عليهم من يشفع لهم فشفاعتهم غير نافعة لهم. وبهذه الصورة من صور التيئيس والتي قبلها -يقصد الآية الأولى- يتم إغلاق دائرة اليأس عليهم فلا ينفذ إليهم بصيص من أمل[١].

الآية العاشرة قوله تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾،[البقرة/٤٩]، وجاء في الأعراف [١٤١]: **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾**، وفي إبراهيم [٦]: **﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾**.

يرى الخطيب أن قوله في البقرة **﴿يذبحون﴾** بدل من **﴿يسومونكم سوء العذاب﴾** فهو بيان لكيفية ذلك السوم. أما في إبراهيم فقال **﴿ويذبحون أبناءكم﴾** عطفاً على السوم إشارة إلى أن التذبيح من ضروب المكروه التي ابتلوا بها. وقد ناسب وجود العطف هنا وقوع هذه الآية في ضمن خبر وهو ما جاء من قوله تعالى: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾** [إبراهيم/٥]، ثم جاءت هذه الآية: **﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾** فضمن إخباره عن إرسال موسى بآياته إخباره عن تنبيه قومه على نعمة الله فجاء العطف بالواو **﴿ويذبحون﴾** في قصة مضمنة لقصة أخرى هي الآية المتقدمة: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾** والقصة المعطوفة على مثلها تقوي معنى العطف فيها[٢].

ويرى تاج القراء أن قوله **﴿ويذبحون﴾** في إبراهيم جاء من كلام موسى -عليه السلام- في تعداد المحن عليهم خلافاً لآيتي البقرة والأعراف التي هي من كلام الله[٣].

أما ابن الزبير فيجيب عن وجوه ثلاثة من أوجه الاختلاف بين هذه الآيات هي:-

١) أنه عبر في آية البقرة بالفعل المضعف **﴿نجيناكم﴾** دون **﴿أنجيناكم﴾** في آية الأعراف وإبراهيم. والسر في ذلك أن هذا الفعل المضعف يحمل معنى التكثير وقد جاء في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل حيث النجاة من آل فرعون وفرق البحر وغير ذلك من الآلاء التي بينتها سورة البقرة فناسب هذا التعداد ذلكم الفعل المضعف الدال على التكثير وتناسباً مع الفعل المضعف في ما بعد **﴿يذبحون﴾**.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، انظر ١/١٣٧-١٣٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص١٣، ١٤.

(٣) انظر البرهان ص٢٦، فقرة ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢) أنه عبر في سورة البقرة باللفظ ﴿**يذبحون**﴾؛ لأن التذبيح منبئ على اسم القتل وصفته وجاء الإخبار في هذه الآية بهذه الصيغة وفاء بالأصل المقصود: أما في الأعراف فعبر باللفظ ﴿**يقتلون**﴾؛ لأنه لا يفهم من القتل إلا إعدام الحياة على أي وجه من الوجوه فجاء بمثابة الإجمال بعد التفصيل في يذبحون. فيقتلون أوجز من يذبحون.

٣) أنه زاد الواو في إبراهيم فقال: ﴿**ويذبحون أبناءكم**﴾ ذلك لأن هذه السورة بنيت على الإيجاز في إيراد القصص فجاء ذكر موسى -عليه السلام- وجاء ذكر التذبيح مسبوقاً بهذا العطف تنبيهاً على شدته وتهويلاً لذلك الموقف. ويعدّه ابن الزبير كقوله تعالى: ﴿**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال**﴾ [البقرة/٩٨] فخصهما بالذكر لعلو المكانة[١].

ويمكنني بعد هذا التطواف بين آراء الكتب الثلاثة تسجيل الملحوظات الآتية:-

أ) أن تعليل الكرماني لمجيء الواو مقترنة بلفظ ﴿**يذبحون**﴾ في إبراهيم كان الفهم الأكثر دقة وعليه عول من كتبوا في المتشابه كابن جماعة وما نقله عنه الإمام السيوطي.

غير أنه مما لا يسلم للأول -أعني ابن جماعة- قوله أن ﴿**يقتلون**﴾ جاءت في الأعراف من باب التفنن في القول[٢]. فهذا غير كاف في تعليل الاختلاف بين الآيات.

ب) ويتبين في هذا الموطن اعتماد الكتب الثلاثة على الإعراب في توجيه التشابه وذلك بإعراب ﴿**يذبحون**﴾ ذلك أن معرفة الإعراب سبيل إلى فهم المعنى. هذا وقد اختلفت أقوال المفسرين والمعربين حول جملة يذبحون في البقرة والأولى فيها البدلية بحيث تكون بدل جملة من جملة وهي قوله ﴿**يسومونكم**﴾ وعليه يمكن فهم المعنى بحيث تكون جملة يذبحون مفسرة لجملة ﴿**يسومونكم**﴾. أما جملة ﴿**ويذبحون**﴾ فهو شكل آخر من أشكال العذاب عطف على السوم في إبراهيم[٣].

هذا ولقد تنبه العلماء منذ فترة مبكرة لبيان هذا الموطن من التشابه بين الآيات فيقول الفراء[٤] في كتابه معاني القرآن قوله (ويذبحون) وفي موضع آخر ﴿**يذبحون**﴾ بغير الواو وفي موضع آخر ﴿**يقتلون**﴾ بغير واو فمعنى الواو أنه يمسهم العذاب غير التذبيح كأنه قال يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٥٣-٥٧.

(٢) انظر ابن جماعة، كشف المعاني ص١٠٣، مسألة ٢٧. والسيوطي، معترك الأقران ١/٨٨.

(٣) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، انظر ١/٣٥١ حيث يستعرض الأقوال في إعراب ﴿يذبحون﴾في البقرة، وانظر كلامه حول الآية في إبراهيم ﴿ويذبحون﴾ ٥/٣٩٦. حيث يبدو واضح التأثر بتاج القراء. وممن توسع أيضاً في بيان هذه الأقوال الشيخ الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) (انظر ١/٥٢).

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن زياد. ت ٢٠٧ هـ. معاني القرآن، أنظر ١/٦٨-٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ) والذي يمكن ملاحظته على ابن الزبير في هذا الموطن وقوعه في التناقض دونما شعور منه بذلك. فقد تقدم لك قوله إن قصة آدم في البقرة جاءت في مقام الإخبار وليس في تعداد النعم. ثم ها هو الآن يقول في بيان مناسبة التعبير بنجينا في البقرة دون غيرها بأنه التكثير الذي يناسبه تعداد النعم في هذه السورة ويبدأ بتحليل آيات سورة البقرة من الآية الحادية والعشرين إلى أن يجاوز الخمسين من السورة نفسها وهو يبين الحقيقة الموضوعية في تعداد النعم، الأمر الذي يجعل كلامه عرضة للتناقض[١].

الآية الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [البقرة/٥٧، والأعراف/١٦٠]، وفي آل عمران [١١٧] **﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾** من دون [١١٧]. سبب ذلك أن آيتي البقرة والأعراف وسائر الآيات المختتمة بهذه الصيغة مضافاً إليها كان الناقصة تتحدث عن أقوام مضى ذكرهم. وأخص بالذكر هنا آيتي البقرة والأعراف فهي في أخبار الماضين من بني إسرائيل. أما ما كان في آل عمران فهي في أخبار اليهود الذين عاصروا زمان التنزيل فلم يحتج لوضع (كانوا)[٢]. وهذا أمر من اليسر بمكان بحيث يمكن فهمه من خلال مراجعة السياق القرآني لكل آية من الآيات.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [البقرة/٥٨-٥٩] **﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾.**

أجابت كتب المتشابه اللفظي عن عشرة من أوجه الاختلاف بين هذين الموضعين على تفاوت في ما بينها وهذه الوجوه هي:-

الأول: أنه قال في البقرة: **﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾**،وفي الأعراف [١٦١-١٦٢] :**﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾** وذلك لأن الدخول يؤمر به قبل الأمر بالسكنى فجاء متناسقاً بين السورتين بحيث كان الأمر بالدخول أولاً فالسكنى ثانياً وفي ذلك مراعاة للترتيب في السور[٣].

---

(١) قارن بين ما جاء في ملاك التأويل ٥٣/١ فما بعدها، وبين ما تقدم في ٤١/١ حيث حديثه عن التشابه في قصة آدم بين البقرة والأعراف، وقد مر، وانظر ما تقدم ص ١٤١.

(٢) انظر البرهان ص٢٧، فقرة ١٦، وملاك التأويل ١٦٨/١.

(٣) انظر ملاك التأويل ٥٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني: قوله في البقرة: (فكلوا) بالفاء وفي الأعراف بالواو وذلك لأن الأكل مترتب على الدخول ويكون في عقبه. وهذا بخلاف ما في الأعراف حيث إن الأكل غير مترتب على السكنى فاقتضى الجمع بينهما بالواو التي تفيد مطلق الجمع[١].

الثالث: أنه زاد في البقرة لفظ ﴿**رغداً**﴾ دون الأعراف لأنه أسند الفعل إلى نفسه فناسب المقام الأشرف اللفظ الأكرم فعندما قال: ﴿**وإذ قلنا**﴾ أضاف الرغد ليتناسب مع علو ذاك المقام[٢]. ويرى ابن الزبير أن لفظ (الرغد) لم يذكر في آية الأعراف لأن حاصل معناه مفهوم من الأمر بالسكنى كما ورد في الأعراف فلم يحتج إلى ذكر الرغد لأن سياق الآية يوحي به حيث إن السكنى يفهم من ورائها الأكل إذ هما أمران متلازمان[٣].

الرابع: أنه قال في البقرة: ﴿**وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة**﴾ وعكس ذلك في الأعراف.

يرى الخطيب أن الموضعين سواء وخصوصاً أنه جمع بينهما بالواو التي تفيد مطلق الجمع، والأصل حكاية المعاني دون الألفاظ[٤].

ويركن تاج القراء إلى الاعتماد على تناسب الألفاظ فيرى أنه تم في البقرة تقديم ﴿**وادخلوا الباب سجداً**﴾ لأنه سبقه الأمر بالدخول في الآية نفسها ﴿**ادخلوا هذه القرية**﴾[٥].

ويرى ابن الزبير أن التقديم والتأخير بين البقرة والأعراف في هذا الموضع لإحراز المجموع وأن المراد بهذا القول ﴿**حطة**﴾ أن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده فالواو يحتمل هنا أن تكون بمعنى المعية. وقدم في البقرة ابتداء السجود لأن السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساوق المطلوبان فجاء ذلك على الترتيب الثابت بين السور[٦].

الخامس: قوله في البقرة: ﴿**نغفر لكم خطاياكم**﴾ بجمع التكسير الذي يفيد الكثرة، وفي الأعراف (خطيئاتكم) بجمع السلامة الذي يفيد التقليل. يرى الخطيب وتاج القراء أنه تعالى حين أسند الفعل إلى نفسه (وإذ قلنا) ناسب الإتيان باللفظ المشعر بهذه الكثرة تنبيهاً على سعة كرمه تعالى وجاء على القلة في الأعراف لأنه لم يسنده إلى نفسه حيث قوله: ﴿**وإذ قيل لهم**﴾ وإن كان مضمناً معنى كثرة المغفرة كما يقول الخطيب[٧].

---

(١) انظر البرهان ص٢٧، فقرة ١٧، وملاك التأويل ١/٦٠.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٦، والبرهان ص٢٧، فقرة١٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٦٠.

(٤) انظر درة التنزيل ص١٦،١٧.

(٥) انظر البرهان ص٢٧، فقرة ١٧.

(٦) انظر ملاك التأويل ١/٦٠،٦١.

(٧) انظر درة التنزيل ص١٥، ١٦ ، والبرهان ص٢٧، فقرة١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى ابن الزبير أن جمع الكثرة -الخطايا- استعمل في البقرة دون الأعراف لأن آيات البقرة جاءت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل فناسب هذا التكثير[١].

السادس: قوله في البقرة: ﴿**وسنزيد المحسنين**﴾ وفي الأعراف ﴿**سنزيد المحسنين**﴾ دون واو.

يرى الخطيب أن سبب سقوط الواو من آية الأعراف ما امتنع في أولها من عدم جواز كون الفاعل جملة في قوله تعالى: ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية**﴾ فالفاعل يقدر على أنه القول وليس جملة (اسكنوا) على رأي البصريين. ولما لم يتعلق الفاعل (اسكنوا) بالفعل (قيل) صار منفصلاً عنه في الحكم وإن كان متصلاً به في اللفظ وجواب الأمر الذي هو (اسكنوا) قوله: ﴿**نغفر لكم خطاياكم**﴾ والجواب في حكم الابتداء كما ينفصل ولا دليل في اللفظ على انفصاله إلا بفصل ما أصله أن يكون متعلقاً به حرف عطف وهو قوله: ﴿**سنزيد المحسنين**﴾ وبحذف الواو منه واستئنافه خبراً مفرداً[٢].

ويرى ابن الزبير أن الواو ذكرت في آية البقرة مناسبة لمقام تعداد النعم[٣].

السابع: أنه قال في البقرة ﴿**فبدل الذين ظلموا قولا**﴾، وفي الأعراف: ﴿**فبدل الذين ظلموا منهم قولاً**﴾ يرى الخطيب أن التخصيص الذي جاء في الأعراف هو منسجم مع ما تقدم في الآية قبلها ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف/١٥٩] فناسب التخصيص التخصيص[٤].

في حين يرى ابن الزبير أن لفظ (منهم) في الأعراف إنما هو تخصيص سمعي للعموم البادي في سورة البقرة[٥].

الثامن: أنه قال في البقرة: ﴿**فأنزلنا على الذين ظلموا**﴾، وفي الأعراف ﴿**عليهم**﴾ وذلك إشعاراً بمزيد التخصيص الذي جاء في الأعراف دون البقرة[٦].

التاسع: أنه قال في البقرة ﴿**فأنزلنا**﴾، وفي الأعراف ﴿**فأرسلنا**﴾ وذلك لأن ذكر الرسول والرسالات كان أكثر في الأعراف فاقترن بلفظ الإرسال حسب ما يرى تاج القراء[٧].

ويرى ابن الزبير أن في الإنزال مزيداً من التعميم دون الإرسال الذي فيه التخصيص.

العاشر: قوله في البقرة: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾، وفي الأعراف: ﴿**بما كانوا يظلمون**﴾ ذلك أنَّ وصفهم بالظلم هو حري أن يكون من أول أوصافهم كما تقدم في الأعراف. ثم لما رأى من تماديهم في

---

(١) انظر ملاك التأويل ٦٢/١، ٦٣.

(٢) انظر درة التنزيل ص ١٧، ١٨، والبرهان ص٢٨، فقرة١٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ٦٣/١.

(٤) انظر درة التنزيل ص١٨، ١٩، والبرهان ص٢٨، فقرة١٧.

(٥) انظر ملاك التأويل ٦٣/١، ٦٤.

(٦) انظر المرجع السابق ٦٤/١.

(٧) انظر البرهان ص٢٨، فقرة١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعاصي وصفوا بالفسق كما في البقرة. ويعدّ ابن الزبير أن الوصف بالفسق أثقل من الوصف بالظلم موظفاً ما اطرد من شواهد القرآن في شأن بني إسرائيل مما ذكرته سورتا البقرة والأعراف حيث كانتا تذكران الوصف بالظلم ثم بالفسق[١].

والذي تلاحظه هنا اعتماد الكتب الثلاثة على فهم السياق القرآني وتناسب الألفاظ وما تقرر من حروف المعاني في أصول استعمالها. هذا ولقد كان للكتب الثلاثة أثر واضح في كلام المفسرين عن هذه الآيات والذي يمكن إجماله فيما يأتي:-

الأول: أما الزمخشري فيفرق بين الآيتين على الإجمال -أعني آيتي البقرة والأعراف- ويبدو تأثره واضحاً بما حكاه الخطيب وخصوصاً بالنسبة للتقديم والتأخير بين الأمر بالسجود وقول الحطة. ويرى أن قوله في الأعراف: ﴿**نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين**﴾ أنه وعد بشيئين، بالغفران، وبالزيادة. وطرح الواو لا يخل بذلك، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران؟. فقيل لهم سنزيد المحسنين. كما يرى أن زيادة (منهم) في الأعراف دون البقرة زيادة بيان وأن الإرسال والإنزال والظلم والفسق من واد واحد[٢].

الثاني: أما الفخر الرازي فكان هو الآخر ممن تأثر بفكر الخطيب لكنه لا يخفى وجود بعض الإضافات التي وقعت في تفسيره والتي يمكن أن نبرزها فيما يأتي:-

أ) قوله في أول آية البقرة: ﴿**وإذ قلنا**﴾ فصرح بذكر الفاعل بنون العظمة لأن الآيات في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل. أما في الأعراف فلم يصرح به فقال: ﴿**وإذ قيل**﴾ وذلك لتقدم ذكره في البقرة.

ب) قوله في البقرة: ﴿ادخلوا﴾، وفي الأعراف: ﴿**اسكنوا**﴾ وذلك لأن الدخول قبل السكون فجاء مبتدأ به ليناسب سورة البقرة لأنها قبل الأعراف.

جـ) قوله في البقرة: ﴿**وادخلوا الباب سُجداً وقولوا حطة**﴾ وعكس ذلك في الأعراف يرى الفخر الرازي أنه يحتمل أن يكون المأمورون بهذين الأمرين منقسمين إلى قسمين المذنبين وغير المذنبين. أما المذنبون فهم المقصودون بالتقديم في سورة الأعراف بحيث أمروا أن يدعوا الله بأن يحط عنهم ذنوبهم. أما غير المذنبين فهم المقصودون في سورة البقرة فقدم أمرهم بالسجود ومن ثم بالدعاء هضماً لأنفسهم عن الشرور.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٦٥-٦٧.

(٢) الزمخشري، الكشاف، انظر ٢/١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلت: ولعل مما يساعد هذا الاحتمال الذي أورده الفخر في تقسيم الفرقتين هو النظر في سياق كل من السورتين حيث قدم الفرقة غير المذنبة في مقام التكريم وتعداد النعم -أعني في البقرة- وقدم غيرهم في مقام التهديد والتقريع -أعني في الأعراف-.

د) قوله في الأعراف: ﴿**سنزيد المحسنين**﴾ دون واو وهذا كما يرى الفخر جاء على طريقة الاستئناف من باب توزيع الجزاء. بيان ذلك، أنه قال قبل هذه العبارة: ﴿**وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين**﴾ فقول الحطة يقابله الجزاء وهو المغفرة.

ودخول الباب في حالة من السجود يقابلها قوله ﴿**سنزيد المحسنين**﴾.

أما في البقرة فلم يأت توزيع الجزاء على هذه الطريقة إنما كان مجموع المغفرة والزيادة جزاءً واحداً لمجموع ما صدر منهم من الأفعال التي أمروا بها .

هـ) قوله في البقرة: ﴿**فأنزلنا**﴾ لأن الإنزال هو الذي يحدث في أول الأمر بالنسبة للعذاب فذكر أولاً في البقرة. أما الإرسال فذكر آخراً في الأعراف وهو يعبر عن شدة أكثر في العذاب الذي حدث لهم.

و) قوله في البقرة: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾، وفي الأعراف: ﴿**بما كانوا يظلمون**﴾ جوابه أنه تعالى لما بين كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة الأعراف لأجل ما تقدم من البيان في سورة البقرة[١].

وذكر الفخر وجوهاً أربعة أخرى تجاوزت عنها لأنها أثر مما جاء عند صاحب الدرة.

٣) أما أبو حيان فينقل رأي كل من الزمخشري وتاج القراء والرازي في هذه الآيات حيث يقتضب شيئاً من كلام كل من الثلاثة في بيان الفروق بين الآيتين من البقرة والأعراف[٢].

وأود أن أشير -قبل أن أختتم الحديث عن هذه الآية- أن كلام الرازي وابن الزبير في فائدة تقديم الأمر بالسجود في البقرة دون الأعراف يعدّ أدق مما جاء عند الخطيب والزمخشري وما تابعهما عليه أبو حيان في هذا الشأن.

فمن المسلم به عند اللغويين أن (الواو) تفيد مطلق الجمع بحيث لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، لكنه من غير المعقول أن نطبق هذا الأمر على ما جاء في القرآن فكل ما قدم وأخر سواء بالواو أو غيرها لابد من أن يكون وراء تقديمه هدف أو حكمة بيانية وسواء أجهلنا ذلك المقصد أم عقلناه[٣].

---

(١) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ٣/٩٢-٩٤.

(٢) أبو حيان البحر المحيط، ٤/٤٠٦،٤٠٧.

(٣) الأستاذ أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، انظر ص١١٢، حيث يسعى الأستاذ إلى تقرير هذه الحقيقة في شأن التقديم والتأخير في القرآن بعامة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآية الثالثة عشرة قوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾ [البقرة/٦٠]، وفي الأعراف [١٦٠]: **﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾** .

يرى تاج القراء أنه عبر بالانفجار في البقرة لأن معناه انصباب الماء الكثير وقد جاء مناسباً لما استكملت به الآية **﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾** أما الانبجاس فهو انصباب الماء القليل وعبر به حيث لم يتعلق بالشرب كما في البقرة وإنما تناسباً مع ما جاء في الآية نفسها **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾**[١].

أما ابن الزبير فقريب من صاحبه غير أنه يذكر أن الانبجاس أول الانفجار. وقد عبر بالانبجاس في الأعراف تناسباً مع طلب قوم موسى -عليه السلام- للسقيا، فناسبت بداية الطلب بداية الانفجار وهو الانبجاس، أما في البقرة فقد كان امر السقيا طلباً من موسى نفسه إذ استسقى لقومه فناسب مجيء الانفجار لأنه في مرحلة متأخرة بعد طلب قومه[٢].

وهناك من يرى أن الانفجار ذكر تناسباً مع مقام تنويع النعم في البقرة[٣] ولا يلتفت إلى القول بعدم الفرق بينهما وأن ذلك من تنويع الفصاحة كما أورد ذلك ابن جماعة في ثاني القولين عنده.

ويرى الراغب أن الانبجاس خروج الماء من مكان ضيق بخلاف الانفجار الخارج من مكان واسع[٤]، في حين يرى صاحب الكشاف أنهما بمعنى واحد[٥] والأصل خلافه كما تبين عند الكرماني وابن الزبير حيث من الواضح أن رأي كل منهما مكمل لصاحبه.

الآية الرابعة عشرة قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ [البقرة/٦١]، وفي آل عمران [١١٢] **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الناس وحبل من الله وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾**. يرى ابن الزبير أنه جاء التعبير في البقرة على هذه الصورة لأن اليهود سألوا ما يستوجب ذلهم وخستهم وهو إنبات الأرض من سائر صنوف النبات الذي فضلوه على المن والسلوى الذي كان ينزل لهم عند الحاجة فناسب ذلك ضرب الذلة والمسكنة عليه وبوئهم بغضب الله سبحانه.

أما في آل عمران فقد قدم استحقاقهم لغضب الله تناسباً مع ما مر ذكره من إيذانهم للمسلمين

---

(١) انظر البرهان ص٢٨، فقرة١٨.

(٢) انظر ملاك التأويل ٦٧/١، ٦٨.

(٣) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص١٠٧، مسألة ٣١.

(٤) الراغب مفردات القرآن، انظر ص١٠٨.

(٥) الزمخشري، الكشاف، انظر ١٦٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو قوله تعالى: ﴿**لن يضروكم إلا أذى**﴾ [آل عمران/١١١] [١].

الآية الخامسة عشرة قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق**﴾ [البقرة/٦١]، وفي آل عمران [١١٢]: ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ وهناك آيات أخرى قريبة من هذه الألفاظ كقوله تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق**﴾[آل عمران/٢١]، وقوله: ﴿**وقتلهم الأنبياء بغير حق**﴾ [النساء/١٥٥] وغيرها من الآيات فمثل هذه الصيغ ليست من المتشابه. فليس من المتشابه اللفظي إلا آيتا البقرة وآل عمران المتقدمتين لأنهما تشتركان في اللفظ بالإضافة إلى أنه تعقيب متكرر على موقفين مختلفين من مواقف أهل الكتاب.

يرى تاج القراء أن (الحق) جاء معرفاً في البقرة لأن المقصود به الحق أو الشرع الذي من الله تعالى أما التنكير للحق في غيرها فالمقصود به بغير حق في معتقدهم ودينهم. كما يرى المناسبة اللفظية في جمع النبيين جمع السلامة وذلك لأنه ذكر الصابئين في الآية التي بعدها على هذه الصيغة من الجمع. وكذلك الحال في آل عمران فقد جمع النبيين في الآية الأولى منها[٢] موافقة لقوله: ﴿**معرضون**﴾ [آل عمران/٢٣] .. الخ[٣].

ويرى ابن الزبير أن المقصودين في آية آل عمران: ﴿**ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ هم اليهود المعاصرون لزمان التنزيل فجاء تنكير (الحق) مبالغة في ذمهم فكأنه قال إنهم كانوا يفعلون ذلك بغير شبهة ولا سبب. أما التعريف الذي في البقرة فهو ليس في قوة المنكر خصوصاً إذا ما علمنا أن الآية في من مضى من بني إسرائيل الذين كان منهم الصالحون ومن هم دون ذلك. والمقصود بالحق الذي في البقرة أي ذلك الشرع الذي أنزله الله إليهم حيث حرم عليهم قتل النفس وقتل الأنبياء، و(اللام) هنا للعهد أي بغير الحق المعهود عندهم في شرعهم.

أما جمع النبيين جمع السلامة في البقرة فذلك لسببين **الأول**: مناسبة شرف الجمع لشرف المجموع وذلك لأن جمع السلامة يختص في أصل الوضع بأولي العلم. **والثاني**: مناسبة حرف المد في جمع السلامة لأداة التعريف في لفظ الحق. أما آية آل عمران: ﴿**ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ حيث جاء على جمع التكسير فإنه لما لم يكن في هذه الآية إلا شرف المجموع -أي الأنبياء- والعرب تتجوز في لغتها فتوقع جمع التكسير على غير أولي العلم ناسب ذلك الإتيان بجمع التكسير ليكون القرآن آتياً على اللغتين ولا يبقى لمن يريد تحدي هذا القرآن حجة[٤] أما قول ابن الزبير يكون جمع السلامة مختص بأولي العلم فيعزوه

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٦٨-٧٠.

(٢) المقصود بالآية الأولى من آل عمران هي الآية ٢١، ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾.

(٣) انظر البرهان ص٢٨، ٢٩، فقرة ١٩.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٧٠-٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدليل. فقد استخدم القرآن جمع السلامة في أولي العلم وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف/١٩٩].

ويرى الفخر الرازي أن (الحق) المعرف المذكور في البقرة هو المعلوم عند المسلمين وما أقره شرعهم. وأما (الحق) المنكر في غيرها -أعني في آل عمران- فالمراد به تأكيد العموم أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره البتة[١].

والذي تلاحظه قرب الشقة بين كلام الرازي وابن الزبير في هذه المسألة.

وقريباً من هذا ذهب القاضي ابن جماعة حيث أن (الحق) المعرف في البقرة المقصود به الحق المعروف المعهود في تشريع قدامى اليهود الذين حرم عليهم قتل الأنبياء. وجاء منكراً في آل عمران مبالغة في ذمهم وتوبيخهم، فكأنه يقول إنهم قتلوهم ظلماً وعدواناً[٢].

وقد اعترض القيسي في دائرة بحثه على هذا المسلك الذي تعارف عليه العلماء في تعليل تعريف وتنكير صيغة (الحق) ما بين البقرة وآل عمران حيث يقول: "غير أني أرى أنّ الأقرب إلى معنى السياق وإلى كلمة (الحق) التي وردت معرفة تسع عشرة مرة في هذه السورة -البقرة- هو أن (ال) هي الجنسية لأن تكرر كلمة (الحق) تسع عشرة مرة يدل عل التعدد. أي على استغراق جنس الحق، كأن المؤدى ويقتلون النبيين بغير وجه حق من وجوه الحق الكثيرة. أما كلمة(حق) الواردة نكرة في آل عمران والنساء فواضح أنها نكرة والنكرة شبيهة بالمعرفة التي تدل على استغراق الجنس فقوله ﴿**ويقتلون النبيين بغير حق**﴾، أي بغير حق ما ، أو بغير وجه حق من وجوه الحق الكثيرة". وينتهي القيسي إلى القول إن هاتين الصيغتين (حق والحق) تدلان على شيء واحد وهو استغراق وجوه الحق الكثيرة . ويرد اختصاص آية البقرة بالتعريف وآل عمران بالتنكير لسببين هما:-

الأول: أن الحق جاء معرفاً في البقرة بـ (ال) في تسع عشرة مرة ومرة معرفاً بالإضافة.

وفي آل عمران جاء معرفاً سبع مرات ومنكراً أربع مرات فناسب التنكير في آل عمران والتعريف في البقرة.

والثاني: أن هذه الصيغة المنكرة في آل عمران وردت مرتين لكي تكون على مستوى الصيغة المعرفة في البقرة والتي وردت مرة واحدة وذلك لأن الصيغة المعرفة أقوى من الصيغة المنكرة[٣].

ويمكنني مما تقدم تسجيل الملحوظات التالية:-

أ) أن بحث القيسي للفرق بين هاتين الصيغتين من حيث التعريف والتنكير يخرج عن الدائرة التخصصية لتلك الدراسة بيان ذلك أنه أورد هذا التفريق في فصل تنوع صيغ المصادر الراجعة لأصل

---

(١) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ٣/١٠٣.

(٢) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص١٠٨، مسألة ٣٢.

(٣) القيسي، تنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم ص٢٤٥،٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لغوي واحد ولا ريب في أن الحق هو من هذه المصادر لكن صيغة هذا المصدر لم تتغير من حيث ذاتها بل من حيث التعريف والتنكير الذي لزمها.

وكان الأجدر به أن يدرس هذه الصيغة دراسة موضوعية في جميع القرآن كونه تعهد بالتفريق بين التعريف والتنكير لهذه الصيغة.

ب) مخالفته لمسلك العلماء في أن (ال) هي العهدية كما تقدم عند الرازي وابن الزبير.

جـ) اجتزاؤه بعض آراء المفسرين من دون أن يكملها كما يتبين من النقول التي كان يوردها عن الفخر الرازي وابن جماعة، هذا عدا عن النقولات غير المهمة، التي لا تخدم هذا الموضوع[١].

د) كما أنه يستند إلى طرف غير قوي من أطرق التناسب بالنسبة لتعليل مجيء (الحق) معرفاً في البقرة دون غيرها، ولا يخدم ما تبناه البيان القرآني نظراً لارتكازه إلى أسس عددية بحته .

الآية السادسة عشرة قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة/٦٢] وفي المائدة [٦٩]: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** وفي الحج[١٧]: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾**.

يرى الخطيب أن ترتيب هذه الطوائف إنما وقع في البقرة بحسب ترتيب الكتب فالذين آمنوا هم المؤمنون بصحف إبراهيم يليهم اليهود فالنصارى. ثم أتبعهم بذكر الصابئين لأنه لا كتاب لهم. أما في آيتي المائدة والحج فجاء ترتيبهم على حسب الزمان ولهذا قدم الصابئين في المائدة دون غيرها ذلك لأنه من التقديم الذي جاء على نية التأخير فالتقدير أن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله فلهم أجرهم والصابئون هذا حالهم. وفي الحج زاد ذكر المجوس والذين أشركوا فهذا أيضاً من الترتيب الزماني وإن كان المشركون من أقدم المعاندين للأنبياء إلا أنه أراد تخصيص زمانهم بزمان نبينا -صلى الله عليه وسلم- من باب التغليب[٢].

ويلخص ابن الزبير مواطن الاختلاف بين هذه الآيات الثلاث في أربعة وجوه هي:-

الأول: تقديم النصارى على الصابئين في البقرة وتأخيرهم عنهم في المائدة. يرى أن سبب ذلك أن الآيات جاءت مرتبة لهذه الطوائف فذكرت المؤمنين أولاً لعلو شرفهم وأنهم الموجه إليهم الخطاب

---

(١) القيسي، انظر ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) انظر درة التنزيل ص٢٠-٢٢، والبرهان ص٩٣ج١ فقرة ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابتداء ثم ذكر الذين هادوا والنصارى عَلى اعتبار مشاركتهم للمؤمنين بأن لكل من الثلاثة كتاباً سماوياً أما الصابئون فليس لهم ذلك الكتاب فطوى ذكرهم في البداية وجعلهم آخر هذه الطوائف الأربع.

ويرى ابن الزبير أن هذه الطوائف رتبت على حسب أحوالها الدنيوية، وأنها جميعاً متحدة بالغايات إذ كل محاسب بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم تقدم ذكر الصابئين في المائدة لبيان أن لا ترتيب في الغاية الأخروية، فكل مجازى بعمله سواء تقدم الصابئون على النصارى أم تأخروا عنهم فكل حسب عمله.

الثاني: أنه قال في البقرة: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ و لم يقل ذلك في المائدة وذلك لتقدم تقرير جزاء المؤمنين من أهل الكتاب حيث قوله في ما قبل هذه الآية: ﴿**ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم**﴾ [المائدة/٦٥] ولهذا طوى ذكر الأجر لتقدم الإخبار به خشية أن يكون ذكره من التكرار غير المفيد.

الثالث: أنه جاء ذكر الصابئين في المائدة مرفوعاً على القطع عما قبله زيادة في التأكيد على الغرض المذكور وهو تساوي الكل في الجزاء -أعني جميع هذه الطوائف- إن هم وفوا بشرط الإيمان وهو تقديم على نية التأخير فكأنه قال: والصابئون هم كذلك أن وفوا بشرط الإيمان فحالهم كسائر الأمم والملل.

الرابع: أما اختصاص آية بذكر المجوس والذين أشركوا وذلك لأن الآية بنيت على التعريف بهذه الطوائف يوم القيامة حيث اختصت الآية بهذا الأمر دون غيرها[1].

والذي تلاحظه أن ابن الزبير هذه المرة كان أكثر دقة وشمولاً في بيان أوجه الاختلاف بين هذا الموضع من التشابه. فتلاحظ من جهة أولى أن عدّ ابن الزبير الذين آمنوا بأنهم جماعة المؤمنين بهذا الدين أكثر دقة مما حكاه الخطيب في أنهم من آمنوا بصحف إبراهيم -عليه السلام- وكلام المفسرين خير شاهد على ما ذهب إليه ابن الزبير.

فإذا ما رجعت إلى تفسير ابن جرير تجد أنه يفسر الذين آمنوا بأنهم المصدقون برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وبعد أن يفسر هذه الآية يتساءل -رحمه الله- كيف قال: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾... ثم قال: ﴿**من آمن بالله**﴾ يجيب عن ذلك بقوله إن المقصود بهذا الشرط من ثبت على الإيمان والتصديق[2].

كما نلاحظ من جهة ثانية وضوح تأثر ابن الزبير بصاحب الكشاف حين ذكر سبب تقديم الصابئين عل النصارى في المائدة حيث يقول الزمخشري في هذا الشأن فائدة هذا التقديم التنبيه على أن

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٧٤-٧٩.

(٢) الطبري، جامع البيان، انظر ٢/١٤٣، و ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح وذلك لأنهم أشد هذه الفرق ضلالاً، وأن مجرى جملة تقديم الصابئين جاءت مجرى الاعتراض في الكلام. كما يقدم قولين في تفسير الذين آمنوا إما أن يكونوا أهل النفاق أو من ثبت على الإيمان[١].

الآية السابعة عشرة قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾ [البقرة/٦٣]، ثم قال في ما بعد [الآية/٩٣]: **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾**.

فالمخاطبون بالآيتين هم بنو إسرائيل لكنه قال لهم في المرة الأولى: **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾** وذلك ليتناسب مع ما أخبرهم به من قبل من حال الكتاب المنزل على موسى -عليه السلام- وأنه إنما جاء هدى للناس **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾** [البقرة/٥٣] وفي الآية الثانية قال لهم: **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾** حيث طولب اليهود بالسماع تناسباً مع ما تقدم من إنكارهم لأحقية القرآن وإمامة هذا الدين في الأرض وهم يعلمون أنه الحق من ربهم[٢].

الآية الثامنة عشرة قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ [البقرة/٨٠]، وفي آل عمران [٢٥]: **﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾**.

يرى الخطيب وتاج القراء أنه قال في البقرة: **﴿معدودة﴾** على الأصل لأن الأصل في ما واحده مذكر أن يجمع وصفه ويكون مؤنثاً بالتاء. أما في آل عمران فجاء على الفرع الجائز فقال: (معدودات) وهذا على ضرب من المجاز والتقدير في ساعات أيام معدودات.

فجاء هكذا على ضرب من التجوز والتشبيه[٣].

ويرى ابن الزبير أن التأنيث بالتاء لوصف المفرد المجموع غير العاقل أمر مشتهر في اللغة وكذلك الحال بالنسبة لجمع هذا الوصف بالألف والتاء فكلاهما لغة فصيحة.

لكن سبب الاختلاف في نظره هو شيء آخر ذلك هو أنه روعي في البقرة مقام الإيجاز فقال: (معدودة) وروعي في آل عمران مقام الإطناب فقال: (معدودات) لما سبق في الآية: **﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾** وهذا لم يكن في البقرة وتقدم آية آل عمران وصف ما هم عليه من سوء المرتكب أكثر مما في البقرة[٤].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، انظر ١/٦٦١.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٧٩-٨٠.

(٣) انظر درة التنزيل ص٢٢-٢٤، والبرهان ص٢٩، فقرة٢١.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٨٠-٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي تلاحظه أن كلام الخطيب وتاج القراء كان أكثر إقناعاً من ابن الزبير هذا على الرغم من أنهما لم يذكرا لماذا جاء الوصف للجمع الذي واحدة مذكر بالتاء في البقرة وبالألف والتاء في آل عمران فلم يبين أي منهما لماذا جاء الأصل في البقرة والفرع في آل عمران. وبالرغم من أن ابن الزبير قد تمحل في الإيجاز والإطناب إلا أنه ليس كافياً ولا مقنعاً ذلك أن كلاً من الآيتين -في البقرة وآل عمران- جاءت تذكر سوء مرتكبات يهود فلم يكن ثمة فاصل بينهما من حيث الإيجاز والإطناب.

وممن اقتبس كلام الخطيب وتاج القراء في هذا الموضع الفخر الرازي في تفسيره[١].

وهناك من يرى أن (معدودة) جمع كثرة و (معدودات) جمع قلة وأن قائلي ذلك فرقتان من اليهود ففرقة قالت إنها تعذب بالنار سبعة أيام وأخرى قالت: أربعين يوماً[٢]. وأعترض على مثل القول لعدم ورود ما يصدقه من الأدلة.

قلت: ولعل الأصل في اقتران الوصف بالتاء ما ذكر أولاً مراعاة للترتيب الثابت ثم جاء الفرع في ما بعد وهو اقتران الوصف بالألف والتاء فقال: (معدودات) والله أعلم بمراده.

الآية التاسعة عشرة قوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ [البقرة/٩٤، ٩٥] وفي الجمعة[٦،٧]:: **﴿فتمنوا الموت إن كنت صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾**.

يرى الخطيب ومن بعده تاج القراء أن آية البقرة اقترنت بلن لقوة الشرط الذي تقدمها في الآية السابقة والذي لا مطلوب بعده وهو ما جاء في قوله تعالى: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت﴾** فلما كان خلوص الجنة لليهود أمراً لا مزيد عليه لمستزيد أكد نفي تحقق جواب الشرط لذلك الطلب وهو تمنيهم للموت حيث أكده بلن الدالة على البت والقطع. أما في آية الجمعة فلم يكن زعمهم الولاية لله من دون الناس بقوة الطلب الأول وعلى هذا أكد نفي جواب الشرط وهو تمنيهم للموت بأداة بخلاف التأبيد المفهوم من (لن) التأبيدية[٣].

ويرى ابن الزبير أن النفي بلن الذي في البقرة أكثر تأكيداً من الذي في الجمعة.

وأن النفي الذي في البقرة جاء متعلقاً بأمر أخروي يقع في المستقبل وهو خلوص الجنة لليهود في الآخرة فناسب ذلك النفي بلن الدالة على نفي الاستقبال. أما آية الجمعة فنفت عنهم تمني الموت بلا لأن الأمر متعلق بحالة دنيوية وهي زعم الولاية لله من دون الناس وقوله: (أبداً) في آية الجمعة هو الآخر يفيد الاستقبال غير أن النفي بلن يفيد معنى أكثر تأكيداً في النفي[٤].

---

(١) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ٣/١٤٢.

(٢) ابن جماعة كشف المعاني، انظر ص١١٥، مسألة ٣٨.

(٣) انظر درة التنزيل ص٢٤،٢٥، والبرهان ص٣٠، فقرة ٢٢.

(٤) انظر ملاك التأويل ١/٨٣-٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقتبس الفخر الرازي رأي الخطيب قائلاً إن مجيء (لن) في إبطال الدعوى العظمى في القوة وهي خلوص الدار الآخرة لهم فناسب الأمر نفيها بلن الدالة على التأكيد ودعوى الولاية أخف منها فناسب نفيها بلا كما وقع في الجمعة[١].

وبالرغم من وجاهة هذا الرأي الذي سار عليه الأكثرون -أعني الخطيب والكرماني والرازي وغيرهم- فإن هذا لا يمنع من أن يضاف رأي ابن الزبير بحيث لا تناقض بين الرأيين.

ويجدر بإشارة هنا أن أقرر أن التأبيد مفهوم في آيتي البقرة والجمعة من قوله: (أبداً) وليس من (لن) كما ألمح الخطيب إلى هذا. فحقيقة (لن) كما يرى الزمخشري أنها مثل (لا) في نفي الاستقبال إلا أنها أكثر تأكيداً لنفي المستقبل من (لا)[٢] فلا صحة إذن للقول إن (لن) تفيد تأبيد النفي كما نسب إلى الزمخشري.

الآية الموفية العشرين قوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ [البقرة/١٢٠] وقال في ما بعد **﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين﴾** [البقرة/١٤٥] ، وفي الرعد [٣٧]: **﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾**.

يفرق الخطيب -وكما يتابعه تاج القراء- بين هذه الآيات من جهات ثلاث هي:-

الأولى: أنه في آية البقرة الأولى عبر بالاسم الموصول (الذي) وفي الآيتين الأخريين عبر بـ (ما) فقال: **﴿بعد ما جاءك من العلم﴾**. والسبب في ذلك أنه عبر باللفظ الأشهر والأكمل في التعريف وهو (الذي) في الآية الأولى وذلك تعقيباً على ما تقدم من قوله تعالى في الآية نفسها: **﴿قل إنَّ هدى الله هو الهدى﴾** أي أن الدين الذي اختاره الله هو السبيل والصراط الحق. ومن هنا قال له: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم...﴾**.

وذلك لأن المقصود بالعلم هو علم هذا الدين بعامة فعبر عنه باللفظ الأشهر وهو (الذي).

أما في الآيتين الأخريين فلم يقصد العلم كله إنما بعض هذا العلم فعبر عنه بلفظ (ما) الأقل شهرة في التعريف. ففي أولاهما علم القبلة وفي الثانية علم أن القرآن حكم عربي- على حد قول تاج القراء-، أو هو علم ما أنكره الأحزاب من القرآن على حد رأي الخطيب. وأياً كان هذا العلم فهو من بعض علوم هذا الدين التي ناسبها التعبير الأقل شهرة من (الذي). هذا وقد سبق بيان رأي الخطيب في الفرق بين (ما والذي) أثناء الحديث عن الأسماء الموصولة في كتب المتشابه اللفظي في الباب الأول[٣].

---

(١) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ١٩٢/٣.

(٢) الزمخشري، الكشاف، انظر ١٠٨/١.

(٣) انظر ما تقدم ص١٠٣ — ١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثانية: والوجه الثاني أن آية القبلة خصصت بمن دون الآيتين فقال: ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ فكأنه قال له، ولئن اتبعت أهواءهم من الوقت الذي جاءك العلم فيه بالقبلة التي وليتها وأمرت بالتوجه نحوها فجاء ذكر من إذن تناسباً مع ما وُقّت في شأن القبلة وهذا خلاف ما كان في الآيتين الأخريين حيث لم تذكر من التي تفيد ابتداء الغاية.

الثالثة: ثم يتفرد الخطيب ببيان هذا الوجه من الاختلاف وهو ختم الآية الأولى والثالثة بالوعيد الشديد حيث قال في الأولى جواباً للشرط المتقدم: ﴿**ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾ وقال في جواب الثالثة: ﴿**ما لك من الله من ولي ولا واق**﴾ فهو وعيد متشابه لأن المتوعد عليه شيء كبير وهو إتباع أهواء أهل الكتاب بترك الدين أو بعض منه مما يستوجب أشد الآثام. وهذا ما لم يكن في الثانية – أعني في آية القبلة– حيث جاء جواب الآية بالوعيد الأخف وهو قوله: ﴿**إنك إذن لمن الظالمين**﴾ وذلك لأن القبلة من الأمور الجزئية التي كانت قابلة للنسخ في ذلك الزمان –أعني زمان التنزيل–[1].

أما ابن الزبير فيركن إلى نظرية الإيجاز والإطناب في بيان هذا الموضع من المتشابه ويستعين بظاهرة تناسب الآي وتاريخ النزول وذلك من خلال التوجيهين الآتيين:–

الأول: أن آية الرعد أوجز الآيات الثلاث لأنه لم يتقدمها شيء من صنيع أهل الكتاب سوى ما بينته الآيات من إنكار الأحزاب من أهل الكتاب لبعض ما جاء في القرآن. وهذا على خلاف ما جاء في آيتي البقرة فقد تقدم كلاً منهما الإفاضة في وصف سوء مرتكب أهل الكتاب فكان الوعيد ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**﴾ أكثر إطناباً من آية الرعد. ويستدل ابن الزبير على نظريته تلك بأن (ما) أوجز من (الذي) فروعي الإيجاز في الرعد والإطناب في البقرة. كما أن كلمة (واق) أوجز من كلمة (النصير) وهكذا حتى يصل إلى ما يريد[2].

الثاني: أما التوجيه الثاني فيستند فيه ابن الزبير إلى تاريخ النزول بدلاً من استناده إلى المناسبة كما رأينا في التوجيه الأول، فيرى أن آية الرعد مكية والسور المكية جاءت على ضرب من الإيجاز أما التفصيل فكان في السور المدنية.

وعلى هذا روعي مقام الإيجاز في الرعد ومقام التفصيل في البقرة. ثم يقرر ابن الزبير جواز اتحاد هذين التوجيهين بحيث يكمل كل منهما الآخر[3].

هذا هو رأي ابن الزبير في هذا الموضع وقد أوردته بشكل مقتضب ومع تقديرنا لهذا القول إلا أنه لم يبين لنا مثلاً لماذا عبر بلفظ (ما) الموصولة في آية القبلة ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ وهي أكثر

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٥ – ٢٩، والبرهان ص٣٠،٣١، فقرة٢٤.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٨٥ – ٨٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآيات الثلاثة إطناباً كما يرى هو بنفسه وقد سبق أن اخبرنا أن (ما) أوجز من (الذي) فبماذا يفسر ذلك؟.

ومن جهة ثانية فإن اعتماده قضية عد حروف الكلمات أمر لا فائدة فيه البتة حيث بين أن (ما) تتألف من حرفين و(الذي) من ثلاثة حروف.

ومن هنا كان رأي الخطيب أخلق بالقبول في هذا الموضع من المتشابه حيث تلاحظ فيه العمق والأصالة العلمية وخاصة حين فرق بين (ما والذي) من حيث الوجوه والاستعمالات اللغوية ثم بنى عليها رأيه في توجيه المتشابه.

الآية الحادية والعشرون قوله تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾[البقرة/١٢٥]، وفي الحج [٢٦]: **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾**.

يتساءل ابن الزبير عن سبب اختصاص آية البقرة بالعاكفين وآية الحج بالقائمين.

يجيب عن ذلك بأن المقصود بالقيام في الحج هو الملازمة على صفة مخصوصة فهو العكوف نفسه غير أنه في الحج وصف العاكفين بأنهم القائمون لتقدم ذكر العاكفين في البقرة بحيث ذكرت كلمة القائمين والمراد بها العاكفون خشية أن يقع تكرار في الآيتين. وعليه فكأنه قال في الحج:- والقائمين العاكفين.

وفي هذا الصدد يرد ابن الزبير على من فسر معنى القائمين بأنهم المصلون وذلك لأن المصلين هم الموصوفون بقوله: **﴿والركع السجود﴾**[١].

ويرى تاج القراء أن آية الحج اختصت بذكر القائمين لأن العكوف ورد قبل هذه الآية -أعني آية الحج- [٢٥] وهو قوله تعالى: **﴿سواء العاكف فيه والباد﴾** ويورد معنيين للقائمين إما أن يكونوا المصلين أو المقيمين من القيام[٢].

هذا وممن فسر القائمين بأنهم المصلون الزجاج وفسر العكوف الذي في البقرة بأنه القيام على الشيء[٣]

هذا ومن الأرجح تفسير القائمين بأنهم المصلون فإن في هذا التفسير تجنيباً للقرآن لدعوى القول بالترادف وخصوصاً إذا ما عدّدنا القيام بمعنى الملازمة كالعكوف.

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/٨٨،٨٩.

(٢) انظر البرهان ص١٣٥، فقرة ٣٢٤.

(٣) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، انظر ١/٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي تلاحظه أن ابن الزبير سعى إلى تفسير العكوف بالقيام فراراً من تكرار الألفاظ ولكن الذي يوضح أن القائمين غير العاكفين هو تكرار لفظ (الطائفين والركع السجود) فلإن كانت العرب تفر من تكرار الألفاظ بنفسها فلماذا كان هذا التكرار؟.

فلم يكن القيام إذن مذكوراً في الحج ليستعمل لمعنى العكوف ولو كان ذلك صحيحاً لأوجد القرآن ألفاظاً أخرى مرادفة لبقية ما ذكرته الآية -أعني الطائفين والركع السجود- .

فالقائمون إذن هم المصلون والعاكفون مأخوذ من العكوف الذي هو الإقبال على الشيء الذي يراد تعظيمه[١] .

وعلى هذا يكون العكوف أعم من القيام ويمكن أن يكون داخلاً في دائرة الأعمال التي يحتملها معنى العكوف.

ولهذا فقد جاء ذكر اللفظ الأعم في البقرة - وهو العكوف- ليتناول كل من أقبل على البيت الحرام معظماً له طالباً الأمن إلى جواره. وفي سورة الحج ذكر اللفظ الأخص- وهو القيام- من باب ذكر الخاص بعد العام، وحتى يتناسب مع ما أمر به إبراهيم عليه السلام من عدم الشرك، وما يتعلق بتقرير فريضة الحج التي هي من ركائز هذا الدين فناسب هذا السياق ذكر القائمين الذين هم بمعنى المصلين.

في حين أن سياق آية البقرة جاء في الحديث عن مكان البيت الحرام، وكيف جعله الله ملاذاً لمن يطلبون الأمن إلى جواره في ذلك البلد الحرام، وذلك من خلال لزوم الإقامة فيه فكان الأنسب ذكر لفظ العكوف الذي هو بمعنى الانحباس.

أما لفظ (الركع السجود) فهي أوصاف أخرى للمصلين، ولا تتعارض مع وصفهم بالقائمين.

الآية الثانية والعشرون قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمناً﴾ [البقرة/١٢٦]، وفي إبراهيم [٣٥] **﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾** بالتعريف.

تقدم كتب المتشابه في سبب التنكير والتعريف للبلد في كل من الموضعين أجوبة مختلفة وهذه الأجوبة هي:-

الأول: ذكر الخطيب أن الدعوة الأولى التي في البقرة كانت قبل أن يكون ذلك المكان بلداً آمناً، فكأنه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمنا. أما الدعوة الثانية التي في إبراهيم فكانت بعد جعله بلداً آمناً فكأنما قال: (اجعل هذا المكان الذي صيرته ذا أمن كما أردت بلداً آمناً فكان التعريف).

فكان التعريف حين كان البلد معرفاً بالبلدية وكان التنكير حين كان مكاناً كسائر الأمكنة بحيث لم يكن بعد جعله كما هو الآن.

---

(١) الراغب، مفردات القرآن، انظر ص٥٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني: أن الدعوتين في البقرة وإبراهيم كانتا بعد تصيير البلد بلداً آمناً ولكن جاء الإخبار في البقرة على طريق إثبات الصفة للموصوف كما تقول: كان اليوم يوماً حاراً فأنت لا تثبت خبر كان وإنما تثبت له صفة الحرارة.

ومن هنا فقوله: اجعل هذا بلداً آمناً في البقرة يجوز أنه أراد إثبات الوصف والتقدير اجعل هذا البلد بلداً آمناً.

ويكون مثل قوله في إبراهيم: ﴿**اجعل هذا البلد آمناً**﴾ فتكون الدعوة واحدة.

الثالث: أن التنكير للبلد في البقرة عندما أعيد في إبراهيم صار معرفة كما تقول: رأيت رجلاً ثم تعيد بقولك: فأكرمت الرجل. ينقل الخطيب هذا الرأي مستبعداً إياه[١].

الرابع: ويرى ابن الزبير أن تنكير البلد في البقرة جاء لتقدم التعريف به في قوله تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا**﴾ [البقرة/١٢٥] فلم يحتج إلى إعادة تعريف البلد وجاء التنكير مراعاة لمقام الإيجاز. وفي إبراهيم لم يتقدمه ذكر البيت فجاء البلد معرفاً تبعاً لاسم الإشارة و(أل) هنا هي الجنسية[٢].

ويقتبس الفخر الرازي القولين الأولين الذين عند الخطيب مع تجلية أكثر للقول الثاني الذي كان عند صاحب الدرة حيث يبين أن تنكير البلد في البقرة يفيد المبالغة ذلك أن التنكير جاء بهذا القصد. فالدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً. فقوله في البقرة: ﴿**اجعل هذا بلداً آمناً**﴾ تقديره اجعل هذا البلد بلداً آمناً -كقولك- كان اليوم حاراً- وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة فقوله في البقرة بالتنكير للبلد يعني اجعلْه من البلدان الكاملة في الأمن. وأما تعريف البلد في إبراهيم فليس فيه إلا طلب الأمن للبلد لا طلب المبالغة[٣].

وما أورده الخطيب من القولين الأولين هو الأولى بالقبول لا سيما وأن هذه الأقوال كانت هي الأبرز فيما تبناه الذين جاءوا بعد أصحاب الكتب الثلاثة كالفخر الرازي وابن جماعة والسيوطي[٤].

الآية الثالثة والعشرون قوله تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ في موضعين من البقرة [١٣٤، ١٤١].

يرى الخطيب أن هذا التكرير جاء في الموضعين بعد موقفين متغايرين من مواقف أهل الكتاب التي يلزم البراءة منها، والتنبيه على فسادها والقطع بتهديدهم على مواقفهم تلك كما تفيد ذلك كله الآية التي تم تكريرها.

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٩-٣٠، والبرهان ص٣٢، فقرة ٢٦.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٩٠،٩١.

(٣) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ٤/٥٥.

(٤) انظر ابن جماعة، كشف المعاني ص١١٩، مسألة ٤٢، والسيوطي، معترك الأقران ١/٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالموضع الأول من هذا التكرار جاء تعقيباً على ما تقرر في شأن يعقوب -عليه السلام- وأبنائه وكيف أنهم كانوا على الإسلام حيث وصاهم أبوهم بهذا وأقروا تنفيذ تلك الوصية.

ومن ثم جاء تقريع أهل الكتاب بقوله: ﴿**تلك أمة قد خلت**﴾.

والموضع الثاني جاء في عقب الافتراء الثاني الذي أورده أهل الكتاب وهو قولهم عن الأنبياء -ممثلاً في إبراهيم وذريته- أنهم كانوا من اليهود والنصارى فجاء الموضع الثاني من هذا التكرار إبطالاً لهذه الدعوى وتنبيهاً على فسادها[١].

ويذهب ابن الزبير إلى عين ما ذهب إليه الخطيب ولكن على إجمال من دون تفصيل حيث يذكر أن كلاً من الموضعين جاء بعد سوء مرتكب من أهل الكتاب[٢].

الآية الرابعة والعشرون قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة/١٣٦] وفي آل عمران [٨٤] ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾.

تذكر الكتب الثلاثة وجهين من أوجه الاختلاف بين هاتين الآيتين أحدهما تعدية الإنزال بإلى في الأولى وبعلى في الثانية. والسبب في ذلك أنه خاطب في البقرة مجموع المؤمنين فقال: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾ فأمر الوحي منته إليهم وجاء الإتباع بإلى في ذكر سائر الأنبياء فقال: ﴿**وما أنزل إلى إبراهيم**﴾ فهذا من باب الإتباع وإن كان معنى الانتهاء يصح للأنبياء كما هم المدعوون أما في آل عمران فالمخاطب هو النبي -صلى الله عليه وسلم- فقوله (قل) ناسبه التعبير بعلى التي تفيد العلو من فوق والوحي نازل على أنبياء الله ورسله[٣].

هذا ولقد جاء تفريق الكتب الثلاثة بين تعدية الإنزال بإلى وتعديته في موضع آخر يختلف سياقه عن الآيات التي نحن بصددها لكنني أحببت أن أورده هنا لأن الإنزال بإلى والإنزال بعلى يجمعها رابطة واحدة من حيث توجيهها، وهي النظر في أصل معاني تلك الحروف أعني (إلى) التي تفيد الانتهاء و(على) التي تفيد العلو.

وهذا الموضع هو قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ [الزمر/٢]، وقال في السورة نفسها: ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق**﴾[الزمر/٤١].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٣٣، ٣٤.

(٢) انظر ملاك التأويل ٩٣/١، ٩٤.

(٣) انظر درة التنزيل ص٣٤-٣٦، والبرهان ص٣٢، فقرة٢٧، وملاك التأويل ٩٤/١-٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرى الخطيب أن أغلب الآيات مثني يسند فيها الإنزال للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يتم تعديته بعلى وأغلب الآيات التي يتم فيها إسناد الإنزال إلى الناس أنه يتم تعديتها بإلى. وهذا لا يمنع من أن تخرق هذه القاعدة إلا أن الأغلب ما تقرر.

ثم يبين أن المراد بالموضع الأول من الزمر الذي عدي الإنزال فيه بإلى أنه جاء في مقام التكليف للنبي -عليه وآله السلام- أما تعديته بعلى في الموضع الثاني فجاء في مقام التشريف. أو هو في مقام التخفيف كما يرى تاج القراء[١].

أما ابن الزبير فإنه في هذا الموضع يرى بأن لا فرق بين التعبير بإلى والتعبير بعلى حيث يقر بوجود الترادف[٢]. والأولى خلافه كما ذكرناه من قبل.

أما الوجه الثاني من أوجه الاختلاف بين آيتي البقرة وآل عمران المتقدمتين فهو تكرار (الإيتاء) في البقرة دون آل عمران فقال في البقرة: ﴿**وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم**﴾ وورد ذلك على الجملة في آل عمران: ﴿**وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم**﴾.

يرى الخطيب أن (الإيتاء) كرر في البقرة من باب التأكيد. أما في آل عمران فلم يتكرر لأن الآيات جاءت في سياق أخذ الميثاق من النبيين، وقد تقدم لفظ (الإيتاء) قبل هذه الآية فاستغنى عن تكريره في الآية اللاحقة.

والآية التي ذكر فيها هي السابقة لهذه الآية بثلاث آيات حيث قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة**﴾ [آل عمران/٨١] ولم يكن هذا مذكوراً في البقرة[٣].

ويرى ابن الزبير أنه لما كانت آية البقرة في خطاب المؤمنين (قولوا)ناسب ذلك تكرير (الإيتاء) لتأكيد أمر ما أنزل على النبيين من حيث وجوب إيمان المؤمنين به.

ولما كان الخطاب في آل عمران لشخصه عليه السلام (قل) ناسب ذلك عدم تأكيد إيمانه بما أوتي النبيون تنزيهاً لشخصه عليه السلام حالاً ومقالاً وتكريماً له[٤]. والذي أراه أن رأي الخطيب وابن الزبير لا يتعارضان بل كل منهما يكمل الآخر.

الآية الخامسة والعشرون قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ [البقرة/١٤٤].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٤٠٣، والبرهان ص١٧٢، فقرة ٤٣٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ٨٢٤/٢ فما بعدها.

(٣) انظر درة التنزيل ص٣٦، والبرهان ص٣٢.

(٤) انظر ملاك التأويل ٩٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال في ما بعد [البقرة/١٤٩-١٥٠]: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾.

يرى الخطيب أن الآية الأولى: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ هي أمر للنبي -صلى الله عليهم وسلم- باستقبال القبلة وأن قوله: ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ أنه أمر لأمته. أما قوله في الآيتين الأخريين التين تكرر فيهما ذكر الخروج بقوله: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ فيرى الخطيب أن الآيتين تعبران عن خروجين اثنين هما:-

الأول: خروج المصلي من المسجد الحرام من أي باب من أبوابه فأمرته الآية باستقبال الكعبة من أي أبوبها خرج وهو ما عبرت عنه الآية الثانية من هذه الآيات.

والثاني: وهو ما بينته الآية الثالثة خروج المصلي من البلد الحرام فأمر باستقبال الكعبة حيثما حل ويرى الخطيب أن الآية الأولى لا خروج فيها[١].

ويورد تاج القراء في هذا التكرار ما بين الآيات ثلاثة أقوال مختلفة نجملها كالآتي:-

الأول: أن الآية الأولى لنسخ القبلة والثانية لبيان سبب هذا النسخ ﴿**وإنه للحق من ربك**﴾ والثالثة لبيان العلة فيه وهو قوله: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ في الآية نفسها.

الثاني: أن الأولى متعلقة بمسجد المدينة والثانية خارجه والثالثة خارج البلد.

الثالث: قيل إن الخروج خروجان الأول ترى فيه القبلة والثاني لا تراها وكرر لتساوي الحالين في الرؤيا وعدمها، وهذا ما ارتضاه الخطيب كما مر.

الرابع: يرى تاج القراء بعد إيراد الأقوال الثلاثة المتقدمة أن الآيات الثلاث جاءت لبيان الحال والمكان والزمان وجمعت الآية الثالثة العبارتين -حيث خرجت- وحيثما كنتم- ليعلم أن النبي والمؤمنين سواء في ذلك الأمر[٢].

ويرى ابن الزبير أن قوله في الآية الأولى: ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ فدفع لتوهم خصوصه صلى الله عليه وسلم بأمر استقبال القبلة -كما جاء قبل هذه العبارة- ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾.

أما الآية الثانية فهي أمر له في حال السفر -كما كانت الأولى في حال الإقامة-.

فهو أمر له باستقبال البيت الحرام إن خرج من المدينة لسفر.

---

(١) انظر درة التنزيل ص٣٦،٣٧.

(٢) انظر البرهان ص٣٣، فقرة ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الآية الثانية فكررت للتأكيد وإبطال زعم اليهود ولبيان أن هذا أمر جار في كل البلدان والأمكنة دون استثناء[١].

والذي نلاحظه أن ابن الزبير يلتقي مع الخطيب في توجيه الآية الأولى من هذا التكرار غير أنه يفارقه في توجيه الآيتين الأخريين. ويعد ابن الزبير أكثر اتساعاً من الخطيب في فهم وجوه هذا التكرار، ونلاحظ بوضوح كيف أفاد من خبرته الأصولية في توجيه هذا الموضع من التكرار في القرآن.

أما الكرماني فقد كان ناقلاً لأقوال العلماء دون أن يبدي رأياً واضحاً قاطعاً.

ويذكر الفخر الرازي أقوالاً أخرى في توجيه هذه التكرار من المفيد أن نلم ببعضها حتى نوازن فيما بينها فنخرج بأحسنها إن شاء الله وهذه الأقوال هي:-

الأول: أن الآية الأولى محمولة على الأمر باستقبال القبلة داخل البيت الحرام والثانية لمن كان خارجه والثالثة لمن كان خارج البلد الحرام.

الثاني: أن في كل من هذه الآيات فائدة لا توجد في صاحبتها ففي الأولى الإخبار بعلم أهل الكتاب بأحقية هذا الأمر. وفي الثانية شهادة الله بأحقية هذا الأمر. وفي الثالثة قطع حجج المخالفين من الناس.

الثالث: أن الآية الأولى أمر بالدوام في جميع الأمكنة. والثانية أمر بالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة. والثالثة أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعار بأن هذا أمر غير منسوخ[٢].

ونلاحظ أن القول الثاني والثالث أخلق بالقبول ومن الممكن اجتماعهما معاً.

وهناك من يرى أنه لا يمكن فهم علة هذا التكرير إلا بالنظر في سياق الآيات نفسها.

وعلى هذا يتم فهم الفائدة من التكرار في كل منها. فالأولى كانت تلبية لرغبة النبي وجماعة المؤمنين في استقرار أمر القبلة وذلك لأنه قال في الآية نفسها: ﴿**فلنولينك قبلة ترضاها**﴾ والثانية جاءت لبيان أن لا نسخ في أمر القبلة مصداقاً لما جاء في الآية نفسها: ﴿**وإنه للحق من ربك**﴾ والثالثة جاءت لقطع دابر التقولات التي تظهر والشبهات المثارة من أهل الكتاب يفهم ذلك من قوله: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾[٣].

وهذا القول شبيه بالقول الثاني الذي ذكرته عن الفخر من حيث المسلك. ومخالف له من بعض الأمور الجزئية.

الآية السادسة والعشرون قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض

---

(١) انظر ملاك التأويل ٩٦/١-١٠١.

(٢) الرازي، مفاتح الغيب، انظر ١٣٧/٤-١٣٩ حيث يذكر أقوالاً أخرى في هذا التكرار.

(٣) د. فضل حسن عباس، إعجاز القرآن، انظر ص٢٣٥،٢٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد موتها﴾ [البقرة/١٦٤] وجاء في العنكبوت [٦٣]: **﴿ولأن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾** وفي الجاثية [٥]: **﴿واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها﴾**.

يرى الخطيب أن آية العنكبوت اقترنت بمن فقال: (من بعد موتها) دون الآيتين وذلك لتحقيق الحد وتقريره وخاصةً أنه ورد بصيغة السؤال كما قال الكرماني. ويضيف تاج القراء سبباً آخر وهو تناسب اللفظ فيقول أن (من) ذكرت تناسباً مع (من) في (من قبله)[١].

أما ابن الزبير فيفرق بين هذه الآيات من جهتين اثنتين: **أولاهما**: أنه زيدت (من) في العنكبوت دون الآيتين الأخريين للتأكيد والبيان وتناسباً مع الفعل المضعف (نزل) الذي يفيد التكثير وهذا الفعل المضعف لم يقع إلا في العنكبوت.

وثانيهما: أنه سمى الماء الذي أنزل الله من السماء رزقاً دون آيتي البقرة والعنكبوت وذلك لأن الرزق مسبب عن الماء فجاء زيادة بيان لما تقدم في البقرة والعنكبوت.

هذا ولأن الجاثية متأخرة عن السورتين في الترتيب الثابت للمصحف[٢].

الآية السابعة والعشرون قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [البقرة/١٧٠].

وفي المائدة [١٠٤]: **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾**، وفي لقمان [٢١]:**﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾**.

تذكر كتب المتشابه سببين من أسباب الاختلاف بين هذه الآيات وهذان السببان هما:-

الأول: قوله في البقرة: (ألفينا) وفي المائدة ولقمان (وجدنا) . يرى الخطيب أن الفعل (ألفى) من الألفاظ الخاصة بنصب مفعولين تقول: ألفيت زيداً عاقلاً والمهم المفعول الثاني لأن عليه يتوقف المعنى. أما (وجد) فلفظ مشترك قد ينصب مفعولاً واحداً كما تقول: وجدت الشيء، وقد ينصب مفعولين كأن تقول: وجدت زيداً عاقلاً، فهو بمعنى (ألفى) في هذا الوجه. ومن هنا يكون (وجد) من الألفاظ المشتركة بحيث ينصب مفعولاً واحداً وينصب مفعولين ويسد مسد (ألفى) و(ألفى) لا ينصب إلا مفعولين. ومن هنا استعمل اللفظ الخاص (ألفى) ثم استعمل في ما بعد اللفظ المشترك وجد[٣].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٣٥٨، والبرهان ص٢٥٤، فقرة ٣٨٤، ويقصد تاج القراء بالتعبير القرآني (من قبله) ما جاء في الآية ٤٧ من سورة العنكبوت وهي قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك﴾ ولا ريب في أن اعتماد مثل هذا التناسب تكلف واضح إذ بين هذه الآية والآية المتحدث عنها ما يقرب على ست عشرة آية.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/١٠١،١٠٢.

(٣) انظر درة التنزيل ص٣٨،٣٩، والبرهان ص٣٤، فقرة٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويفصل ابن الزبير بأكثر من هذا قائلاً إن (ألفى) بمعنى (وجد) الذي يتعدى إلى مفعول واحد كأن تقول: وجدت الضالة، ولا يقال بأن(ألفى) بمعنى (وجد) التي بمعنى (علم) وتتعدى إلى مفعولين. وقولك ألفيت زيداً عالماً فإن عالماً منتصب على الحال بدليل تنكيرها وعليه فالوجدان لفظ مشترك بمعنى العلم والعثور على الشيء.

ومن هنا فقد عبر في البقرة بألفينا لأنه تقدمه الحديث عن إتباع خطوات الشيطان وهذا لا يكون إلا عن هوى ومن غير علم فناسب التعبير بألفى التي لا تناسب معنى العلم لأنهم اتبعوا آباءهم عن غير علم.وفي لقمان قال: (وجدنا) لأن المجادلين توهموا العلم في أنفسهم فناسب التعريف بوجدنا المحتمل معنى العلم والعثور.

ويقدم رأياً آخر قائلاً بأن ألفى أطول حروفاً من وجد فروعي الإطناب في البقرة[1].

الثاني: قوله في البقرة: ﴿**أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً**﴾ وفي المائدة: ﴿**لا يعلمون**﴾ ورتبة العلم أرقى من رتبة العقل. وعبر في المائدة بنفي العلم في مقابلة دعوى الكفار بلوغ التناهي في العلم حين قالوا: ﴿**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ أما في البقرة فإنهم لم يدّعوا العلم ولا شيئاً منه فناسب أن يوسم آباؤهم بعدم العقل[2].

ويعدّ صاحب الدرة في هذه المرة أكثر شمولاً واستيعاباً لتوجيه هذا الموضع من المتشابه، وهذا خلاف ما هو معتاد حيث عودنا ابن الزبير أن يكون أكثر شمولاً ممن سبقه.

غير أننا نلاحظ من جهة مقابلة أن ابن الزبير وإن استقل ببيان سبب الاختلاف الأول وهو الفرق بين (ألفى) و(وجد) نلاحظ أنه كان أكثر استيعاباً لتحديد هذا الفرق من الخطيب.

هذا علاوة على أنه استخدم السياق في توجيه المعنى خلافاً للخطيب الذي استند إلى مراعاة الترتيب في السور فقط. ولا ريب في أن الاعتماد التناسب والسياق في توجيه المعاني يمكن أن يعطي فكراً أكثر إقناعاً وإمتاعاً من مسألة ترتيب السور وإن كانت مسألة ترتيب السور هي أيضاً مما يعول عليه في توجيه المتشابهات.

ومما يصعب قبوله عند ابن الزبير استناده إلى مسألة المراعاة اللفظية في (ألفى) و(وجد) حيث عد الأولى أكثر حروفاً من الثانية فناسب طولها طول آية البقرة، فمثل هذا التوجيه يبعد أن يخدم المعنى في شيء. والله أعلم.

وقد أحسنت كتب المتشابه صنعاً حين مهدت لهذا الموضع ببيان معاني الكلمات حيث فسروا معاني (ألفى) و(وجد) و(العلم) و(العقل). وكان الخطيب يربط ما بين الاستعمال اللغوي والوضع القرآني للكلمة. فألفى مرتبطة بلفظ يعقلون في البقرة حيث نفى عنهم العقل وهو أدنى مراتب العلم

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٠٢-١٠٤.

(٢) انظر درة التنزيل ص٣٩، ٤٠، والبرهان ص٣٣، ٣٤، فقرة ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنهم لم يدعوا العلم لأنفسهم وإنما هي موجـدة وجدوهـا عـن آبـائهم مـن دون أن يفسـروا أو يعلمـوا ضرها أو نفعها.

ولقد كان تحديدهم لمعاني مثل هذه الكلمـات خـير دليـل علـى الأصالـة العلميـة لكتـب المتشـابه اللفظي حيث نجد أن تفسيرهم لهذه المعاني هو عينه ما بينته كتب اللغة ومفردات القرآن. فالراغب مثـلاً يفسر الوجود على أضرب ويذكر منها ما كان بإحدى الحواس.

ومنها ما كان بوساطة العقل كمعرفة الله تعالى ويذكر أضرباً أخرى تدل علـى أنـه مـن الألفـاظ المشتركة كما يفسر (ألفى) على وجه واحد وهو (وجد) أما (العلم) فـإدراك حقيقـة الشـيء. و(العقـل) هو القوة المهيأة لإدراك العلم[١]. فهذه المعاني هي عينها التي استندت إليها كتب المتشابه في توجيـه هـذا الموضع الذي نتحدث عنه.

الآية الثامنة والعشـرون قولـه تعالى: ﴿يـا أيهـا الذيـن آمنـوا كلـوا مـن طيبـات مـا رزقنـاكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ومـا أهـل بـه لغـير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾، وجاء في ثلاثة مواضع **﴿ما أهل لغير الله به﴾** ففي المائدة [٣] **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾**.

وفي الأنعام [١٤٥]: **﴿قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمـه إلا أن يكـون ميتـة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾**.

وفي النحل [١١٤،١١٥]، : **﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتـة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾**.

تذكر كتب المتشابه وجوهاً خمسة من أوجه الاختلاف بين هذه الآيات الأربعة وهي:-

الأول: تقديم الجار والمجرور (به) في البقرة دون سواها ذلك أن العرب تقدم ما هم ببيانـه أعنـى فالتركيز كان في البقرة على شأن المذبوح من المحرم فتم تقديمه وهذا ما لم يكن في الآيات الثلاث الأخـر حيث كان المستنكر الذبح لغير الله[٢].

ويتسع ابن الزبير أكثر من صاحبيه في تقرير الحقيقة نفسها قائلاً إن سياق آية البقرة يخالف سـياق الآيات الثلاث حيث تضمنت الأولى بيان المحرمات من المطعوم فقدم الجار والمجرور الذي يشـير إلى هـذا المذبوح الذي ذبح لغير الله، فجاء التقديم تأكيداً على هـذه الحقيقـة وهـذا خـلافٌ لمـا كـان في الآيـات الثلاث[٣].

---

(١) الراغب، مفردات القرآن انظر معاني كل من (وجد) ٨٥٤، و (ألفى) ٧٤٤، و (علم)٥٨٠، و (عقل) ٥٧٧.

(٢) انظر درة التنزيل ص٤٠-٤٢، والبرهان ص٣٤ فقرة ٣٣.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٠٦-١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني: تخصيص آية البقرة بالعبارة (فلا إثم عليه) يرى الخطيب وتاج القراء أن ذلك تصريح بالمغفرة بينما لم يذكر ذلك في الآيات الثلاث الأخرى لأنها مضمنة في قوله: ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾[١].

ويرى ابن الزبير أن هذه العبارة (فلا إثم عليه) جاءت في البقرة لأن الآية في سياق التشريع للمضطر وناسب تقديم الجار والمجرور (به) وجود هذه العبارة[٢].

الثالث: اختصاص آية الأنعام بقوله: ﴿**فإن ربك غفور رحيم**﴾ دون الآيات الأخرى التي كان فيها ذكر الألوهية. يرى الخطيب أن آيتي البقرة والنحل قال فيهما: ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ لأن الآيات جاءت في تقرير مسألة من مسائل الألوهية التي اختص الله بتشريعها لعباده من حيث تحليل وتحريم أصناف المطعوم والامتثال بهذا التشريع يكون من مقتضى إفراد الله بالعبادة. وكان التركيز هنا على ذكر المعبود أو المألوه. أما آية الأنعام فقد تقدم فيها ذكر تحليل الأصناف التي تربى بها الأجسام فناسب ذكر الرب[٣].

ويضيف تاج القراء بأن الرب ذكر هنا لأنه تكرر كثيراً في هذه السورة[٤].

أما ابن الزبير فيرى أن آية الأنعام اختصت بذكر الربوبية لأن ذلك من باب الالتفات لجلب الخواطر وترقيق القلوب. بيان ذلك أن آية الأنعام سبقها زجر المشركين المخالفين في شأن تحريم وتحليل الأطعمة: ﴿**أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم**﴾ [الأنعام/١٤٤]، ثم بعد ذلك ذكر صنوف المحرمات بأسلوب من الحصر والتشديد على المخالفين ثم قال بعد ذلك: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم**﴾ وفي إضافة اسم الربوبية إلى ضمير المخاطب مزيد من التكريم.

الرابع والخامس: وهذان الوجهان ذكرهما ابن الزبير دون صاحبيه وهما اختصاص آية المائدة بذكر صنوف أخرى من المحرمات، واختصاصها بقوله في آخر الآية: ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم**﴾ يبين أن سبب زيادة هذين الأمرين في المائدة هو أن هذه السورة كانت من أواخر ما نزل فناسب فيها تفصيل أنواع المحرمات وتفصيل حكم المضطر وهو ما أجمل في الآيات الأخرى في موضوع المحرمات[٥] وهكذا تلاحظ أن ابن الزبير كان أكثر الثلاثة استيفاءً لأوجه الاختلاف بين هذه الآيات.

---

(١) انظر الدرة ص٤٢، والبرهان ص٣٥، فقرة ٣٤.

(٢) انظر ملاك التأويل ١٠٨/١.

(٣) انظر درة التنزيل ص٤٢،٤٣.

(٤) انظر البرهان ص٣٥، فقرة ٣٥.

(٥) انظر ملاك التأويل ١٠٨/١-١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآية التاسعة والعشرون قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ [البقرة/١٧٤]، وفي آل عمران [٧٦]: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾**.

يرى الخطيب وتاج القراء أن ما ذكر في آية البقرة أمران صدرا عن أهل الكتاب.

أحدهما كتمان العلم. والآخر الاشتراء به ثمناً قليلاً، وعلى هذا فقد كان الوعيد شديداً كما بينت الآية والآية التي بعدها. أما آية آل عمران فلم تخبر إلا عن فعل واحد من أفعال أهل الكتاب وهو ما جاء في قوله: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾** فكان الوعيد أخف مما عليه في آية البقرة.

ويرى تاج القراء مضيفاً إلى ما حكاه الخطب أن الآية في آل عمران جاء فيها: **﴿ولا ينظر إليهم﴾** يرى انه مقابل ما جاء في البقرة: **﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾**[1].

أما ابن الزبير فيضيف إلى هاتين الآيتين آية أخرى وهي التي جاءت قبل آية البقرة بخمس عشرة آية حيث قوله تعالى:**﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾**[البقرة/١٥٩].

يجيب ابن الزبير عن وجهين من أوجه الاختلاف بين هذه الآيات. **أحدهما**: مناسبة التعبير بـ (يكتمون) في آيتي البقرة دون آل عمران. بيان ذلك أن أهل الكتاب حذروا من كتمان الحق ولبسه بالباطل كما هو في أول السورة. وقد بينت السورة جملة من سوء أفعالهم ومن هذه الأفعال كتمان ما أنزل الله. فجاء الوعيد الأول في الآية الأولى **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا...﴾** الآية فجاء يتوعدهم باللعنة من الله واللاعنين. ثم جاءت الآية الثانية من آيتي البقرة للوعيد على المتمادين في الكتمان ما أنزل الله.

والوجه الثاني: مناسبة الوعيد في آيتي البقرة وآل عمران كان في آية البقرة الأولى وعيداً على الجملة **﴿يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾**. أما في الآية الثانية فكان الوعيد أشد تناسباً مع تمادي الكاتمين فقال: **﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾** فعبر بالأكل لأن السياق يحتمله وهو في مقابلة ما أمر به المؤمنون من أكل الطيبات **﴿كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾** [البقرة/١٦٨] **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** [البقرة/١٧٢].

أما آية آل عمران فكانت في وعيد أهل الكتاب على شيء آخر غير الكتم وكان وعيداً شديداً بحيث ناسب ما عليه أهل الكتاب[2].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٤٣، ٤٤، والبرهان ص٣٥، فقرة ٣٦.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/١١٠-١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتضح لك في هذا الموضع أن ابن الزبير كان أكثر استيعاباً لبيان الفروق بين الآيات.

والأولى في مثل هذه المواضع أن تدرس دراسة موضوعية حيث لا تفيد الفروق اللفظية كثيراً.

ولأن كانت الفروق اللفظية كاشفة عن بعض وجوه البيان فإن الفروق الموضوعية ستكشف عما هو أبعد من ذلك بكثير.

الآية الثلاثون قوله تعالى: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة/١٨١، ١٨٢].

يسأل تاج القراء عن السر في اختلاف الفاصلتين ما بين الآيتين، فيجيب عن ذلك أن الأولى اختتمت بذكر السمع مطابقة لقوله: ﴿**بعد ما سمعه**﴾ واختتمت الثانية بالمغفرة مطابقة لمعنى الآية ﴿**فلا إثم عليه**﴾[1].

والأولى أن لا تكون المطابقة لفظية بالنسبة للآية الأولى كما يقول تاج القراء بل لابد من مراعاة المعنى أيضاً. فعلى هذا أقول أن الآية الأولى إنما ختمت بذكر السمع والعلم إشارة إلى أن الله يسمع ويعلم بحال الذين يريدون تبديل أمر الوصية.

أما الآية الثانية فجاءت في مطابقة معنى نفي الإثم عمن يريد الإصلاح فناسب ذلك الختم بصفتي المغفرة والرحمة.

وبما أن هذا الموضع هو الأول من مواضع الفواصل المتشابهة عند كتب المتشابه اللفظي؛ أرى أن من المناسب هنا أن نتحدث بإيجاز عن نظرة الكتب الثلاثة لتعليل الفواصل الختامية للآيات المشابهة وذلك من حيث التطبيق على هذه الآيات.

لقد مر في الباب الأول من هذه الدراسة أن كتب المتشابه اللفظي سلكت اتجاهاً حسناً في تعليل الفواصل الختامية وإيجاد التناسب المعنوي بينها وبين ما تختم به من الأفكار والمعاني. ولا ريب أن هذه الظاهرة محمودة في الذب عن كتاب الله العزيز أمام كثير من الشبهات التي أرجف بها المبطلون حول وجود الفاصلة القرآنية.

والذي أريد أن أبينه ها هنا هو التمثيل لنظرة الكتب الثلاثة إلى الفواصل الختامية من الآيات المتشابهات، وكيف سلكوا السبل في تعليلها.

والذي لاحظته أن تعليل الفاصلة القرآنية في كتب المتشابه اللفظي قد طال الحديث عنه إلى حد نال فيه أصحاب هذه الكتب من الحديث عن الآيات غير المتشابهة كالتي لا نظير لها في القرآن من الفواصل.

---

(١) انظر البرهان ص٣٦، فقرة٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تدرك من جهة ثانية أن إيجاد التناسب بين الفاصلة والآية التي تنتهي بها أمر متحد متماثل من حيث المسلك بحيث يحتاج إلى أمور ثلاثة هي نظرة في سياق أو معنى الآية الكريمة، ونظرة أخرى في معنى الفاصلة، ومن ثم تأتي الخطوة الثالثة التي تلزم في المناسبة بشكل عام وهو إيجاد رابط بين المعنيين أعني معنى الآية و سياقها من جهة ومعنى الفاصلة نفسها من جهة ثانية ولا ريب في أن العقول تتفاوت بعض الشيء في سلوك هذا الطريق إلا أن المقصود يبقى واحداً وهو إظهار مناسبة الفاصلة القرآنية لكل آية من الآيات وأنه لا يصلح غيرها لهذا الموضع.

ولما كانت هذه الوحدة من حيث الطريقة والمنهج في التعامل مع تعليل الفاصلة في كتب المتشابه اللفظي فقد آثرت الحديث عنها على الإجمال باختيار بعض النصوص التطبيقية التي درستها كتب المتشابه، وذلك خشية الوقوع في التكرار من جهة، وحتى أجنب نفسي الإطالة في فصل التطبيق من جهة ثانية لاسيما وأن هذه الآيات جاءت بكثرة في كتب المتشابه اللفظي.

هذا ويمكنني تصنيف الآيات التي تم تعليلها في كتب المتشابه اللفظي وإيجاد تناسب ما بين فواصلها إلى قسمين رئيسين هما الآيات ذوات الفواصل المتقاربة. والآيات ذوات الفواصل المتباعدة في السورة الواحدة أو في أكثر من سورة.

١) فواصل الآيات المتقاربة في الموضع الواحد. وقع في كتب المتشابه اللفظي من ذلك الكثير فتجد من ذلك موضعين في الأنعام واثنين في النحل وواحداً في الرعد وآخر في الروم. والذي أراه هنا أن أكتفي بضرب مثال واحد من هذه السور وهو قوله تعالى في أواخر الأنعام [١٥١]: ﴿**ذلك وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾ وختم الثانية [١٥٢] بقوله: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾ والثالثة [١٥٣]: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾.

يرى الخطيب أنه ختم الفاصلة الأولى بقوله: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ لأنها جاءت في عقب ذكر خمس صفات أمروا بها وجميل أن يتمثل العاقل بها. وهي توحيد الله وبر الوالدين وعدم قتل الأولاد، وعدم قتل النفس، وأن لا يقربوا الفواحش. ولا ريب في أن امتثال أضداد مثل هذه الصفات مما يقبح في العقل.

أما الآية الثانية فقال في آخرها: ﴿**لعلكم تذكرون**﴾؛ لأن الآية جاءت عقب وصايا متعلقة بالأموال؛ كحفظ مال اليتيم والحكم بالعدل. فجاء التعبير بالتذكر حتى يتذكر الإنسان مواطن ضعفه ويتذكر نفسه حين يكون هو من أصحاب هذه الحقوق.

أما الآية الثالثة فقال في آخرها: ﴿**لعلكم تتقون**﴾ ذلك لأن امتثال هذا الشرع الذي بينه الله في هذه الآيات سبيل إلى جلب التقوى ونبذ المعاصي[١].

---

(١) انظر درة التنزيل ص١٣٦- ١٣٨، والبرهان ص٦٦، فقرة ١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى تاج القراء أن الآية الأولى ختمت بالعقل لأنها أشارت إلى خمس صفات جسام يتميز فيها الإنسان عن الحيوان. والثانية ختمت بالتذكر حتى يتذكر الإنسان قبح فعل أضداد ما ذكرته من الصفات كأكل مال اليتيم والمقام مقام وعظ وتذكير. أما في الثالثة فقد ذكر التقوى لأن الأمر متعلق بالتزام الصراط المستقيم من أجل تحصيل تلك المرتبة من الخضوع والامتثال[١].

وقريباً من رأي الخطيب يتجه ابن الزبير ولا يهم الاختلاف في التعبير عن المقصود.

غير أنه يضيف القول بأن العقل والتذكر يقودان إلى التقوى سعياً منه لإيجاد التناسب بين الآيات الثلاث كما هي عادته[٢].

وهكذا نلاحظ أن التباين في الآراء لم يكن طفيفاً بحيث يمكن الجمع ما بين هذه الأقوال في تعليل الفواصل لا سيما والمقصود واحد.

٢) الفواصل المتباعدة بين آيات السورة الواحدة أو السور المختلفة.

أ) فمن الفواصل المتباعدة ما بين آيات السورة الواحدة لكنها جاءت على صيغ متشابهة بينها شيء يسير من الاختلاف تمثل لذلك بما وقع في سورة براءة حيث قوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ ثم قال الفاسقين فالكافرين فالفاسقين [التوبة/١٩، ٢٤، ٣٧، ٨٠] وذلك في أربعة مواضع متفرقة من السورة نفسها.

فالآية الأولى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ جاءت تعقيباً على ظلم المشركين ووضعهم الشيء في غير موضعه حين ظنوا أن إنفاق المال والسقاية للحجيج وهم على الشرك تجعلهم مساوين للمؤمنين فأخبر الله أنهم ظالمون لأنفسهم في هذا الاعتقاد.

أما الفاصلة الثانية: ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ فجاءت بمثابة التحذير لكل من يتولون غير المؤمنين ولو كانوا من أقرب المقربين كما حذرت الآيات من الاشتغال بأحوال الدنيا التي تحجب وتلهي عن الجهاد كالزوج والمال والولد وأن من يفعل هذا فهو في عداد الفاسقين الخارجين عن أمر الله.

أما الفاصلة الثالثة: ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ فتعقيب على ما كان يرتكبه المشركون من التلاعب بمواعيد الأشهر الحرم فعدّ القرآن ذلك من الكفر لأن الزمان والمكان بيد الله ومن يفعل هذا فهو خارج عن هداية الله بكفره.

ويزيد ابن الزبير فاصلة رابعة جاءت في هذه السورة: ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ وذلك في وصف المنافقين الخارجين عن أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والذين يلمزون المؤمنين في الصدقات فاعتبرهم بفعلهم هذا خارجين عما أمر الله[٣].

---

(١) انظر البرهان ص٦٦، فقرة ١١٦.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٣٥٤-٣٥٦.

(٣) انظر درة التنزيل ص١٩٣، ١٩٤، وملاك التأويل ١/٤٥٨-٤٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب) أما الفواصل المتباعدة في أكثر من سورة فمنها قوله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ [إبراهيم/٣٤]، وقال في النحل [١٨]: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم**﴾.

فالآية الأولى من سورة إبراهيم أعقبت بالفاصلة ﴿**إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ تناسباً مع ما مر ذكره من حال الكافرين الجاحدين الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. فناسب التعبير بهذه الأوصاف وصف الإنسان بمثلها حين لا يقابل نعم الله بالشكر.

أما آية النحل فأعقبها بالفاصلة ﴿**إن الله لغفور رحيم**﴾ لأنها جاءت في عقب تعداد النعم من الله على عباده وإحسانه إليهم فناسب ذلك ذكر المغفرة والرحمة لأنها من مقتضيات ذلكم الإحسان والتكريم[١].

هذه هي نظرة سريعة لرأي الكتب الثلاثة في تعليل الفواصل الختامية للآيات مما هو من المتشابه لفظا. هذا وقد زادت مواضع الفواصل المتشابهة في كتب المتشابه على الأربعين موضعاً من مواضع الاختلاف. وهي في معظمها متشابهة من حيث طريقة توجيهها الأمر الذي جعلني أتحدث عنها على الإجمال تجنباً للتطويل.

الآية الحادية والثلاثون من البقرة قوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ [البقرة/١٨٣]، ثم قال: ﴿**فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ [البقرة/١٨٤] فذكر لفظ (منكم) في الآية الأولى دون الثانية لأنه في الثانية قال قبلها: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ فلم يحتج لتكرير هذا اللفظ[٢].

وتلاحظ أن تاج القراء يورد آية ثالثة في هذا الصدد وهي قوله في موضوع الحج: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية**﴾ [البقرة/١٩٦].

الآية الثانية والثلاثون قوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ [البقرة/١٨٧] وقال في ما بعد: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾ [البقرة/٢٢٩].

يرى الخطيب أن الحدود ضربان: الأول: منع من ارتكاب المحظور وهو ما نهي عن مقاربته ويصدق عليه ما جاء في الآية الأولى ﴿**فلا تقربوها**﴾ فهي مبالغة في نهي الأزواج عن مواقعة النساء أثناء الاعتكاف في المساجد. والحد الثاني: ما نهي عن مجاوزته وهو الفاصل بين الحلال والحرام ومنه الآية الثانية ﴿فلا تعتدوها﴾ وذلك لأن المرأة إذا خالعت زوجها مقابل مال فلا إثم عليها وهي بذلك غير مجاوزة لحدود الله[٣].

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٥٨٠.

(٢) انظر البرهان ص٣٦،فقرة ٣٨.

(٣) انظر درة التنزيل ص٤٥،٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقريباً من هذا يذهب ابن الزبير حاكياً أنه في الآية الأولى قال: ﴿فلا تقربوها﴾ تأكيداً على تحريم مواقعة النساء أثناء الاعتكاف، حيث نهى عن السبب الذي يؤدي إليها وهو المباشرة في الأجساد. بينما لم يكن ذلك في الآية الثانية لأنها مسألة متعلقة بقضايا الخلع بين الرجل والمرأة وحدود الحلال والحرام فيها واضحة فنهي عن مجاوزة حد الحلة إلى ما دون ذلك[١].

الآية الثالثة والثلاثون قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة/١٩٣] ، وفي الأنفال [٣٩]: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾**.

والذي تلاحظه في هذا الموضع زيادة لفظ التوكيد (كله) في آية الأنفال دون البقرة.

ذلك أن آية البقرة خاصة في قتال أهل مكة من المشركين وكانت هذه الآي في سياق الآيات الأول النازلة في تشريع قتال من يقاتل المسلمين. فعلى هذا أمر المسلمون بقتالهم حتى تجنب الفتنة وكف أذى أهل الشرك ولم يناسب ذلك التعبير بلفظ التوكيد لأن القتال إنما أمروا به حتى يكون الدين لله بإخضاع أولئك القوم. أما آية الأنفال فهي عامة بالكافرين فناسب العموم التأكيد بذلك اللفظ العام ﴿ويكون الدين كله لله﴾ وذلك لأن المقصود إخضاع جميع الكافرين.

ويلاحظ أنه في الأولى قال: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ إشارة إلى ما قد يحدث من المشركين وأنه إن انتهوا عن إيذاء المسلمين فالعدوان يرتفع عنهم.

وفي الأنفال قال: ﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ أي إن دُخل هؤلاء الكافرون في الدين وكفوا عن قتال المسلمين فدماؤهم مصونة وحسابهم على الله لأنه مُطلع على أعمالهم بصير بحالهم[٢].

وهناك من يرى أن آية الأنفال إنما زيد فيها اسم التوكيد (كله) لأنها أسبق في النزول من آية البقرة فاحتيج فيها تأكيد جنس الدين لله تعالى لئلا يتوهم الاقتناع بإسلام غالب المشركين وعدل عن العموم الذي في هذه الآية إلى الإيجاز في البقرة[٣].

وهذا الذي قاله صاحب التحرير والتنوير أمر لا دليل عليه يقطع بصحته. فمن غير المجزوم به أن آية الأنفال كانت قبل آية البقرة ذلك أن مسألة تاريخ النزول بالنسبة للآيات أمر يصعب تحديده عند العلماء والمفسرين.

وهناك من يرى خلاف ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور وهو القاضي ابن جماعة حيث يرى أن آية الأنفال جاءت في مرحلة متأخرة بعد أن قويت شوكة المسلمين فصار يرجى منهم أن يقاتلوا حتى

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١١٤-١١٦.

(٢) انظر درة التنزيل ص٤٦، ٤٧ والبرهان ص٣٧ بفقرة ٤١، وملاك التأويل ١/١١٦-١١٩.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، انظر ٩/٣٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون الدين كله لله. أما آية البقرة فكان نزولها في أعقاب سرية عبد الله بن جحش في مبدأ الأمر بالقتال حيث كان المسلمون ما يزالون في مرحلة من الضعف فلم يحتج الأمر اسم التوكيد (كل) في البقرة[١].

ومن غير المعقول أن نجعل الآيات الواردة في تشريع القتال خاصة بأهل مكة أعني تلك التي جاءت فيها آية البقرة الخالية من التأكيد فالآيات وإن نزلت على سبب خاص فلا مانع من تعميمها لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهناك من يرى أن هذه الآية عامة بجميع المشركين غير خاصة بأحد ولا منسوخة وتشمل قتالهم في كل موضع[٢].

ويذهب السيد رشيد رضا إلى أن هذه الآية جاءت تبين غاية القتال وهو دفع الفتنة والأذى ويسوي بينها وبين آية الأنفال حيث يجعل الآية المؤكدة في الأنفال دليلاً على ما لم يتم تأكيده في البقرة[٣].

وبهذا يكون رأى القاضي ابن جماعة أكثر دقة من غيره من الآراء فلا مانع من أن يكون العموم مقصوداً في كل من الآيتين لكن زيد اسم التوكيد في الأنفال لأنها نزلت في مرحلة متأخرة حين قويت شوكة المسلمين وطولبوا بإخضاع جميع الناس لهذا الدين.

الآية الرابعة والثلاثون قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة/٢١٤]، وفي آل عمران [١٤٢]: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**، وفي براءة [١٦] **﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾**.

يرى الخطيب وكما يتابعه تاج القراء أن الآيات الثلاث جاءت في الحثّ على الجهاد لكن اختلفت ألفاظها باختلاف السياق الذي وردت فيه كل واحدة منها. فآية البقرة جاءت في خطاب النبي والمؤمنين ليتعظوا بحال من سبقهم من الأمم الماضية مع أنبيائهم وكيف أن الله تعالى أرسل الأنبياء إلى تلك الأمم لإنذارهم فتعرضوا لما تعرضوا له من الشدائد والكروب. وكذلك الحال بالنسبة إلى حال المؤمنين مع نبينا عليه وآله السلام فلا بد من أن يأخذوا درساً من حال من مضى وأن الجنة لا تنال إلا بالمكاره ونصر الله آت لا محالة وهو قريب لمن عمل له.

---

(١) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص١٣٠، مسألة ٥٣.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ٣٥٣/٢، وسيد قطب في ظلال القرآن، انظر ١٩٠/١.

(٣) السيد رشيد رضا، تفسير المنار،انظر ٢١١/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الآية في آل عمران فجاءت في سلسلة الحقائق المعقب بها على ما كان في غزوة أحد؛ حيث بينت أنه لن يكون للمسلمين فوز بالجنة إلا بتمحيصهم حتى يعلم الله الصادق من غيره في الجهاد، ويعلم الصابرين من غيرهم، فما حدث من الهزيمة كان الوسيلة إلى هذا التمحيص للمؤمنين.

أما الآية الثالثة فقد جاءت في سورة براءة في خطاب جميع المؤمنين وأنهم لن يتركوا على حالهم دون أن يعلم الله المخلصين منهم وفي هذا تعريض بأهل النفاق الذين فضحت حالهم هذه السورة أولئك الذين كانوا يتخذون الولائج من غير النبي والمؤمنين ويذهبون إلى الجهاد بمقاصد غير مخلصة لله فناسب التعبير هنا بالوليجة وهي المدخل إلى الشيء تعريضاً بحال المنافقين[١].

وقريباً مما تقدم عند الخطيب يذهب ابن الزبير حيث يذكر أن آية البقرة جاءت في تسلية المؤمنين ووعظهم بحال الأمم الماضية. غير أنه يطيل في تكلف مناسبة هذه الآية.

والآية الثانية في سياق تسلية المؤمنين بعدما أصابهم يوم أحد فذكر الصبر والجهاد. وآية براءة في خطاب المؤمنين حتى يكونوا على درجة من الإخلاص ولابد من أن يخضعوا لاختبار حتى يتميز المؤمن من المنافق. ويقرر ابن الزبير أن هذه الآية دون الآيتين السابقتين انفردت بالتلميح إلى أهل النفاق حيث ذكر الوليجة وختم الآية بقوله: ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾[٢].

الآية الخامسة والثلاثون قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ [البقرة/٢٣١]، وفي الطلاق [٢]: ﴿**فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف**﴾.

فعبر في سورة البقرة عن ترك الزوجة في حال الطلاق بالتسريح وفي الطلاق بالمفارقة.

وسبب ذلك يرجع إلى أمرين **أحدهما**:- أن آيات البقرة بني سياقها على حال الملاطفة للنساء والإحسان إليهن وعدم الإضرار بالمرأة أو عضلها فكل ذلك اقتضى التعبير بأخف الألفاظ وهو التسريح الذي يفيد الإطلاق والتفريق. وهذا اللفظ أخف من كلمة المفارقة التي تثقل على النفوس وهذا ما عبر به في الطلاق حيث لم يكن سياقها كما في البقرة.

والأمر الثاني هو تناسب اللفظ ذلك أن التسريح معبر به في آية البقرة [٢٢٩] حيث قوله تعالى: ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ فجاء التعبير فيما بعد متناسباً معه أشد المناسبة[٣].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٤٧-٥٠، والبرهان ص٣٧، فقرة٤٢.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/١١٩-١٢٢.

(٣) انظر المرجع السابق ١/١٢٤-١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآية السادسة والثلاثون قوله تعالى: ﴿**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ [البقرة/٢٣٢]، وفي الطلاق [٢]: ﴿**ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ ذلك لا تجمع و لم يقل (منكم) كما جاء في البقرة.

يرى الخطيب أن الكاف في (ذلك) إما أن تكون اسماً أو حرف خطاب لا محل له مرجحاً للثاني أي إنه حرف خطاب وعلى هذا فإنه حين تكون الكاف في ذلك مفردة فإنه يقصد بها الخطاب وإذا كانت مثناة أو مجموعة يقصد بها الخطاب والتبعيد.

ويرى رأياً آخر ذلك هو أن كل موضع أفردت فيه الكاف في ذلك فقد قصد به مخاطبة النبي -عليه السلام- فقوله في البقرة: ﴿**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله**﴾ الكاف في ذلك خطاب للنبي والكاف في منكم خطاب لأمته[١].

ويرى تاج القراء أنه يجوز الأمران في ذلك إما التوحيد على الخطاب وإما الجمع ذلكم وذلك على عدد المخاطبين ثم يقدم القول الثاني الذي ذكر الخطيب ويضيف أنه خص بالتوحيد في البقرة لأنه قال (منكم) و لم يوحد في الطلاق لعدم قوله (منكم) كما في البقرة[٢].

أما ابن الزبير فيستند إلى فهم السياق القرآني في حل هذا الاختلاف ما بين الآيتين، فبين أن آية البقرة بنيت على التعريف بحال المضارين بالأزواج وبيان سوء مرتكباتهم من حيث إمساك النساء بقصد الإضرار بهن أو عضل الأولياء لمولياتهم عن الزواج وغير هذه الأفعال التي نهوا عنها. ومن هنا جاء إفراد الخطاب (ذلك) إشارة إلى تقليل المستجيبين لهذه الأوامر والممتنعين عن الإضرار بالزوجات. وعليه ورد قوله في الآية نفسها: (منكم) ليشعر أن المستجيبين ليسوا الكل.

أما في الطلاق فكان المطلوب أيسر، فروعي خطاب الجماعة (ذلك) و لم يقل (منكم) لخفة ما طولب المكلفون به من التكاليف[٣].

وهناك من يرى جمعاً بين الآيتين أن الخطاب في البقرة للنبي ثم عم بعد ذلك بقوله: ﴿**ذلكم أزكى لكم وأطهر**﴾ في الآية نفسها. وفي الطلاق للنبي والمؤمنين فقال: ﴿**ذلكم**﴾[٤]، وهذا ما لا دليل عليه لأن خطاب النبي خطاب لأمته.

ثم إن أقوال المفسرين اختلفت بالنسبة للمراد بالإشارة (ذلك) في آية البقرة فمنهم من يرى أن النبي -عليه السلام-، ومن قائل أنه للمؤمنين ومن قائل أنه عام للجميع[٥] وهو الأولى إذ لا دليل على

---

(١) انظر درة التنزيل ص٥٠-٥٢.

(٢) انظر البرهان ص٣٨، فقرة٤٦.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٢٥-١٢٧.

(٤) ابن جماعة، كشف المعاني، انظر ص١٣٢،مسألة ٥٥.

(٥) أبو حيان الأندلسي، البحر، انظر ٢/٢٢١، والألوسي، روح المعاني ١/٥٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تخصيصه بأحد دون غيره.

ومن هنا تلاحظ أن رأى ابن الزبير كان الأكثر وضوحاً في هذه المسألة.

الآية السابعة والثلاثون قوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ [البقرة/٢٣٤] ثم قال في ما بعد: **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهم من معروف والله عزيز حكيم﴾** [البقرة/٢٤٠].

تذكر كتب المتشابه ثلاثة من أسباب الاختلاف بين هاتين الآيتين. وهذه الأسباب هي:-

١) مجيء المعروف الأول في الآية الأولى معرفاً وفي الثانية منكراً.يرى الخطيب أنه جاء في الأولى معرفاً لأن المقصود به الوجه الذي أباحه الشرع، فإذا ما أنقضت عدة المتوفى عنها زوجها فلا إثم عليها أن تفعل ما تشاء بالوجه الذي أباحه الشرع لها.

وخص المعروف هنا بالباء التي للإلصاق ونكر الثاني لأنه يدل على وجه من الوجوه التي يجوز للمرأة أن تأتيها كالتزوج ونحوه فأخرج مخرج النكرة لذلك[١].

أما تاج القراء فيحكي رأي الخطيب المتقدم ثم يضيف قولاً آخر مضمونة أن النكرة إذا أعيد ذكرها فإنها تصبح معرفة. وعلى هذا فإن قوله: (من معروف) في الآية الثانية الذي جاء بصيغة التنكير لما أعيد في الآية الأولى أكسبه ذلك التعريف.

بيان ذلك أن آية البقرة الأولى ناسخة للآية الثانية حسب ترتيب الآيات.

فبعد ما كانت عدة المتوفي عنها زوجها حولاً كاملاً كما أشارت الآية الثانية أصبحت أربعة أشهر وعشرة أيام كما أشارت الآية الأولى الناسخة لها والمتقدمة عليها في ترتيب الآي. وعلى هذا عرف المعروف لأنه أعيد ذكره في الآية الناسخة[٢].

ويرى ابن الزبير أنه تم تعريف المعروف الأول لأنه ذكر بلوغ الأجل وتم تقييده بإذا التي تدل على المبالغة في التقييد والتحقق أما تنكير المعروف في الثانية فلعدم ذكر بلوغ الأجل من جهة، ولأنه ذكر (إن) التي ليست في قوة (إذا) فناسب ذلك تنكير المعروف فيرى أن التقييد الذي في الأولى كان أشد مما في الثانية ثم يحكي ابن الزبير رأي الخطيب قولاً ثانياً في هذه المسألة[٣].

٢) والوجه الثاني قوله في الأول: **﴿بالمعروف﴾** وفي الثانية (من معروف) فالباء للإلصاق كما تقدم في رأي الخطيب وهي المناسبة بحال التعريف كما يرى ابن الزبير.

أما قوله: (من معروف) فمناسبة لحال التنكير أي من بعض زينة أو تعرض للخطاب ونحوه.

---

(١) انظر درة التنزيل ص٥٢.

(٢) انظر البرهان ص٣٩، فقرة ٤٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٢٧-١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) أنه قال في نهاية الأولى: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي خبير بفعل من تنقضي عدتهن. وفي الثانية ﴿**والله عزيز حكيم**﴾ فذكر قدرته سبحانه احتمالا لقهرهن إن خرجن غير طائعات لأمر الله[١].

ومثل هذا الوجه من الاختلاف غالباً ما ينفرد ابن الزبير ببيانه وهو داخل في مراعاة مناسبة الفواصل لكل آية من الآيات. ولا حاجة للإطالة فيه لأن المناسبة المعنوية للفواصل أمر أطالت فيه كتب التفسير المختلفة.

وتلاحظ أن رأي تاج القراء بالنسبة لتعريف المعروف وتنكيره هو الأخلق بالقبول.

وهذا ما تابعه عليه أبو حيان في البحر حيث بين أن التعريف للمعروف إنما ذكر لأنه أعيد ذكر المعروف في الآية الناسخة وإن كانت متقدمة عليها من حيث التلاوة كما تقول: لقيت رجلاً، ثم تقول:- الرجل كذا وكذا بالتعريف لأنه أعيد ذكره[٢].

أما ما أورده الخطيب فليس فيه تصريح بفائدة التعريف والتنكير. وما اختاره ابن الزبير في القول الأول الذي أورده يبعد أيضاً عن المقصود إذ لا علاقة لقضية بلوغ الأجل والتعبير بإن وإذا لا علاقة لها بتعريف وتنكير المعروف فتلك مسائل أخرى من وجوه البيان في هذه الآية ولا داعي لتكلف المناسبة اللفظية هنا.

الآية الثامنة والثلاثون قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ [البقرة/٢٧٦]، وفي النساء [٣٦،٣٧]: ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً الذين يبخلون**﴾ وفي الحديد [٢٣-٢٤]: ﴿**والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون**﴾.

تذكر كتب المتشابه وجهين من أوجه الاختلاف بين هذه الآيات هما:-

الأول: مناسبة الفاصلة لمعنى كل آية من هذه الآيات، ففي الآية الأولى ذكر الكفار الأثيم لأنها صفة آكل الربا الذي لا يحبه الله، والوصفان جاءا بصيغة المبالغة. وفي آية النساء الأولى ذكر أن الله لا يحب المختال الفخور لأن الآية تحدثت عن وجوب الإحسان إلى فئات كثيرة كالوالدين واليتامى والمساكين والمختال الفخور يحجم عن مثل هذا.

وكذلك الحال بالنسبة للخوان الأثيم فقد ذكر تعقيباً على أمره عليه السلام بأن لا يدافع أو يخاصم عن الخائنين وأما آية الحديد ففي أعقاب الحث على التصدق والإنفاق وعدم التأسف على ما فات، الأمر الذي لا يقر به من كان مختالاً فخوراً فأعقب بكرهه -تعالى- لمن يتصف بهذه الصفات.

والثاني: أن آيتي النساء جاء مطلع كل فاصلة منهما مصدراً بأن وهذا كما يرى الخطيب لأن الجملة كانت أجنبية عماً قبلها وخلافاً لآيتي البقرة والحديد حيث ترابط الكلام.

---

(١) ملاك التأويل، انظر ١/١٣٠.

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر، انظر ٢/٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى ابن الزبير أن ما جاء في آيتي النساء من التعبير بأن فمن باب التأكيد لما طوي ذكره من الحقائق التي تضمنتها تلك الآيات[١].

وهذا الذي ذكروه من وجوه مناسبة الفواصل لمعاني الآيات أمر أفاضت فيه كتب التفسير وخصوصاً من أولئك الذين جاءوا من بعد أصحاب كتب المتشابه اللفظي أمثال ابن عمر البقاعي في نظم الدرر[٢].

ومن جاء بعده من المفسرين. وعلى هذا فلا أظن الحاجة ملحة لإطالة الحديث عن هذه الفواصل في ما سيتم عرضه من الآيات المتشابهات لأنه أمر تم بسطه وبيانه في كتب التفسير المختلفة التي تعنى بشأن المناسبات بحيث يحصل عليه كل من يطلبه.

الآية التاسعة والثلاثون قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ [البقرة/٢٨٤] ،وفي آل عمران [٢٩]: **﴿قل إن تخفوا ما صدوركم او تبدوه يعلمه الله﴾** فقدم الإبداء في البقرة وأخره في آل عمران.

يرى ابن الزبير أن سبب تقديم آية البقرة هو أنها جاءت في خطاب المؤمنين فقدم ذكر ما يبدو لأن حالهم ظاهر للعيان. أما آية آل عمران فكانت في التعقيب على حال المنافقين الذين يبطنون خلاف ما يظهرون فقدم الإخفاء ويقرر بأن هذا المطرد في آي القرآن بحيث يقدم الإبداء حيث يخاطب المؤمنون والإخفاء حين يخاطب المنافقون[٣].

الآية الموفية الأربعين قوله تعالى: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ [البقرة/٢٨٤].

ومثلها وقع في الفتح [١٤] و آل عمران [١٢٩] بتقديم المغفرة على العذاب، أما في المائدة [٤٠] فقد قدم العذاب حيث قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء﴾ يرى تاج القراء ويليه ابن الزبير أن هذا التقديم لذكر العذاب في المائدة جاء تناسباً مع ما تقدم من بيان حال السارقين والمحاربين فقدم ذكر العذاب إشعاراً بأنهم ينالون عذابهم في الدنيا. أما في غيرها فقد جاء تقديم المغفرة أملاً في رحمة الله وتغليبها على عذابه[٤].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٥٣-٥٦، ملاك التأويل ١/١٣٢-١٣٥.

(٢) هو الإمام برهان الدين أبو الحسن، إبراهيم بن عمر ت٨٨٥هـ وكتابه هو نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، انظر مثلاً١/٥٣٩، ٢/٢٥٦، و ٧/٤٥٧، حيث يبين بوضوح مناسبة هذه الفواصل التي نتحدث عنها الآن.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٣٥-١٣٨، ونلاحظ كيف يوظف ابن الزبير الشواهد القرآنية على اطراد هذه الحقيقة فمما جاء في خطاب المؤمنين مثلاً ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ [النور/٢٩] ومما جاء في ذكر المنافقين فكان العكس حيث قدم الإخفاء ما جاء في أول الممتحنة ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ وذلك في شأن حاطب بن أبي بلتعة حين تلبس بفعل أهل النفاق.

(٤) انظر البرهان ص٤٠، فقرة ٥٠، وملاك التأويل ١/١٣٨-١٤٠، والزمخشري، الكشاف، ١/٦٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إغفال الكتب الثلاثة لبعض المتشابهات في سورة البقرة.

بعد طول تتبع واستقراء لآيات القرآن الكريم من جهة، ولما عرضته كتب المتشابه من جهة ثانية، وجدت أن هناك بعض المغفلات مما لم تتحدث عنه الكتب الثلاثة. وكون أصحاب هذه الكتب يغفلون الحديث عن بعض المتشابهات راجع لأحد أمرين، أحدهما بساطة هذه الآيات المكررة بحيث لا يحتاج فهم فائدة التكرار فيها إلى كبير جهد. وثانيهما: سهوهم عن بعض المتشابهات، لا سيما وأن هذا القرآن لا تفنى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء.

وبناء على ما تقرر فسأقوم بعرض جملة من المتشابهات في نهاية الحديث عن كل سورة من سور القرآن مما لم تذكره الكتب الثلاثة، سائلاً المولى أن يوفقني إلى تعلم كتابه العظيم، ومما يمكن عده من المتشابه في هذه السورة نذكر ما يأتي:-

١) قوله تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾ [البقرة/١٤٦]، وقال في الأنعام [٢٠]: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾.

فالآية الأولى واردة في سياق آيات نسخ القبلة حيث جاءت تبين أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون أن البيت الحرام هو قبلة النبي -صلى الله عليه وسلم- كما هو قبلة الأنبياء من قبله. ومع هذا فإن فريقاً منهم يكتمون هذا العلم الحق وهم يعلمون أنه الحق من ربهم[١]. أما آية الأنعام فجاءت بمسألة أخرى أنكرها أهل الكتاب وهم يعلمون أنها الحق كما يعرفون أبناءهم تلكم هي حقيقة الألوهية وتوحيد الله كما ذكر أبو جعفر[٢]. فهم يعلمون أنه ليس مع الله آلهة أخرى ويعرفون بعثة النبي -عليه السلام- وأنه سيكون النبي الخاتم فجاءت هذه الآية تكشف عما أنكروه من خفايا الأمور واصفة إياهم بالخسران المبين.

٢) قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون**﴾ [البقرة/١٦١،١٦٢].

وفي آل عمران [٩١]: ﴿**إن الذين كفروا وما توا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين**﴾.

نلحظ أن الآيتين جاءتا في وعيد من مات على الكفر، لكن روعي تفصيل حال الجزاء في آية آل عمران دون آية البقرة التي جاء فيها بيان الجزاء مجملاً. بيان ذلك أن آية آل عمران جاءت في بيان حالة من حالات الخروج عن الإسلام وهي الموت على الكفر.

---

(١) الطبري، جامع البيان، انظر ١٨٧/١.

(٢) المرجع السابق، انظر ٢٩٤/١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبينت الآية حكم هذه الفئة وفصلت في وعيدها وكيف أنه لا يقبل منهم الفداء وأن لهم العذاب الأليم وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير. وهذا البيان كان بعد ما بينته الآيات السابقة من أمر المرتدين الذين كفروا واستمروا على الكفر.

أما في آية البقرة فلم تذكر إلا حالة واحدة وهي من مات على الكفر وجاء ذكرهم في عقب وعيد من كتموا ما أنزل الله من أهل الكتاب لهذا روعي الإجمال لأن المقام ليس مقام تفصيل لأحوال المرتدين كما بينت الآيات في سورة آل عمران.

٣) قوله تعالى: ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة/١٦٤]، وفي آل عمران [١٩٠-١٩١]: ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله**﴾.

نلحظ أن مقصود الآيتين واحد وهو بسط الأدلة على وجود الله، لكنه روعي في البقرة مقام الإطناب وفي آل عمران مقام الإيجاز. قال في نظم الدرر في بيان هذا الاختلاف: وذكر سبحانه وتعالى في أخت هذه الآية -يقصد آية آل عمران- ذكر ثمانية أنواع من الأدلة واقتصر هنا على ثلاثة. لأن السالك يفتقر في ابتداء السلوك إلى كثرة الأدلة فإذا استنار قلت حاجته إلى ذلك، وكان استغراق الأدلة كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة، واقتصر هنا من آثار الخلق على السماوية يقصد في آل عمران.

لأنها أقهر وأبهر والعجائب فيها أكثر وانتقال القلب منها إلى عظمته سبحانه وكبريائه أشد وأسرع. وختم تلك بما هو لأول السلوك العقل -يقصد آية البقرة-.

وختم هذه بلبه لأنها لمن تخلص من وساوس الشيطان وشوائب الهواجس المانعة من الوصول إلى حق اليقين بل علم اليقين[1].

٤) قوله تعالى: ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه**﴾ [البقرة/١٩١]، وقال في ما بعد: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل**﴾ [البقرة/٢١٧].

فلماذا قال في الأولى: ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾، وفي الثانية: ﴿**والفتنة أكبر من القتل**﴾.

---

(١) البقاعي نظم الدرر. ١٩٧/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسبب في ذلك -والله أعلم- أن الآية الأولى -كما يقول السامرائي- جاءت في سياق الشدة على الكافرين ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾ فناسب ذلك التعبير باللفظ الأشد أما الآية الثانية فجاءت في سياق وصف كبائر أعمال الكافرين حيث قوله: ﴿**قل قتال فيه كبير**﴾ ثم قال: ﴿**وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾[١].

وقد يكون ذكر اللفظ (أكبر) من باب تناسب الألفاظ لأنه قال في نفس الآية: ﴿**قل قتال فيه كبير**﴾ ثم قال: ﴿**وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾ فناسب ذلك التعبير بالكبر.

أما الآية الأولى فجاء فيها التعبير بالأشد على الأصل وليناسب الشدة في قتال الكفار.

٥) قوله تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾ [البقرة/٢١٥] وقال في ما بعد: ﴿**وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم**﴾ [البقرة/٢٧٣] وفي آل عمران [٩٢]: ﴿**وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾. فلماذا قال في الأولى: ﴿**وما تفعلوا من خير**﴾ وفي الثانية ﴿**وما تنفقوا من خير**﴾ وفي الثالثة ﴿**وما تنفقوا من شيء**﴾.

نلاحظ أن آية البقرة الأولى جاءت في سياق الإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى وطوائف المستضعفين الأخرى، فتجده قال في نهاية الآية: ﴿**وما تفعلوا من خير**﴾ لأن الفعل أعم من الإنفاق حيث يشمل الإنفاق وغيره من ضروب الرعاية والإحسان فلذلك عبر بالفعل ليشمل كل إحسان وخصوصاً للوالدين إذ الأمر ليس متوقفاً على الإنفاق للأموال.

أما في الآية الثانية من البقرة فقال: ﴿**وما تنفقوا من خير**﴾ لأن السياق لا يحتمل إلا هذا فالموضوع كان الحديث فيه عن الإنفاق على المتعففين الذين أحصروا في سبيل الله ولا يسألون الناس فلا سبيل إلى سد حاجتهم إلا بالإنفاق عليهم لأنهم محتاجون إلى ذلك.

وفي آل عمران قال: ﴿**وما تنفقوا من شيء**﴾ فشيء من ألفاظ العموم وجاءت مناسبة للأمر بعموم الإنفاق مما يحب الإنسان ويرضاه لنفسه.

٦) قوله تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ [البقرة/٢٥١]، وفي الحج [٤٠]: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾ فما سر الإطناب في وصف الفساد في الحج دون آية البقرة؟

معلوم أن هاتين الآيتين تتحدثان عن سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، هي دفع الله لأهل الباطل بأهل الحق، وتمكين أهل الحق من أهل الطغيان والظلم[٢].

---

(١) السامرائي، التعبير القرآني، انظر ص١٥٨.

(٢) السيد رشيد رضا، المنار، انظر ٤٩١/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن روعي مقام الإطناب في آية الحج لأنها الأسبق في النزول على آية البقرة، بيان ذلك أن آية الحج كانت في دائرة الآيات النازلة في تشريع الجهاد، ولا ريب أن ذلك في مرحلة متقدمة من العهد المدني ومن هنا جاء التفصيل في آية الحج لهذا القانون أعني قانون الدفع الإلهي ونصرة المؤمنين على الكافرين وهو النظام الذي يبين الحكمة من تشريع القتال من الإسلام فلولا هذا التشريع لتهدمت جميع أركان العمران البشري بما فيها دور العبادة لمختلف الطوائف وهي التي أمر الله أن يحافظ على حرمتها وأن لا يعبث بها.

ولما كانت آية الحج هي الأسبق من حيث النزول ناسب ذلك التفصيل والإطناب في بيان الحكمة من تشريع الجهاد، وحتى يزداد المؤمنون في تلك المرحلة ثقة بنصر الله المبين.

أما في آية البقرة فجاء بيان هذه الحكمة على الإجمال فقال: ﴿**لفسدت الأرض**﴾ و لم يذكر فيها شيئاً من ضروب الفساد لتهديم البيع والصلوات والمساجد والسبب في طي هذا التفصيل لضروب الفساد هو تقدم ذلك في سورة الحج.

وهناك سبب آخر لهذا الإجمال يمكن أن يفهم من خلال مراجعة السياق القرآني ذلك أن آية البقرة جاءت في أعقاب الحديث عن قصة طالوت وجالوت وكيف نصر الله الأول على الثاني، فكانت هذه القصة بمثابة شرح وتبيان لقانون الدفع الإلهي، هذا الأمر الذي أغنى عن تفصيل ضروب. الفساد التي يمكن إدراك شيء منها من خلال معايشة واقع تلك القصة من خلال النص القرآني. والله أعلم بمراده.

٧) قوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة/٢٧٤]، وقال في ما بعد: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة/٢٧٧]. يسأل عن سقوط الفاء من الآية الثانية دون الآية الأولى.

جواب ذلك أنه في الآية الأولى قال: ﴿**فلهم أجرهم**﴾ يرى أبو البقاء أن الفاء دخلت لشبه الذي بالشرط في إبهامه ووصله بالفعل[١].

ويرى القاضي أبو السعود أن الفاء هنا للسببية أي إن ما قبلها سبب في ما بعدها[٢].

وحاصل الكلامين واحد حيث إن نيل الأجر العظيم مسبب عن الإنفاق وجاء بمثابة الجواب للموصول الذي يشبه الشرط. أما الآية الثانية فجاء الأمر فيها بصيغة الإخبار ﴿**إن الذين آمنوا..**﴾ فختم بذكر الجزاء بقوله: ﴿**لهم أجرهم عند ربهم**﴾.

---

(١) العكبري، العلامة محب الدين أبو البقاء، عبد الله بن الحسين بن عبد الله. املاء ما من به الرحمن، ٥٤٦/١.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ٢٦٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨) قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم﴾ [البقرة/٢٢٥]،وفي المائدة [٨٩]: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾.

نلاحظ أن آية البقرة روعي فيها مقام الإيجاز لأنها جاءت في مقام النهي عن كثرة الحلف بالله بسبب ودون سبب. فجاءت الآية بنفي الإثم عن اليمين اللغو من غير تفصيل لحكم اليمين المنعقدة التي يؤاخذ الله عليها. ولما كانت المائدة من أواخر ما نزل فقد جاء فيها تفصيل كفارة اليمين تتميماً لإقرار هذا الحكم الشرعي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

المقارنة والموازنة بين كتب المتشابه اللفظي الثلاثة.

ويشتمل على أربعة مباحث هي:

المبحث الأول:

منهج الكتب الثلاثة في عرض المتشابهات.

المبحث الثاني:

المصادر العلمية لكتب المتشابه اللفظي

المبحث الثالث:

القواعد العامة عند أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه المتشابهات.

المبحث الرابع:

أهداف الكتب الثلاثة ومقاصدها في عرض المتشابه اللفظي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهـــيد

تعرفنا فيما سبق على علم المتشابه اللفظي من الناحية العملية، كما علمنا أن كتب المتشابه اللفظي -الدرة والبرهان وملاك التأويل- كانت هي المصادر المعول عليها أكثر من غيرها في توجيه المتشابهات نظراً لإحرازها قصب السبق في هذا الموضوع.

ومن هنا فإنني سأقوم في هذا الفصل بإجراء بعض الموازنات والمقارنات فيما بين هذه المؤلفات المعتمدة في علم المتشابه اللفظي. وذلك من حيث مناهجها، وأساليبها ومصادرها العلمية، بالإضافة إلى قواعدها في توجيه المتشابهات ومقاصدها وأهدافها.

المبحث الأول

منهج الكتب الثلاثة في عرض المتشابهات

بعد الدراسة المفصلة لما عرضه أصحاب كتب المتشابه اللفظي -كما تبين فيما مضى- نستطيع الآن أن نخطو خطوات نتعرف من خلالها على أهم الركائز المنهجية التي سار عليها أصحاب كتب المتشابه في توجيه المتشابهات، وأرى أنها تنحصر فيما يأتي:

أولا: إيراد النظائر المتشابهة والسؤال عن أسباب الاختلاف فيما بينها.

كان الخطيب وابن الزبير يوردان نظيرين أو أكثر من النظائر المتشابهة في كل موقع من مواقع التشابه. ثم يتساءلان عن علة التكرار فيما بين هذه النظائر إن كانت مما كرر بالألفاظ المتفقة. أو عن أسباب الاختلاف فيما بينها إن كانت من المكرر بالألفاظ المختلفة وهو الأغلب.

ويخالف الكرماني هذا المنهج حيث كان يكتفي بإيراد النظائر المتشابهة بشكل مقتضب وخاصة فيما يتعلق بموضع السؤال وذلك بإيراده جزءاً واحداً من أجزاء كل آية او نظير يراد الحديث عنه. وهذا خلافا لصاحبيه اللذين كانا يوردان هذه النظائر من الآيات المتشابهة بكامل أجزائها.

ومن الأمثلة على ما تقرر ما وقع من الاختلاف بين الآيتين التاليتين حيث قال في البقرة [٩٤،٩٥] ﴿**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم**﴾. وفي الجمعة [٦-٧]:﴿**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم**﴾.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقدم صاحب الدرة لبيان الاختلاف بين هاتين الآيتين إذ يقول:"فللسائل أن يقول هل ما في الآية الأولى يقتضي (لن) الناصبة. وفي الثانية ما يوجب الاقتصار على (لا) ورفع الفعل بعدها" ثم يجيب عن هذا الاختلاف[١]. وقد مر في التطبيق.

ويتأثر أبن الزبير في هذا المسلك من التمهيد في طرح السؤال حيث يقول بعد ذكره للآيتين المتقدمتين في البقرة والجمعة:"فيسأل عن تخصيص آية البقرة بقوله: (ولن يتمنوه) وآية الجمعة بقوله: (ولا يتمنونه) مع الاتحاد الإخباري"[٢].

أما تاج القراء فلا يقدم شيئا من مثل هذا الذي عند صاحبيه وإنما يكتفي ببيان سبب الاختلاف بشكل مباشر دون أن يعهد بالسؤال عنه[٣].

وهذا مسلك عام تبناه الكرماني في كتابه وذلك لأنه بنى كتابه على الإيجاز والاختصار.

ومن الواضح أن هذا المسلك الذي سلكه الكرماني في إيراد الآيات وأسباب الاختلاف فيما بينها بهذا الاقتضاب من الواضح أنه في كثير من الأحيان يخل بفهم القارئ الذي يريد تدبر الآيات المتشابهات لأول مرة، بحيث لا يستطيع تدبر الآيات وفهمها لأن سياقها غير مكتمل في كتاب البرهان. ولا يستطيع القارئ أن يكمل فهمه بوضوح من مقصود الكرماني إلا إذا راجع كتاب درة التنزيل، فهناك يكون الكلام قد بسط أكثر مما عند الكرماني. هذا علاوة على أن صاحب الدرة يورد السياقات المتشابهة بصورة أوفى مما عند الكرماني.

وللتأكد من صحة ما تقرر اقرأ مثلا موضع التشابه بين آيتي البقرة [١٢٠، ١٤٥] ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم**﴾، وفي الثانية:﴿ **من بعد ما جاءك من العلم**﴾. تلاحظ أن الكرماني يجتزئ قول الخطيب بشكل مقتضب بحيث من المفيد مراجعة ما عند الخطيب في هذا المكان حتى تستطيع أن تتبين ما أراده الكرماني لأن ما عند الأخير هو عين ما عند صاحب الدرة[٤].

أما إن كان بين الآيتين أو الآيات من النظائر المتشابهة أكثر من سبب من أسباب الاختلاف، تجد أن الخطيب وابن الزبير يتساءلان عن هذه الأسباب مجتمعة ثم يجيبان عن هذه الأسئلة واحدا واحداً كل على حدة. وهذا اتجاه عام عند الرجلين[٥].

وأحيانا يخالف ابن الزبير هذا المنهج فتجده يطرح كل سؤال على حدة ثم يجيب عنه وهكذا إلى غيره مفردا كل سؤال يسأل عنه بإجابة على حدة. ومن الأمثلة على ذلك ما يتعلق بالتشابه الوارد في

---

(١) درة التنزيل ص٣٤.

(٢) ملاك التأويل ٨٣/١.

(٣) انظر البرهان ص٣٠ فقرة ٢٢.

(٤) انظر درة التنزيل ص٢٥، والبرهان ص٣٠ ، فقرة ٢٤، ومن الأمثلة الأخرى على هذه الحقيقة قارن بين ما ذكره صاحب الدرة ص٤٧-٥٠، وبين ما ذكره الكرماني في نفس الموضع ص٣٧، فقرة ٤٢.

(٥) انظر مثلا درة التنزيل ص١٤-٢٠ وملاك التأويل ٥٨/١-٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكر النعيم الآخروي للمؤمنين في سورة النساء والمائدة وغيرهما من السور. حيث يتضح أن الخطيب يورد أسباب الاختلاف مجتمعة ثم يجيب عليها.

أما ابن الزبير فيخالف الاتجاه العام بذكر كل سؤال على حدة مفردا له بالإجابة ثم يلقي السؤال الذي بعده حتى يجيب عليها جميعها [١].

ويلحظ على الكرماني أنه يجيب عن هذا الموضع في فقرات مقتضبة ومختصرة يجعلها مبثوثة في مواضع متفرقة من كتاب البرهان على مختلف السور التي وردت فيها هذه النظائر[٢].

وفي بعض الأحيان -وذلك على الندرة- نجد ابن الزبير يطرح الأسئلة مجتمعة ثم يجيب عنها على الجملة غير مفرق بين جواب سؤال وآخر. ويكتفي في نهاية الكلام بالقول "وقد تحصل الجواب عن الكل" من ذلك ما أورده في الآية (٤٠) من الأنعام:﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة**﴾ وما يليها من النظائر المتشابهة حيث يورد أربعة أسئلة يجيب عنها مجتمعة على الجملة[٣].

ثانيا: توجيه النظائر المتشابهة بروح علمية أصيلة.

اختط أصحاب كتب المتشابه لأنفسهم هذا المنهج في توجيه المتشابهات، هذا ولقد تعرفنا من خلال فصل التطبيق والمصادر على الحجم الهائل من المقدرة العملية التي كان يتمتع بها أصحاب الكتب الثلاثة.

ومما يلحظ هنا اختلاف وجهة نظر أصحاب الكتب الثلاثة بالنسبة لكثير من المواقع المتشابهة، ولا غرابة في أن يكون ذلك خصوصاً إذا ما علمنا أن توجيه المتشابهات أمر اجتهادي يقوم على استثمار آلات من العلوم المختلفة، ولكل وجهة هو موليها.

ثالثا: تكرار كتب المتشابه الحديث عن بعض الآيات المتشابهات ويعد صاحب الدرة الأقل تعرضاً لمثل هذا في أحيان قليلة . من ذلك ما وقع بين آيتي يونس [١٨]، والفرقان [٥٥]:﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم**﴾، وفي الفرقان﴿**ما لا ينفعهم ولا يضرهم**﴾ تجد أن الخطيب يكرر الحديث عن هذا الموضع مرتين في يونس والفرقان[٤] والظاهر أن ذلك وقع بطريق السهو.

أما ابن الزبير فهو الآخر يسهو، فيتعرض لتكرير الحديث عن بعض المتشابهات من ذلك تقديم العذاب على المغفرة في المائدة دون الواقع في البقرة حيث يكرر ذلك في السورتين[٥].ومن ذلك

---

(١) انظر درة التنزيل ص١٠٠-١٠٤، وملاك التأويل ١/١٩٣-١٩٩.

(٢) انظر البرهان ص٤٨، فقرة ٧٠، وص٥٦، فقرة ٩١، وص٨٨، فقرة ١٧٦، وص١٨٨، فقرة ٥٠٦.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٣٢٢-٣٢٤.

(٤) انظر درة التنزيل ص٢٠٩، وص٣٢٨.

(٥) انظر ملاك التأويل ١/١٣٨وص٢٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاختلاف الواقع بين آيتي لقمان [١٧]، والشورى [٤٣]:﴿**إن ذلك من عزم الأمور**﴾ مع زيادة لام التأكيد في آية الشورى[١].

وأحياناً يكرر ابن الزبير الحديث عن بعض المتشابهات ويكون ما حكاه في المرة الأولى مختلفاً عما قرره في المرة الثانية لكنه من باب اختلاف التنوع وليس التضاد. من ذلك ما بينه من الاختلاف بين آيتي طه [١٢٨]، والسجدة [٢٦]، ففي طه:﴿**أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم**﴾، وفي السجدة: ﴿**أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم**﴾ يتحدث ابن الزبير عن زيادة (من) في آية السجدة دون آية طه فمرة يقول أن (من) ذكرت في مقام التفصيل في الوعيد والتهديد. وفي المرة الثانية يؤكد أن (من) هذه لتأكيد استغراق العموم في آية السجدة[٢].

هذا ومع أن هذين القولين لا يتعارضان إلا أنه من الأفضل التزام موقف موحد بالنسبة لهذه الحروف كما كان يفعل الخطيب -رحمه الله- حيث أكد أكثر من مرة أن (من) التي تأتي قبل الظروف إنما تكون لابتداء الغاية ولحد الجهة التي يتم الابتداء منها - وقد مر-.

أما بالنسبة للكرماني فيعد أكثر الثلاثة تعرضا لتكرار ذكر النظائر المتشابهة، ومن الواضح أنه يكرر ذكر هذه النظائر على اختلاف ورودها في السور المختلفة من أجل التنبيه عليها مرة أخرى في أكثر من سورة وحيث وقعت. وهذا أسلوب مقصود من تاج القراء يمكن ملاحظته من خلال نظرة عابرة في كتاب البرهان.

رابعا: اختلاف الكتب الثلاثة في استقراء مواقع التشابه في القرآن الكريم، لا غرابة في أن يكون ذلك إذا ما عرفنا أن تحديد الآيات المتشابهات أمر يتوقف على الرأي والاجتهاد ولا يضير الاختلاف في عدد الآيات المتشابهات، فكله من كلام الله الحكيم الخبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هذا ومما يلحظ هنا أن وجهة الكتب الثلاثة تكاد تتفق على ما ذكره صاحب الدرة من المتشابهات مع بعض الإضافات التي ذكرها الكرماني وابن الزبير.

إلا أن ابن الزبير أغفل موضعاً واحداً مما عرض له صاحب الدرة وتابعه عليه الكرماني وهو ما جاء في آخر التوبة قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم**﴾ [التوبة/ ١٢٠ ، ١٢١]

---

(١) ملاك التأويل، انظر ١/١٨١، و٢/٧٩٠.

(٢) انظر ملاك التأويل ٢/٢٨٢-٢٨٨. و٢/٦٨٧،٦٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث يتساءل الخطيب والكرماني عن إطلاق الكتابة للعمل في الثانية دون الأولى[١]. ولم يتعرض ابن الزبير الى هذا الموضع، والظاهر أنه لا يراه من المتشابه لفظا وأرى أنه محق فيما ذهب إليه.

كما يلاحظ من جهة ثانية انفراد الكرماني بإيراد بعض المتشابهات دون صاحبيه. كما ينفرد ابن الزبير بإيراد بعضها الآخر.

فمن أمثلة ما تعرض له الكرماني قوله تعالى في آل عمران [٩]:﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾، وفي آخر الآية [١٩٤]:﴿**إنك لا تخلف الميعاد**﴾[٢].

ومما أضافه ابن الزبير دون صاحبيه قوله تعالى في البقرة [٢٨٤] :﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾، وفي آل عمران [٢٩]:﴿**قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله**﴾[٣].

ثم يلحظ أيضا اتفاق الخطيب وابن الزبير في عرض بعض المتشابهات من دون الكرماني كالواقع في آيتي النساء (١٢٨) حيث قوله تعالى في الأولى ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ وقال في الثانية:﴿**وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما**﴾ (النساء/١٢٩][٤] حيث بينوا مناسبة كل من التعبيرين.

ومن جهة أخرى نلحظ اتفاق الكرماني وابن الزبير في التنبيه على بعض المتشابهات من أمثلة ذلك ما تعلق بتقديم العذاب على المغفرة في آية المائدة دون غيرها[٥]. ومن ذلك ما جاء على لسان نبي الله زكريا في آل عمران [٤٠]:﴿**قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر**﴾، وفي مريم [٨]:﴿**وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا**﴾[٦].

وأود أن أشير هنا إلى أنه بالرغم من اتفاق الكرماني وابن الزبير في إيراد بعض المتشابهات إلا أن هذا لا يعني تأثر ابن الزبير بالكرماني كما تأثر بصاحب الدرة. وذلك لأن ابن الزبير نفسه لم يصرح بوجود كتاب البرهان كما صرح بوقوعه على كتاب درة التنزيل. لهذا فإننا كثيراً ما نجد رأي ابن الزبير والكرماني غير متفقين في توجيه ما يتفقان في عرضه من المتشابهات وهذا على الأغلب.

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٠٤، والبرهان ص٩٠، فقرة ١٧٩.

(٢) انظر البرهان ص٤١، فقرة ٥١.

(٣) انظر ملاك التأويل ١٣٥/١.

(٤) انظر درة التنزيل ص ٨٠، وملاك التأويل ٢١٦/١..

(٥) انظر البرهان ص٤٠ فقرة ٥٠، وملاك التأويل ١٣٨/١.

(٦) انظر البرهان ص٤٢، فقرة ٥٥، وملاك التأويل ١٥٣/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا وقد يكون الاتفاق فيما بين الرجلين في الوسيلة في توجيه المتشابه التي من الممكن ان تؤدي الى نفس الغاية من البيان. كأن يعتمد الاثنان مثلا على قاعدة التناسب في بيان بعض المتشابهات بحيث يصل الاثنان إلى نفس النتيجة غالباً.

ومما يؤكد ما تقرر ما جاء في رأي الكرماني وابن الزبير حول آية المائدة [٤٠] عند قوله تعالى:﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء**﴾ يذكر الكرماني أنه قدم ذكر العذاب لأن الآية أو السياق جاء في وعيد السارقين[١]. ويوسع ابن الزبير من قاعدة هذا التناسب قائلاً إن السياق تضمن وعيد المحاربين والسارقين فناسب ذلك ذكر العذاب مقدماً على المغفرة[٢].

وهكذا أجد أن كلاً من الرجلين أفاد من قاعدة التناسب وفهم السياق بحيث وصل الاثنان إلى نفس النتيجة، ولا يشترط أن يتأثر اللاحق بالسابق.

لأن ابن الزبير لم يصرح بمعرفته لكتاب البرهان كما ذكرت ذلك من قبل على أننا نجد أحيانا اختلاف وجهة أصحاب كتب المتشابه اللفظي في تحديد النظائر المتشابهة بحيث يذكر كل واحد منهم نظيراً مختلفاً عن الآخر. من الأمثلة على ذلك ما وقع في سورة آل عمران [١٨٤] حيث قوله تعالى: ﴿**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**﴾ . نلاحظ أن الخطيب والكرماني يذكران لهذه الآية نظيرا مماثلا من سورة فاطر [٢٥] وهو قوله تعالى:﴿**وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير**﴾ يسأل الخطيب والكرماني عن سبب ذكر الباء ثلاث مرات في آية فاطر دون آية آل عمران[٣].

أما ابن الزبير فيذكر نظيراً آخر لهذه الآية وهو ما وقع في فاطر[٤] أيضا حيث قوله تعالى:﴿**وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك**﴾ حيث يتساءل عن تأنيث فعل التكذيب في آية فاطر دون آية آل عمران المتقدمة[٤].

ولا ريب في أن ما اعتمده الخطيب والكرماني أقرب في كونه من المتشابه من حيث اللفظ. وان كان ما ذكره ابن الزبير هو الآخر من الممكن أن يكون من المتشابه أيضا.

خامساً: عرض الآيات المتشابهة وفق ترتيب الآيات في المصحف غالباً. كان أصحاب كتب المتشابه يراعون ذكر الآية من حيث أول ورود لنظائرها المتشابهة في القرآن الكريم. ومن الواضح أن ابن الزبير كان الأكثر ترتيبا لهذه الآيات حسب ورودها مرتبة في السور المختلفة. وهذا خلاف ما

---

(١) انظر البرهان ص٤٠، فقرة ٥٠.

(٢) انظر ملاك التأويل ١٣٨/١.

(٣) انظر درة التنزيل ص٧٤، والبرهان ص٤٧، فقرة ٦٧.

(٤) انظر ملاك التأويل ١٨١/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اعتمده الخطيب والكرماني من توزيع المتشابهات على مختلف السور. فقد كانا يحرصان -بنسبة أو بأخرى- على تخصيص كل سورة بعدد من الآيات المتشابهات.

لهذا فإنه كان ابن الزبير كثيرا ما يتعرض إلى مواضع من التشابه في مواقع متقدمة من كتابه، في حين نرى أن هذه المواضع نفسها قد تأخرت عند الخطيب والكرماني الى سور لاحقة انسجاماً مع طريقتهما في توزيع المتشابهات. وقد كنت في فصل التطبيق أجمع بين هذه الآراء المتفرقة بالنسبة للموقع الواحد من التشابه. فبالنسبة لما كان يورده ابن الزبير في سورة البقرة -مثلاً- ، كنت أجد الخطيب والكرماني يؤخران الحديث عنه إلى سورة العنكبوت وهكذا[1].

فهي إذن مسألة إجرائية تتعلق بترتيب ذكر الآيات المتشابهات.

هذه هي الركائز المنهجية التي سار عليها أصحاب كتب المتشابه اللفظي في توجيههم للنظائر القرآنية المتشابهة. وقبل أن أختم حديثي في هذا المبحث، أرى أن من الضروري أن أتحدث عن المميزات العامة لأسلوب أصحاب الكتب الثلاثة في عرض المتشابهات. ويبرز ذلك من خلال المميزات الآتية:

١) يسر الأسلوب وسهولة العبارة. تمتاز لغة أصحاب كتب المتشابه اللفظي بالسهولة والبساطة في العرض لا سيما وأن موضوع هذه المؤلفات هو بيان وشرح الآيات المتشابهات. فلا غرابة إذن أن نجد هذا الأسلوب السلس المفهوم المنبعث من روح البيان القرآني والمنبثق من فهم كتاب الله العزيز.

وتمتاز عبارة الخطيب بالتوسط والاعتدال في العرض، فما هي بالموجزة المخلة ولا بالطويلة المملة في غالب الأحيان. وقليلا ما نجده وكما يتابعه ابن الزبير يتوسع في ذكر الشواهد القرآنية والشعرية وذكر فروع من العلوم الأخرى تلزم في توجيه الآيات المتشابهات. وقد تم التعرض لذكرها حينما تحدثنا عن مصادر كتب المتشابه اللفظي.

وحقيق بالقول هنا أن صاحب الدرة كان أقل تعرضاً لمسائل العلوم المختلفة من ابن الزبير. فلم يكن ليأخذ منها إلا بالقدر الذي يلزم في فهم المتشابه اللفظي.

أما الكرماني فيتصف أسلوبه بإيجاز العبارة، فقد علمنا أنه بنى كتابه على اختصار كلام الخطيب. وأضاف عليه شيئا بنفسه. وغالباً ما كان هذا الإيجاز الذي أعتمده الكرماني موفياً للغرض، الأمر الذي يظهر براعة الرجل ومقدرته على التعبير بكلمات قصيرة عن معاني كثيرة.

٢) تفوق ابن الزبير على صاحبيه في كثرة الاستطراد والعرض الشمولي لأسباب التشابه والاختلاف بين الآيات. فقد علمنا في الميزة الأولى أن ابن الزبير كان أكثر إطنابا من الخطيب والكرماني. وتكمن مظاهر الإطناب والتوسع عند ابن الزبير فيما يأتي:

---

(١) فمثلاً قوله تعالى في البقرة [١٦٤]:﴿فأحيا به الارض بعد موتها﴾، وفي العنكبوت [٦٣]:﴿من بعد موتها﴾ نجد أن ابن الزبير يتحدث عن هذا الموضع في سورة البقرة في حين يؤخره الخطيب والكرماني الى سورة العنكبوت (انظر ملاك التاويل ١٠١/١، ودرة التنزيل ص٣٥٨ والبرهان ص١٥٤، فقرة ٣٨٤م)، وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أ) تعرض ابن الزبير لشرح أسباب أكثر من أسباب التشابه والاختلاف بين الآيات ونظائرها المتشابهة. فتجد ابن الزبير مثلا عند الحديث عن آية البقرة [٥٨]:﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا**﴾ ونظيرتها من الأعراف في ذكر بني إسرائيل تجد أن الخطيب والكرماني يذكران ستة من وجوه الاختلاف بين الآيتين، في حين يذكر ابن الزبير عشراً من اوجه هذا الاختلاف مما يوحي بالسعة والشمول أكثر من صاحبيه[١].

(ب) توسع ابن الزبير في ذكر مصادره العلمية. وقد تحدثنا عن ذلك بوضوح عند الحديث عن مصادر كتب المتشابه اللفظي.

(ج) توسع ابن الزبير في تعليل الفواصل في النظائر المتشابهة، وفي تعليل مناسبة المحكي من قصص الأنبياء في مختلف السور.

فمن أمثلة ما توسع في تعليله من الفواصل ما وقع من الاختلاف بين آية البقرة [٢٣٤]:﴿**فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير**﴾. وجاء في الآية [٢٤٠] من السورة نفسها: ﴿**فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم**﴾. ففي حين يكتفي الخطيب والكرماني في بيان الفرق بين المعروف الأول والثاني والتعبير بالباء و (من) في الآيتين، يذهب ابن الزبير إلى ما هو أبعد من هذا مبينا سبب ختم الآية الأولى بصفة الخبرة، وسبب ختم الثانية بالعزة والحكمة إضافة إلى السببين المتقدمين[٢].

ومن أمثلة ما توسع به ابن الزبير من تعليل مناسبة المحكي من قصص الأنبياء في مختلف السور ما بينه من التشابه الواقع في قصة نوح بين الأعراف وهود والمؤمنون، فقد كان يتحدث عن مناسبة الوارد من قصة نوح -عليه السلام- لموضوع السورة التي جاء فيها. أما الخطيب فكان يكتفي بالإشارة إلى أن هذه السور تشير إلى مقامات وعظية مختلفة للأنبياء مع أقوامهم[٣].

أما تاج القراء فكان متفقاً مع الخطيب في معظم الأحيان.

(د) توسع ابن الزبير في ذكر الشواهد القرآنية والشعرية على مسائل عامة وتفريعات استطرادية كان يطيل في بيانها اكثر من صاحبيه. ولقد مر في فصل المصادر التعرض الى الكثير من مثل هذا.

٣) أسلوب الفنقلة. وأعني بذلك افتراض الاعتراضات على ما يتبنى من الآراء ومن ثم الإجابة على مثل هذه الفروض. وهذه الطريقة في العرض كثرت عند أصحاب كتب المتشابه اللفظي، وذلك من أجل سد الثغرات أمام ما يتبنونه من الآراء في توجيه المتشابهات.

---

(١) انظر درة التنزيل ص١٤-٢٠، والبرهان ص٢٧،٢٨، فقرة ١٧، وملاك التأويل ١/٥٨-٦٧.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٥٢، والبرهان ص ٣٩، فقرة ٤٧، وملاك التأويل ١/١٢٧-١٣٠.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٣٨٤-٤٠٠، والدرة ص١٤٩-١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كثر هذا الأسلوب في كتابات ابن الزبير يليه الخطيب. أما تاج القراء فلم يلحظ عليه مثل هذا الأسلوب في العرض لبناء كتابه على الإيجاز.

فمن أمثلة ما اعتمده الخطيب ما بينه في سورة الأنعام حيث ذكر أن همزة الإنكار والتوبيخ إنما تدخل على (لم) حينما يقصد التنبيه على ما هو معلوم بالاستدلال، كقوله تعالى في الأنعام:﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم**﴾ [الأنعام/٦] فهذا الإهلاك ثبت بطريق العلم لا بالمشاهدة.

وتدخل هذه الهمزة على الواو في (و لم) حيث يقصد التنبيه على الاعتبار بما هو مشاهد، ويكون من باب العطف على ما قبله:﴿**أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم**﴾[الشعراء/٧] فكأنه قال كذبوا رسلي و لم يعتبروا بما أنبت الله لهم في الأرض من الأشياء التي يشاهدونها بأعينهم.

وبعد أن يقرر الخطيب ما تقدم بيانه يقول: فإن عارض معارض بقوله تعالى:﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء**﴾ [النحل/٧٩] وقال:هذا من القسم الذي يشاهد. وحقه أن يكون كقوله (أو لم) كما كان في قوله :﴿**أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن**﴾ [الملك/١٩] وهما في شيء واحد، فما بالهما اختلفا من حيث وجب أن يتفقا؟ والانفصال أن يقال :إنا عللنا مواضع (ألم) بما يوجب أن يكون هذا الموضع من أماكنها. ألا ترى أننا قلنا هو كل موضع ينبهون عليه ابتداء من غير تنبيه على شيء مثله مما قبله. وعللنا المشاهدات بما خرج هذا عنها، لان قبل هذه الآية:﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾[النحل/٧٨]:﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات**﴾ فبنيت هذه الآية على الآية التي أخبر الله فيها عن أحوال الإنسان، وأنه أخرجهم أطفالاً صغاراً من بطون أمهاتهم لا يعلمون منافعهم فيقصدونها، ولا مضارهم فيتجنبونها، ثم بصرهم حتى عرفوا، ونبههم على ما يشاهد كل من تصرف الطير في الهواء وعجزه عن مثل ذلك، وكان هذا مقرونا بأولى الأحوال و لم يتقدمه أمثال له يقع التنبيه عليها قبله، فيكون في حكم ما يعطف على ما تقدمه[1].

ومما تعرض له ابن الزبير من هذا الأسلوب ما بينه في آية آل عمران [١٣٣]:﴿**وجنة عرضها السماوات والأرض**﴾، وفي الحديد [٢١]:﴿**كعرض السماء والأرض**﴾ يبين ابن الزبير أنه حذف المضاف من آية آل عمران (كعرض) لأنها بنيت على قصد أكبر من المبالغة في ذكر الجزاء للمتقين. وبعد هذا التمهيد يقول ابن الزبير:" فإن قيل ولما خصت آية آل عمران بما تمهد من قصد المبالغة

---

(١) انظر درة التنزيل ص١٠٩، ١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتعظيم دون آية الحديد؟ قلت: لبنائها على الحض على الجهاد وعظيم فضله وذكر قصة بدر وأحد .." إلى آخر ما قاله في هذا الشأن[١].

وهكذا يتضح أن هذا الأسلوب في العرض له فائدة كبيرة سواء أكان ذلك في سد الثغرات أمام ما قد يتبنى من الآراء في توجيه التشابه كما رأينا من المثال المتقدم عند الخطيب. أم كان ذلك في أدائه لجوانب تكميلية في توجيه بعض المتشابهات الأخرى كمسألة إبداء التناسب كما رأينا في المثال المتقدم عند ابن الزبير.

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٧١- ١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني

المصادر العلمية لكتب المتشابه اللفظي

استقت كتب المتشابه اللفظي مادتها العلمية من المنقول والمعقول على حد سواء، وقد تم تفصيل ذلك عند الحديث عن مصادر كتب المتشابه اللفظي كما مر في الباب الأول من هذه الدراسة. وإليك الآن المقارنة بين هذه المؤلفات من حيث مصادرها العلمية.

أولاً: جوانب المأثور

من الواضح أن ابن الزبير يليه الخطيب كانا هما الأكثر تعرضاً لذكر الشواهد القرآنية. فكثيراً ما كانا يستشهدان بها في توضيح بعض القضايا العامة التي يمهد من خلالها لفهم المتشابهات. وقد تبين في فصل المصادر جوانب استشهاد الكتب الثلاثة بالقرآن على التفصيل[١].

ولم يتوسع الكرماني -كعادته- في ذكر شواهد القرآن لايجازه في توجيه المتشابهات. أما جوانب المأثور الأخرى من شواهد السنة وآثار السلف فكان الخطيب وابن الزبير يتفوقان على الكرماني أيضاً لنفس السبب المتقدم.

وحقيق بالقول هنا أن ابن الزبير كان اكثر الثلاثة عرضا لصحيح المأثور. ولعل مرد ذلك الى خبرته بصحيح الحديث من سقيمه على الأغلب.

وجملة القول أن ابن الزبير كان اكثر من غيره توسعا في ذكر شواهد المأثور وذلك تمشيا مع استطراداته الكثيرة في ملاك التأويل[٢].

ثانيا: الجوانب العلمية الأخرى:

أما من حيث الجوانب العلمية الأخرى كالمصادر التفسيرية وعلوم القرآن واللغة، فمن الواضح أن ابن الزبير تفوق على صاحبيه في توثيق مادته العلمية. فكثيراً ما كان صاحب ملاك التأويل يذكر مصادره من كتب التفسير واللغة كما فصلت ذلك من قبل[٣].

أما الخطيب والكرماني فلم يكونا يتعرضان لشيء من هذا إلا على الندرة، فأحيانا ما كنا نجدهم ينقلون عن بعض التفاسير التي لم تعرف لدينا بعد. كنقل الخطيب عن كتاب يسميه جامع التفسير، والكرماني عن كتابه لباب التفسير[٤]. هذا عدا عن بعض النقول اليسيرة عن المصادر اللغوية ككتب

---

(١) انظر ما تقدم بيانه ص٥٢-٥٥.

(٢) تقدم الحديث في فصل المصادر عن جوانب استشهاد أصحاب الكتب الثلاثة بشواهد السنة واقوال السلف راجع ما تقدم ص٥٦-٦٠.

(٣) انظر ما تقدم في فصل المصادر، ص٦٢-٦٤.

(٤) تقدم التفصيل بأكثر من هذا في المصادر انظر ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزجاج والأخفش في معاني القرآن، كما بينت لك ذلك في فصل المصادر بحيث لم يسجل هذا عند الخطيب والكرماني إلا مرة أو مرتين.

هذا ويمكنني استكمال جوانب المقارنة بين كتب المتشابه اللفظي من حيث مصادرها العلمية من خلال تسجيل الملحوظات التالية:

١) كثيراً ما كان الخطيب يتعرض للحديث عن بعض الفروع والمسائل النحوية، وتلحظ كيف أن الكرماني وابن الزبير يتأثران بها. أما الكرماني فيذكرها بشكل مقتضب، في حين يبسطها ابن الزبير كما هي عند الخطيب وأحياناً بأكثر من ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك تناقلهم للحديث عن المذاهب النحوية في تقديم الصابئين على النصارى ورفعها في آية المائدة دون البقرة[١].

ومن ذلك توسع ابن الزبير في مسألة تأنيث وتذكير الجموع وهذا ما تحدث عنه الخطيب أيضا لكنه كان بشكل أوجز مما سلكه ابن الزبَير[٢].

٢) كما يتبين من خلال القراءة في فصل المصادر أن كلا من أصحاب الكتب الثلاثة كان يستطرد في ذكر الجانب الذي يختص به ويبرع في تقريره أكثر من غيره.

فالخطيب مثلا كان يستطرد في تقرير أمهات المسائل النحوية[٣] وكان الكرماني على دراية بعلم القرآن فكان يتعرض لذكر القرآن في كثير من الأحيان[٤].

وكذلك الحال بالنسبة لابن الزبير فقد توسع في ذكر القراءات القرآنية، وبرع في بيان وجوه التناسب بين الآيات هذا بالإضافة إلى ما استطرد في بيانه من المباحث الأصولية وغير ذلك من الأمور المختلفة[٥].

٣) كما أن هناك الكثير من القضايا البلاغية لم يستقر القول فيها على عهد الخطيب حيث كان رأي ابن الزبير أكثر استقرارا بالنسبة للقول بها. كمسألة التفريق بين الجملة الاسمية والفعلية، ومسألة الالتفات، وبعض حروف المعاني.

فمثلا تجد الخطيب يقرر دائماً أن (ثم) تفيد تراخي المهلة، و لم يذكر تراخي الرتبة في كثير من

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٠-٢٢، والبرهان ص٢٩، فقرة ٢٠، وملاك التأويل ١/٧٤-٧٨.

(٢) انظر درة التنزيل ص٢٢،٢٣، وملاك التأويل ١/٨١، ٨٢.

(٣) انظر ما تقدم بيانه ص٨٩.

(٤) انظر ما تقدم ص٨١،٨٢.

(٥) انظر ما تقدم ص٨٢،٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المواضع بحيث كان ابن الزبير في نفس المواضع يضيف الحديث عن تراخي الرتبة[١].

كما يلحظ أن ابن الزبير كان يبدي براعة فائقة في تصوير معاني بعض الحروف تصويراً بيانياً، وسبب ذلك أن قضايا البيان القرآني كانت اكثر استقراراً على عهده مما كان عند الخطيب. فمن ذلك حديثه عن حرف الوعاء (في) في آية النحل [٨٩]: ﴿**ويوم نبعث في كل أمة شهيدا**﴾ وقد تقدم[٢].

٤) أما بالنسبة لموقف اصحاب الكتب الثلاثة من حروف المعاني فتلحظ أن رأي الخطيب غالبا ما يكون اكثر استقرارا واتزانا من صاحبيه. فقد كان الكرماني وابن الزبير يقولان بالزيادة والترادف في حروف المعاني، في حين كان الخطيب يرجع إلى الأصل الذي استعمل فيه الحرف كأن تكون (إلى) للانتهاء و (على) للعلو والفوقية[٣] وبناء على هذا كان يمضي في توجيه المتشابهات.

ولا ريب أن هذا منهج سليم في العرض يؤدي الى نتائج سليمة، وهو افضل من القول بالزيادة أو الترادف.

---

(١) انظر ما قاله صاحب الدرة حول العطف بالحرف (ثم) ص٢٠٢، وص ٢٨٢، وص٤٢٢، حيث قال بإن (ثم) تغير تراخي المهلة في هذه المواضع في حين قال ابن الزبير عن المواضع نفسها أنها لتراخي الرتبة (انظر ملاك التأويل ٤٧٢/١، و٦٤٩/٢، و٨٤٥/٢) .

(٢) انظر ملاك التأويل ٦٢٢/٢.

(٣) انظر درة التنزيل ص٣٥ ومن الأمثلة على قول الكرماني وابن الزبير بالزيادة والترادف انظر البرهان ص٦٨ ، فقرة ١٢٠ وص١٠٣ فقرة ٢٣٣، وملاك التأويل ٥٢٦/٢ و٨٢٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث

القواعد العامة عند أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه المتشابهات

تبين من خلال الدراسة التطبيقية على علم المتشابه اللفظي أن أصحاب الكتب الثلاثة قد استندوا إلى قواعد متعددة ومتنوعة في توجيه الآيات المتشابهات. وهي الأسس والمرتكزات عينها التي تلزم المفسر لكتاب الله في أغلب الأحيان، إذ لا غرابة بأن يكون ذلك بخاصة إذا ما علمنا أن توجيه الآيات المتشابهات وفهمها لون من ألوان التفسير.

وبناء على ما تمهد فإنك تلحظ من خلال القراءة في فصل التطبيق المتقدم أن كتب المتشابه قد اتفق أصحابها على ضوابط ومعايير متعددة في توجيه المتشابهات، كمعرفة المناسبة، وفهم السياق، ومعرفة معاني الكلمات والحروف، الى غير ذلك مما سيتبين الآن بإذن الله.

وسأقوم الآن بعملية حصر استقرائي لقواعد أصحاب كتب المتشابه اللفظي التي عولوا عليها في توجيه الآيات المتشابهات، ممثلاً على كل واحدة من هذه الأسس والضوابط بعدد من الامثلة الموجزة مما تم توجيهها في فصل التطبيق.

ويمكن التأكد من صحة هذه الأمثلة بالرجوع إلى فصل التطبيق المتقدم من أجل التأكد من مدى صحة هذه القواعد التي استند إليها في توجيهها. فمن غير الضروري هنا إعادة توجيه هذه الأمثلة مرة أخرى.

وإليك الآن هذه القواعد العامة التي اعتمدوا عليها في توجيه المتشابهات، وذلك كما هو آت:-

أولاً : المناسبة . وهذه القاعدة من أفضل قواعد كتب المتشابه اللفظي وأكثرها شيوعاً في توجيه الآيات المتشابهات. على الرغم من أن الخطيب كان هو السباق في التعويل على معرفة المناسبة في توجيه المتشابهات، إلا أننا نجد ابن الزبير قد توسع أكثر منه في بيان المناسبات على اختلافها وتنوعها. .

وقد مر فيما سبق الحديث عن أنواع المناسبات عند أصحاب كتب المتشابه كالمناسبات بين الآيات، وتناسب الألفاظ، والمناسبة الموضوعية، والمناسبة بين السور[1].

وكل هذه الأنواع كانت وسائل ناجعة ونافعة في فهم المتشابهات.

هذا و لم يكتف أصحاب كتب المتشابه بذكر الأنواع المتقدّمة بل راحوا يتوّسعون في أشكال أخرى فرعية من أشكال المناسبة . من ذلك بيان مناسبة الفواصل الختامية للآيات المتشابهة، ومن ذلك بيان مناسبة الافتتاح بالحروف المقطّعة حيث انفرد ابن الزبير ببيان هذا التناسب في ذكر الحروف المقطّعة

---

(١) انظر ما تقدم بيانه ص ٧١٣ - ٧٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من دون الخطيب الذي ذكر في مقدّمته أنه أفرد كتاباً خاصاً لبيان المراد بهذه الحروف[١] -لكنه لم يصل إلينا-.

فكان ابن الزبير -مثلاً- يبّين سر افتتاح السور المفتتحة بـ(الم) فيذكر أن هذه الحروف مذكورة في هذه السور التي افتتحت بها أكثر من غيرها من الحروف كما مرّ الحديث عن ذلك من خلال التطبيق[٢] .

هذا ويمكنني ابراز أهمية المناسبة في معرفة وتوجيه الآيات المتشابهات من خلال المظاهر التالية:-

١) قد تشكل المناسبة قاعدة مطردة في فهم عدد من الآيات المتشابهات كمسألة تقديم النفع على الضر في آيات كثيرة من القرآن، يعلل الخطيب والكرماني هذا بظاهرة التناسب مع ما قبل هذه الآيات وذلك بالقول أن كلّ واحدة منها سبقت بشيء يتضمّن ذكر المنفعة وهو مقدّم على ذكر المضرة - كما رأيت ذلك من خلال التطبيق[٣] .

٢) يعتمد أصحاب الكتب الثلاثة في أحيان كثيرة على المناسبة ووسائل أخرى في توجيه المتشابهات. من الأمثلة على ذلك اعتمادهم على المناسبة ومعرفة المقصود بحروف النفي (لا) و (لن) في آيتي البقرة [٩٥] ، والجمعة [٧] : ﴿**ولن يتمنّوه أبدا بما قدّمت أيديهم**﴾، وفي الجمعة:﴿**ولا يتمنّونه أبدا بما قدّمت أيديهم**﴾[٤].

وقد يعتمد البعض على المناسبة إلى جانب تحليل عام للسياق كاعتماد ابن الزبير لهذا الأسلوب عندما بين سرّ افتتاح السور المفتتحة بالحمد أول الفاتحة[٥].

٣) كثيراً ما تختلف أنظار الخطيب وابن الزبير في تحديد ما يربط الآية بما قبلها من الآيات من حيث القرب والبعد . فغالبا ما تجد الخطيب يربطها بالسياق العام للآيات.

وأمثل لذلك بقوله تعالى في البقرة [٢١٤]:﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم**﴾، ففي حين يربطها الخطيب بما قبلها وهو قوله تعالى:﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ البقرة [٢١٣][٦]، نلاحظ أن ابن الزبير يربطها بالسياق العام حيث قوله تعالى:﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾ البقرة [٢٠٨] [٧]حيث تلاحظ توسعه في فهم

---

(١) انظر درة التنزيل ص ٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٢٩-٣١.

(٣) درة التنزيل ص١٨٠، و٢٠٩، و ٣٢٨، والبرهان ص٨٢،٨٣، فقرة ١٦٠.

(٤) انظر ما تقدم ص١٦٠.

(٥) انظر ما تقدم ص١٣٤،١٣٥.

(٦) انظر درة التنزيل ص ٤٧، ٤٨.

(٧) انظر ملاك التأويل ١/١١٩، ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السياق أكثر من الخطيب . ولا ريب أن ما سلكه الأول أدعى في بيان التناسب إذ لا حاجة لربط الآية بالسياق إذا كان المقصود من الآية بادي الوضوح.

وفي بعض الأحيان نلاحظ أن ابن الزبير يتحدّث عن المناسبة الموضوعية لبعض النظائر المتشابهة بحيث يربطها بموضوع السورة العام ، وهذا خلاف ما يفعله صاحب الدرة الذي يربط هذا النظير بما قبله . من ذلك قوله تعالى في النساء [١٤٩]:﴿**إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوّا قديراً**﴾، فالخطيب يرى أن الآية اختصّت بذكر إبداء الخير لمّا تقدّمها قوله تعالى:﴿**لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم**﴾ [النساء /١٤٨] [١]، فإبداء الخير إذن أفضل من الجهر بالسوء من القول.

في حين يرى ابن الزبير أن الخير إنما ذكر لأن السورة كلها -أي النساء- تدور على الحث على عمل الخير والإحسان إلى فئات كثيرة[٢] . وقد تقدم تفصيل هذا .

ويخالف الخطيب مسلكه هذا في أحيان قليلة كما هو في الموضع الأول من الإسراء:﴿**ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكّروا**﴾ [الإسراء /٤٠] حيث تلاحظ أنه يسلك المسلك الموضوعي في بيان مناسبة الإيجاز في هذه الآية وذلك من خلال عرض موضوعي سريع لما في سورة الإسراء [٣] . في حين يخالف ابن الزبير ما اعتاده من هذا المنهج ويسعى إلى ربط الآية بما قبلها[٤].

وقد تقدم بيان ذلك مفصلاً من قبل.

٤) ومما يسجّل لابن الزبير تفوقه على الخطيب في بيان مناسبة المحكي من قصص الأنبياء في السور الواردة فيها. وهذا اتجاه تفرّد به دون الخطيب. من ذلك بيانه لمناسبة الوارد من قصة نوح -عليه السلام- في كل من الأعراف وهود والمؤمنين.

في حين كان الخطيب يكتفي بالقول إنها مقامات وعظية مختلفة للأنبياء [٥].

٥) أما تاج القراء فلم يسجّل عنه شيء يميّزه في إبداء التناسب سوى ما كان يتوسع في ذكره من تكلف مناسبات الألفاظ هذا ولقد حدثتك فيما سبق بالتفصيل عن أشكال المناسبة اللفظية عند الكرماني[٦] .

---

(١) انظر درة التنزيل ص٨٥.

(٢) انظر ملاك التأويل ١/٢٢٥،٢٢٦.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٢٤٣.

(٤) انظر ملاك التأويل ٢/٦٢٩.

(٥) انظر ملاك التأويل ١/٣٨٤-٤٠٠ ، ودرة التنزيل ص ١٤٩-١٥١.

(٦) انظر ما تقدّم ص٧٥،٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً : تحليل السياق القرآني . وهي وسيلة أخرى من وسائل فهم الآيات المتشابهة .

وكثيراً ما نجد أصحاب كتب المتشابه يوجّهون بعض النظائر المتشابهة اعتماداً على الفكرة العامة التي من أجلها سيقت الآيات . من أمثلة ذلك ما بيّنوه من أسباب الاختلاف بين آية البقرة [٥٨]:﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً**﴾. ونظيرتها في الأعراف من نفس القصة.

فمثلاً بنيت آية البقرة على التعبير بنون العظمة (قلنا) وذكر الرغد وتقديم السجود وغير ذلك لأن الآية في سياق ما امتن الله به من النعم على بني إسرائيل والتي كرمهم بها. وهذا السياق خلاف الواقع في الأعراف[١] وقد تم تفصيل ذلك كله من قبل.

ولا ريب في أن الخطيب وابن الزبير كانا أكثر توسعاً من الكرماني في فهم هذه السياقات القرآنية وذلك لأن الأخير بنى كتابه على الإيجاز.

ثالثاً : معرفة علة التكرار في الآيات المكررة بنفس اللفظ . وهي وسيلة هامة في توجيه ما تكرر بالألفاظ المتفقة . وقد سلك أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه مثل هذه الآيات أحد طريقين اثنين هما:-

الأول : الكشف عن معاني جديدة لهذه الآيات المكررة . وقد يكون اكتشاف مثل هذه المعاني الجديدة راجعاً إلى تحليل المناسبة والسياق لكل من الآيات المكررة . كقوله تعالى في البقرة [١٣٤،١٤١] : ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾ حيث كررت في موضعين. والملاحظ أن هذا التكرير كان يأتي بعد بيان شبهة مختلفة عن أختها من الشبهات التي كان يطرحها أهل الكتاب - وقد تقدم تفصيل هذا من قبل -[٢].

وأحياناً لا يرجع التجديد في هذه المعاني إلى السياق أو المناسبة، وإنما يفهم من معنى الآية المكررة نفسها كقوله تعالى في النبأ [٤،٥]:﴿**كلاّ سيعلمون ثم كلاّ سيعلمون**﴾، فالأولى في الدنيا والثانية في الآخرة [٣].

هذا ولقد برع الخطيب والكرماني في سلوك هذا الاتجاه في توجيه المكرر من الآيات .

ومن الملاحظ أن ابن الزبير كان يشترك معهما في قليل من هذه الآيات ، كما هو الحال في آية البقرة المتقدّمة .

---

(١) انظر درة التنزيل ص١٤-١٦، وملاك التأويل ١/٥٨-٦٥.

(٢) انظر ما تقدم ص١٦٥،١٦٦.

(٣) انظر درة التنزيل ص ٥١٦، والبرهان ص ٢٠٠، فقرة ٥٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثاني الاتجاهين هو ما سلكه ابن الزبير دون صاحبيه وهو توجيه المكرر لفظاً عن طريق القول بالتأكيد وكثر هذا من ابن الزبير في الآيات المكررة بالنسبة لما عرضته كتب المتشابه في الأجزاء الأخيرة من القرآن . كالمكرر في سورة المدثر والنبأ[١] وغير ذلك .

ولا ريب في أن الاتجاه الأول يعدّ أقوم حالاً من القول بالتأكيد وذلك لما يعطيه الأول من جدة في المعنى ، الأمر الذي يضفي الجدة المستمرة في عرض البيان القرآني .

وأحياناً تجد ابن الزبير ينصرف عن توجيه المكرر من آي القرآن وذلك من خلال تعليل الفواصل الختامية التي تأتي بعد هذه العبارات المكررة وهذا أسلوب غير كاف في توجيه التكرار وهو خلاف ما كان يفعله صاحب الدرة.

من ذلك ما وقع من تكرير العبارة في آيات النساء [١٣١، ١٣٢]:﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض**﴾ ، حيث كررت ثلاث مرات. ففي حين يوجّه الخطيب علة هذا التكرير[٢]، تجد أن ابن الزبير يسعى في بيان مناسبة ما ختمت به هذه الآيات[٣]. ولا ريب في أن معرفة علة التكرار وتوجيهه أولى من فهم مناسبة فواصل تلك الآي.

رابعاً : فهم المعنى المقصود بكل من النظائر المتشابهة حتى يتسنّى توجيهها . وكثيراً ما نجد الخطيب ينشط في تفسير كل نظير من النظائر المتشابهة حتى يتبين بالتالي معنى كل منها ويظهر وجه الاختلاف فيما بينها. من ذلك ما بينه الخطيب من الاختلاف بين آيتي الأنبياء[٥٣]، والشعراء [٧٤]: ﴿**قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين**﴾، وفي الشعراء:﴿**قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون**﴾، حيث يتولى الخطيب تفسير سياق كل من الآيتين حتى يتسنّى له التفريق بينهما[٤].

والذي تلاحظه هنا أن الخطيب لا يكتفي بالتفسير بل يستند إلى إدراك بعض الأمور البلاغية واللغوية إلى جانب تفسير المعاني . فمن ذلك أيضاً ما بينه في آيتي البقرة [٢٣٤، ٢٤٠] :﴿**فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن بالمعروف**﴾، وفي الثانية: (من معروف) ، حيث يفسر المقصود بالمعروف الأول والثاني إضافة إلى بيانه معنى (من) والباء [٥].

أما الكرماني فكان يطنب في ذكر الأقوال التفسيرية لبعض النظائر المتشابهة من غير أن يتولى ترجيح أي من هذه الأقوال . من ذلك ما أورده من الأقوال الواردة في التكرار في آيات القبلة[٦] . ومثل

---

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٩٢٨، و٩٦٠.

(٢) انظر درة التنزيل ص ٨٢.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٢١٨.

(٤) انظر درة التنزيل ص٢٩٩

(٥) انظر المرجع السابق ص ٥٢.

(٦) انظر البرهان ص ٣٣ ، فقرة ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك ما ذكره في التفريق بين من وصفوا بالكفر والظلم والفسق ممن لا يحكمون بما أنزل الله كما بينته سورة المائدة[١] .

أما ابن الزبير فكثيرا ما يتبنّى هو الآخر شرح بعض المتشابهات والذي يكون بمثابة تمهيد لتوجيهها وبيان أسباب الاختلاف فيما بينها . من ذلك بيانه للمقصود بآيات التحدي في سورة البقرة قبل أن يبين ما بينها من الفروق اللفظية[٢].

خامساً : الاستناد إلى أصول لغوية في توجيه المتشابهات. استندت كتب المتشابه إلى قضايا اللغة في توجيه المتشابهات. فأحياناً ما نجدهم ينظرون إلى معاني الألفاظ في النظائر المتشابهة ، ومعاني الحروف الموجودة فيها وذلك حتى يتسنى معرفة الفرق فيما بينها. هذا ولقد كان الخطيب أكثر الثلاثة توفيقاً في استخدام هذا الأسلوب . أما الكرماني وابن الزبير فقد عنوا هم أيضاً بالتعويل على هذه الطريقة ولكنّهم لم يوفقّوا كثيرا في إصابة الحق كما كان يفعل الخطيب .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك ما استند إليه الخطيب وتابعه الكرماني في آية البقرة [٣٥]: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة**﴾ ونظيرتها من الأعراف . فتلاحظ أن الخطيب قام بتحديد معنى السكني في كل من الآيتين وقام بالكشف عن معنى الفاء والواو ومن ثم بنى على ذلك رأيه في توجيه هذا التشابه[٣]. هذا وقد يستندون إلى قضايا أخرى إلى جانب الأصول اللغوية في فهم المتشابهات، من ذلك الاستناد إلى السياق واللغة في فهم بعض المتشابهات كالتفريق بين الانفجار والانبجاس في قصة موسى بين البقرة والأعراف كما فعل الكرماني وابن الزبير[٤].

ومن ذلك الاستناد إلى ظاهرة التناسب واللغة في فهم بعض المتشابهات كمناسبة التعبير بالفاء والواو في النظائر المتشابهة كقوله تعالى في الأنعام [٢١]: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته**﴾. هذا بالإضافة إلى بيان مناسبة تعريف الكذب في آية الصف دون باقي هذه النظائر – وقد مر مفصّلا–[٥].

هذا ومما يؤخذ على الكرماني وابن الزبير أحياناً .قولهم بالترادف أو الزيادة في بعض حروف المعاني فكانوا أحيانا لا يرون فرق بين اللام و(إلى) أو بين (إلى) و (على) . وأحيانا ما يقولون بزيادة بعض الحروف كزيادة (من) في بعض المواقع وقد مر تفصيل ذلك كله من قبل . وهذا خلاف ما كان يفعله الخطيب حيث لم ينقل عنه مثل هذا على الأغلب.

---

(١) انظر البرهان ص٥٥، فقرة ٨٩.

(٢) انظر ملاك التأويل ٣٧/١.

(٣) انظر درة التنزيل ص ١٠،١١، والبرهان ص ٢٥ ، فقرة ١١.

(٤) انظر البرهان ص٢٨ ، فقرة ١٨ ، وملاك التأويل ٦٧/١ ، ٦٨.

(٥) درة التنزيل ص١١٤،١١٥، والبرهان ص٥٨، فقرة ٩٦، وملاك التأويل ٢٩٩/١ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي نلاحظه هنا أن قواعد أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه الآيات متداخلة بعض الشيء فأحياناً ما تعتمد اللغة والسياق ، أو فهم المعنى والسياق، أو المناسبة والسياق واللغة إلى غير هذا من التداخل في هذه القواعد المرتكزات ، وهذا أمر ضروري لأن هذه الأسس ليست قواعد صمّاء وإنما هي ركائز حيوية يأخذ منها المفسر قدر حاجته بما يمكّنه من فهم الآيات المتشابهات على الوجه الأكمل.

سادساً: الاستناد إلى أصول بلاغية في توجيه المتشابهات . ولا ريب أن ذلك امتداد للأصول اللغوية ولكن أفردت هذا بالذكر من باب التفريع ولتشعب قضايا اللغة .

فكثيراً ما كنت تجد أصحاب كتب المتشابه يعتمدون على بعض المفاهيم البلاغية في الجمع بين النظائر المتشابهة . كالتفريق بين الجملة الاسمية والفعلية، أو بيان علة التقديم والتأخير، أو حكمة الالتفات إلى غير ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك تفريقهم بين الآيتين:﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم** ﴾ [هود/١١٧]، وفي القصص [٥٩]:﴿**وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا**﴾[١] . ومن ذلك بيانهم لحكمة الالتفات في آية النحل [٧٢]:﴿**ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون**﴾[٢].

ومما يلحظ هنا أن آراء ابن الزبير في مثل هذه القضايا كانت أكثر استقراراً واتزاناً والسبب في ذلك يرجع إلى استقرار القول في مثل هذه القضايا البلاغية على عهد ابن الزبير، وهذا خلاف ما كان في عهد الخطيب حيث لم تتبلور كثير من مسائل البلاغة والبيان القرآني ، ومع هذا فإنك قلما كنت تجد الخطيب يقع في الخطأ في تقرير هذه المسائل وإنما كان يجاري ما كان منتشراً من الآراء في زمانه ذلك العصر الذي كان اهتمام العلماء فيه ما يزال منصبّا على قضايا اللغة والنحو أكثر من قضايا البلاغة والبيان .

سابعاً : ترتيب السور. وهو أمر توقيفي، وكثيراً ما كان يعتبره ابن الزبير أصلاً مراعى في توجيه بعض المتشابهات . ولكن مما يلاحظ أن مراعاة الترتيب لم يكن وسيلة مستقلة في فهم الآيات المتشابهات، وإنما هو مقصد يستند إليه ابن الزبير إلى جانب وسائل أخرى في فهم ما تشابه من الآيات.

من ذلك استناد ابن الزبير لأمر مراعاة الترتيب إلى جانب اللغة والسياق في فهم سبب اختصاص آية آل عمران بذكر المسارعة إلى المغفرة وآية الحديد بذكر المسابقة إلى المغفرة حيث بين أن المسارعة قبل المسابقة وإن ذلك جاء على وفق الترتيب الثابت .

هذا إضافة إلى ما بينه من الأمور اللغوية واختلاف سياق كل من الآيتين – وقد مرّ – [٣].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٣١-٢٣٤، والبرهان ص٩٩، فقرة ٢١٩، وملاك التأويل ٢/٥٣٢-٥٣٤.

(٢) انظر درة التنزيل ص٢٧٠، والبرهان ص١١٤، فقرة ٢٦٩، وملاك التأويل ١/٦١٣-٦١٥.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/١٧١-١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك استناده إلى هذا المقصد في آية البقرة[٣٨] وطه[١٢٣] حيث عبر في الأولى بـ (تبع) وفي الثانية بالفعل (اتّبع) فبيّن أنه قدم الأصل مراعاة للترتيب الثابت في السور إضافة إلى ما أضافه من القول بمناسبة الجرس في كل من الكلمتين[١] .

ثامناً : إعراب بعض المتشابهات تمهيداً لتوجيه معانيها. هذا ما استخدمه أصحاب الكتب الثلاثة في أحيان كثيرة، ذلك أن الإعراب فرع المعنى، وهو من أهم المرتكزات التي يقوم عليها فهم كتاب الله.

فأحياناً كنت أجدهم يعربون بعض النظائر المتشابهة ثم يقومون بتوجيهها عن طريق استخدام وسائل أخرى كالسياق مثلاً.

من ذلك ما بينه الخطيب من وجوه الإعراب في آية البقرة [١٢٦]:﴿**ربّ اجعل هذا بلداً آمناً**﴾ ونظيرتها في سورة إبراهيم[٢] وما بينه الكرماني في آية النحل [٢٤]:﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾،وفي المتقين:﴿**قالوا خيراً**﴾ [النحل/٣٠][٣].

ومن ذلك ما بينه ابن الزبير في إعراب النظائر المتشابهة لآية الأنعام [٣٢]:﴿**وللدار الآخرة خير للذين يتقون**﴾ حيث يمّهد بإعراب الدار الآخرة في هذه الآية مبينا نوع اللامات في هذه النظائر ثم يمضي في توجيهها عن طريق معرفة المناسبة[٤].

تاسعاً : تقديم ما هو الأصل في النظائر المتشابهة وتأخير ما هو فرع عنه . فأحيانا تجد الخطيب يلجأ إلى هذا الأسلوب في توجيه المتشابهات . والذي أراه أن الخطيب يلجأ إلى هذا الأسلوب حينما تنعدم لديه الوسيلة في توجيه التشابه .

من ذلك ما بينه الخطيب في آيتي البقرة [١٧٠]، والمائدة [١٠٤]:﴿**قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا**﴾، وفي المائدة:﴿**ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ فبعد أن يبين المقصود بكل من الكلمتين (ألفى) و(وجد) يقول أنه تقدم اللفظ الأخص وهو (ألفى) على اللفظ المشترك وجد في آية المائدة[٥].

ومثله في الأعراف حيث قوله تعالى : ﴿ **فأنجيناه والذين معه** ﴾ [الأعراف /٦٤]، وفي يونس (٧٣) : ﴿**فنجّيناه ومن معه** ﴾ فقدّم الأصل (أنجينا) وأخر الفرع (نجينا)[٦] .

في حين نلاحظ أن ابن الزبير والكرماني يلجأون إلى وسائل أخرى في توجيه مثل هذه المتشابهات فيلجأون مثلاً إلى التناسب والسياق واللغة وما شاكل ذلك من الوسائل .

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٤٣

(٢) انظر درة التنزيل ص٢٩.

(٣) انظر البرهان ص ١١١ ، فقرة ٢٥٨.

(٤) انظر ملاك التأويل ٣١٧/١.

(٥) انظر درة التنزيل ص ٣٨، ٣٩.

(٦) انظر المرجع السابق ص ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه الوسيلة - أعني تقديم ما هو الأصل - كان يلجأ إليها الخطيب بعد التمهيد لتوجيه هذه المتشابهات بوسائل مختلفة كبيان معاني الكلمات أو فهم السياق وما إلى ذلك ثم يقرر هذه الوسيلة والتي تكون بمثابة النتيجة لما يتمّ التمهيد له.

عاشراً : الإيجاز في موضع والإطناب في آخر . كثيراً ما كانت كتب المتشابه ترجع أسباب الاختلاف بين النظائر المتشابهة إلى هذا السبب وهو الإيجاز في موضع والإطناب في آخر.

ولكن ما نلحظه هنا أن ابن الزبير كان أكثر الثلاثة اعتماداً لهذا المسلك في توجيه المتشابهات. ثم وجدت الخطيب والكرماني يأخذان بهذه الوسيلة أيضاً وكانوا يقعون في بعض المزالق والإشكالات.

من ذلك ما بنت عليه الكتب الثلاثة توجيه كثير من المتشابهات من قصة موسى -عليه السلام- بين الأعراف والشعراء . حيث بنيت الأعراف على الاختصار والشعراء على الطول وقد سبق القول بعدم دقة هذا الكلام وأنه لا يؤخذ على إطلاقه[١] .

غير أنه -والحق يقال- يعدّ الخطيب أكثر اعتدالاً من ابن الزبير في سلوك هذا السبيل حيث تقلّ المواضع التي بين مواضع الاختلاف فيها بهذه الطريقة أكثر من صاحب ملاك التأويل فمن ذلك ما بنى عليه الاختلاف بين آيتي آل عمران [١٨٤]، وفاطر [٢٥] ففي الأولى:﴿**جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**﴾، وفي الثانية: ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزبر وبالكتاب المنير**﴾ حيث بنيت الثانية على الطول خلاف الأولى[٢].

أما ابن الزبير فكان يعوّل على هذه الطريقة في مواضع كثيرة من المتشابهات، الأمر الذي جعل أفكاره في كثير من الأحيان تكون عرضة لعدم العمق والسطحية .

وقد رأينا في فصل التطبيق من ذلك الشيء الكثير . في حين تجد أن الخطيب يوّجه مثل هذه المواضع بناء على ما يمهّده من الأصول اللغوية ، الأمر الذي يجعل أفكاره أكثر عمقا ومصداقية[٣].

وأكتفي هنا بمثال واحد وهو قوله تعالى: ﴿ **ولأن اتّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم** ﴾ [البقرة/١٢٠]، وفي آخر : ﴿ **بعد ما جاءك من العلم** ﴾ [البقرة /١٤٥] ففي حين يبني الخطيب الفرق بين هاتين الآيتين على التفريق بين (ما) و (الذي) ، تجد ابن الزبير يلجأ إلى مسلك الإيجاز والإطناب معتبراً أن ما أوجز من الذي[٤] -وقد تمّ التفصيل بأكثر من هذا من قبل- .

هذا و لم ألحظ من خلال التطبيق اتفاق كلمة أصحاب كتب المتشابه على هذا المسلك -أعني الإيجاز في موضع والإطناب في آخر- إلا في سورة مريم (٦٠) حيث قوله تعالى:﴿**إلا من تاب وآمن**

---

(١) انظر ما تقدم ص٢٨٨، ٢٨٩ من النسخة الأم.

(٢) انظر درة التنزيل ص٧٤.

(٣) من الأمثلة على ذلك انظر درة التنزيل ص١٣٣=١٣٥، وملاك التأويل ٣٥١/١،٣٥٢.

(٤) انظر درة التنزيل ص ٢٥ فما بعدها ، وملاك التأويل ٨٥/١-٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعمل صالحاً﴾، وفي الفرقان [٧٠]: ﴿**وعمل عملا صالحا**﴾ حيث اعتمد أسلوب الإيجاز في الأولى والإطناب في الثانية، وقد تقدم[١].

حادي عشر: التعميم والتخصيص، كأن يكون أحد النظائر المتشابهة عاما والآخر خاصا.

فلما كانت كتب المتشابه تلجأ إلى هذه الوسيلة، والملاحظ أنها لا دليل عليها لأن التخصيص يبقى بحاجة إلى دليل. من ذلك ما بينوه من الاختلاف الواقع بين آيتي البقرة [١٩٣] والأنفال [١٣٩] ففي الأولى:﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾، وفي الثانية: ﴿**ويكون الدين كله لله**﴾ فيرون أن الأولى خاصة بأهل مكة والثانية عامة. وهذا ما لا دليل عليه، وقد تقدم مناقشة العموم في الآيتين[٢].

وأحيانا ما تختلف نظرة الخطيب عن نظرة ابن الزبير بالنسبة لبعض المتشابهات من حيث العموم والخصوص. وقع ذلك في سورة المائدة حيث الآيات الثلاث التي تسم من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق، ففي حين يرى الخطيب أن هذه الآيات خاصة بأهل الكتاب يرى ابن الزبير أنها عامة وإن نزلت على ذلكم السبب الخاص[٣]: والحق ما ذهب إليه الأخير.

ثاني عشر: القول بمناسبة جرس الكلمة. وهذا الأسلوب أحياناً ما كنت أجده عند الكرماني وابن الزبير بحيث يرون أن الكلمة في جرسها تكون مناسبة للسياق الواردة فيه أكثر من غيرها. ولا ريب أن هذا أسلوب حسن في فهم المتشابهات بحيث يجعل للكلمة القرآنية روحها الخاصة وجرسها الذي تتميز به عن غيرها، الأمر الذي يبطل القول بالترادف في كلام الله تعالى.

من ذلك ما أورده الكرماني حول الفرق بين الآيتين:﴿**فرجعناك إلى أمك**﴾[طه/٤٠]، وفي القصص [١٣]: ﴿**فرددناه إلى أمه**﴾ وذلك في شأن موسى -عليه السلام-. فالرد فيه تعنيف أكثر من الرجوع وجاء التعبير بكلا الفعلين تناسبا مع السياق الوارد فيه وقد تقدم.

ولا مانع من أن أقرر هنا أن الكرماني تأثر بالخطيب في تفسير الرد والرجوع حيث ذكر ذلك الخطيب في سورة الكهف بين قصة أصحاب الجنة وآية أخرى ليست من المتشابه من سورة فصلت حيث من الواضح تأثر الكرماني بما حكاه الخطيب إذ ذاك[٤].

ومن ذلك ما أورده ابن الزبير في التفريق بين آيتي البقرة [٢٣١] والطلاق [٢]: ﴿**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**﴾، وفي الطلاق: ﴿**أو فارقوهن بمعروف**﴾ فالفراق فيه ثقل ومشقة على

---

(١) انظر درة التنزيل ص٢٩٠، والبرهان ص١٢٩، فقرة ٢٩٤، وملاك التأويل ٢/٦٦٥،٦٦٦.

(٢) انظر ما تقدم ص **١٧٩**

(٣) انظر درة التنزيل ص٩٩، وملاك التأويل ١/٢٦٦،٢٦٧.

(٤) انظر ما قاله صاحب الدرة في التفريق بين الرد والرجوع ص ٢٨١ فما بعدها، وما قاله الكرماني في سورة طه. البرهان ص١٢٨، فقرة ٢٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النفس بخلاف التسريح الذي استعمل في سياق الملاطفة والإحسان الى النساء وعدم الإضرار بهـن. وقد تقدم تفصيل هذا[١].

ثالث عشر: القول بتاريخ النزول. وهذه وسيلة مساعدة في توجيه المتشابهات إضافة الى وسائل أخرى كاللغة والسياق. فأحياناً ما كنت تجد الخطيب يلجأ إلى هذا الأسلوب في توجيه بعض المتشابهات حيث يقول أن هذه الآية نازلة قبل الأخرى. ولكن هذا الأمر لم يسعفه في كثير من الأحيان لأنه أمر غير متفق عليه غالبا إلا ما ورد فيه نص صريح. فمن ذلك ما أورده الخطيب من القول بأن سورة النمل نازلة قبل سورة الأعراف و بناء على ما تمهد تراه يجمع بين قصة لوط الواردة في كل من السورتين[٢].

وقلما يلجأ ابن الزبير إلى مسألة تاريخ النزول، فمن ذلك ما رآه من أن آية المائدة الأولى اختصت بحل بهيمة الأنعام دون غيرها لأن المائدة من أواخر ما نزل فتضمنت تفصيل مثل هذه الأحكام -وقد تقدم-[٣].

رابع عشر: القول برعاية الفاصلة. وكثيرا ما كانت كتب المتشابه تبني آراءها على هذه العلة اللفظية التي لا تعدّ كافية في تذوق البيان القرآني: هذا ولقد كثر التعويل على هذا المسلك عند أصحاب الكتب الثلاثة. فمن ذلك ما قدموه في حل بعض المتشابهات في قصة موسى ما بين الأعراف وطه والشعراء. حيث كنت أورد هذا في فصل التطبيق[٤]. وكنت أسعى إلى تقديم ما هو بديل عن هذا المسلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

خامس عشر تنوع المقامات أو تنوع المحكي في السور المختلفة. كثيراً ما كان يلجأ الخطيب إلى مثل هذا الأسلوب وذلك في الوارد من قصص الأنبياء في اختلاف السور حيث يعدها مقامات وعظية مختلفة للأنبياء مع أقوامهم. كالاختلاف الوارد بين قصة نوح في الأعراف وهود والمؤمنين.

هذا و لم يكتف ابن الزبير بتقرير هذا المسلك كما أخبرتك من قبل بل كان يذهب دائما الى تعليل مناسبة الوارد من ذلكم المحكي لموضوع السورة أو السور التي كان يرد فيها[٥]. ولا ريب أن هذا المسلك فيه الكثير من الوفاء للبيان القرآني.

سادس عشر: هذا وقد يستند ابن الزبير في بعض الأحيان إلى وسائل أخرى في الجمع بين المتشابهات كالقول بتعدد اللغات في النظائر المتشابهة كالواقع ما بين طه [٤٧] والشعراء [١٦]: ﴿**فقولا إنا**

---

(١) انظر ملاك التأويل ١/١٢٤.

(٢) انظر درة التنزيل ص١٦٠ فما بعدها.

(٣) انظر ملاك التأويل ص ١/٢٢٩.

(٤) انظر مثلا ما تقدم ص٢٩١ فما بعدها من النسخة الأم.

(٥) انظر درة التنزيل ص١٤٩-١٥١ وملاك التأويل ١/٣٨٤-٤٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسولا ربك﴾، وفي الشعراء :﴿**إنا رسول رب العالمين**﴾ حيث أن التعبير بالواحد عن الاثنين هي اللغة الأقل شهرة[1] وقد مر. وقل ما كان ابن الزبير يلجأ إلى مثل هذا .

وبعد: فهذه هي القواعد العامة في توجيه الآيات المتشابهات، وقد قمت باستقرائها من خلال قراءتي للكتب الثلاثة بدقة وعناية، وإني لآمل أن أكون وفقت في عرض هذه الأسس والمرتكزات في توجيه ما تشابه لفظا من آي القرآن الكريم.

(١) انظر ملاك التأويل ٦٨١/٢ فما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الرابع

أهداف الكتب الثلاثة ومقاصدها في عرض المتشابه اللفظي

أشار أصحاب كتب المتشابه اللفظي في مقدمات كتبهم إلى أهداف ومقاصد جليلة، جعلتهم يصنفون هذه المؤلفات في المتشابه اللفظي. ونجمل هذه المقاصد فيما يأتي:

١) أن أحداً من المتقدمين لم يتحدث عن هذا العلم. فالخطيب يصرح أنه تأمل كتب المحققين والمتبحرين من أهل التفسير فلم يجد من ذلك شيئا[١]. وكذلك الحال بالنسبة للكرماني الذي ذكر أن المفسرين قد اكتفوا بذكر المتشابهات ونظائرها دونما توجيه لها[٢].

والى مثل هذا ذهب ابن الزبير مشيرا الى كتاب صاحب الدرة في هذا الموضوع[٣]. فعزم على أن يضيف عليه الكثير مما عده من المغفل مما لم يتعرض الخطيب لذكره.

٢) توجيه الآيات المتشابهة المكررة بالألفاظ المتفقة والمختلفة بالزيادة أو النقصان أو التقديم أو التأخير، ومناسبة الوارد في كل سورة من السور. فهذا المقصد هو موضوع هذه المؤلفات وقد نبه عليه أصحاب كتب المتشابه في المقدمات[٤].

٣) الرد على الملاحدة والطاعنين الذين يرجفون بآيات القرآن المكررة ويشيعون حولها الأباطيل والشبهات. وقد صرح بهذا المقصد الخطيب وابن الزبير في مقدمتي كتابيهما[٥].

٤) أمن مخاوف العثار عند قراءة القرآن، وذلك من خلال معرفة المتشابهات ونظائرها. وقد نبه على ذلك الخطيب[٦].

٥) إحراز آلات كثيرة من العلوم لم تبلغها أمة قبلنا، وذلك من خلال توجيه المتشابهات. وهذا ما نبه عليه الخطيب وابن الزبير[٧].

---

(١) انظر درة التنزيل ص٧.

(٢) انظر البرهان ص١٧.

(٣) انظر ملاك التأويل ١/٥ -٦.

(٤) انظر درة التنزيل ص٧، والبرهان ص١٧، وملاك التأويل ١/٤.

(٥) انظر درة التنزيل ص٧، وملاك التأويل ١/٥.

(٦) انظر درة التنزيل ص٨.

(٧) انظر المرجع السابق ص٨،٩ ، وملاك التأويل ١/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦) تدبر إعجاز القرآن من خلال الوقوف على معاني الآيات المتشابهات. حيث أشار ابن الزبير إلى ذلك في أول مقدمته[١].

هذا ومن الملاحظ أن الكتب الثلاثة قد وفت بهذه المقاصد والأهداف المقررة الآن والتي نبهو عليها في مقدماتهم. فكانوا -والحق يقال- خير حريص على توجيه ما تكرر لفظا من آي القرآن وما تشابه بالألفاظ المختلفة.

غير أنه -والحق يقال- أن ما ذكرته كتب المتشابه من الآيات المكررة لم يكن نهاية المطاف بالنسبة للمكرر في القرآن الكريم وخصوصاً ما تكرر بالألفاظ المتفقة، فكثيرا ما كانوا يغفلون التعرض للآي المكرر بنفس الألفاظ في السور المختلفة. ولا ريب أن الكرماني كان من أكثر من نبهوا على الآيات المكررة.

هذا ولعل خير شاهد على ما قررته الآن هو ما كنت أحاول إضافته من المغفل في فصل الدراسة التطبيقية ويؤكد ذلك بوضوح ما ذكرته من مغفل الكتب الثلاثة حول سورة الأنعام حيث تتبين بوضوح أن هناك كثيراً من المغفل من الآيات المكررة بنفس اللفظ.

أما المكرر بألفاظ مختلفة فقد برعت فيه كتب المتشابه اللفظي أكثر من المكرر بالألفاظ المتفقة. والذي أراه أن سبب ذلك يرجع إلى أن توجيه المكرر بالألفاظ المختلفة هو أكثر ما يسأل عنه، ومن الممكن أن يضفي قيمة أكثر أهمية على قضايا البيان القرآني. وهذا خلاف المكرر بنفس اللفظ إذ يمكن معرفة علة التكرير فيه من خلال فهم السياق على الأغلب.

هذا ومما يذكر أيضا أن كتب المتشابه اللفظي تشترك فيما تقدم بيانه من هذه المقاصد والأهداف في معظمها. وقد نبهوا على ذلك مرارا في كتبهم. واليك بعض الأمثلة على ذلك:

فمن ذلك ما أورده الخطيب في آخر كتابه حيث يقول:"هذا آخر ما تكلمنا عليه من الآيات التي يقصد الملحدون إلى التطرق منها إلى عيبها، والحمد لله وحده، وصلوات الله وسلامه عليه وعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"[٢].

وقريبا من هذا يذهب الكرماني حيث يقول في آخر كتابه:" وقد أوردت فيه جميع ما دونه السلف من المتشابه في كتبهم وأضيف إليه ما نسخ به الخاطر مما شاكله مع ذكر الوجوه والعلل، وبيان اختصاص كل سورة بما اشتملت عليه دون السور الأخرى بحيث لا يبقى لزائغ فيه مقال ولا لطاعن فيه مجال"[٣].

---

(١)نظر ملاك التأويل ١/٤.

(٢) درة التنزيل ص٥٣٨.

(٣) البرهان ص٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيراً ما كان ابن الزبير يصرح بمقصود كتابه في ثنايا بيانه للآيات المتشابهات. فتجده مثلاً بعد ما يبين المقصود بتذكير الطير في آية آل عمران[٤٩]، وتأنيثه في آية المائدة [١١٠] كما تقدم تجده يقول "بقي السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضعين بالوارد فيه وهو من مقصودنا في هذا الكتاب"[١].

وبعدٌ أن يذكر الموضع الأول من المتشابهات في سورة طه تجده يقول:" هذه الآي من مشكلات الضرب الثاني الذي بنينا عليه مقصود هذا الكتاب"[٢] يقصد بذلك القصص المكررة بالألفاظ المختلفة وهي في ذلك المقام قصة موسى في طه والنمل والقصص.

وأحيانا أجد الكرماني وابن الزبير يحثون على تأمل الآيات المتشابهات ويبينون عظمة البيان القرآني وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ولا ريب في أنهم كانوا يحثون على هذا المسلك بعد طول تدبر لآيٍ القرآن كما هو المقصد الذي بنيت على كتب المتشابه اللفظي.

فمن أمثلة ما قاله تاج القراء في هذا الشأن ما قاله بعد بيانه للفرق بين الفعل واسم الفاعل في آية الأنعام [٩٥]:﴿**يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**﴾ يقول الكرماني بعد بيانه الفرق بين (يخرج) ومخرج: فتأمل"فيه فإنه من معجزات القرآن"[٣].

ومن ذلك ما بينه ابن الزبير بعد أن بين سبب الاختلاف الأول في قصة موسى بين الأعراف والشعراء حيث يقول:"ومن هنا يتبين أن الوارد في سورة الشعراء لم يكن ليناسب الوارد في الأعراف، ولا الوارد في الأعراف ليناسب الوارد في الشعراء بوجه ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ [النساء/٨٢][٤] .

وهكذا نلاحظ أن كتب المتشابه اللفظي قد وفت بمعظم أهدافها ومقاصدها التي أشار إليها أصحابها في مقدماتهم. غير أنني أحب أن أقرر هنا الى ان ما أورده صاحب ملاك التأويل من المغفل الذي استدركه على صاحب الدرة أن هذا المغفل لا يصلح أن يكون جميعه من المتشابه لفظا هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك بعض المغفلات التي رمز إليها ابن الزبير بالحرف - غ- ليس صحيحا كما يقول أنها من المغفل حيث تبين مع الاستقراء أن الخطيب ذكرها في مواقع متأخرة من كتاب الدرة.

والذي جعل ابن الزبير يعدها من المغفلات هو حديثه عنها في مواضع متقدمة في ملاك التأويل. ومن الأمثلة على ذلك ما عرضه ابن الزبير من المتشابهات في الأنعام من الآيات التي تتحدث عن ظلم من يفتري على الله الكذب، حيث من الملاحظ أن ابن الزبير عد معظمها من مغفل كتاب الدرة عدا

---

(١) ملاك التأويل ١/١٥٧.

(٢) المرجع السابق ٢/٦٦٨.

(٣) البرهان ص٦٢، فقرة ١٠٦.

(٤) ملاك التأويل ١/٤٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آيتي يونس والأنعام[١]. لكنك إذا ما استقرأت ما عرضه الخطيب تلاحظ أن هذه الآيات أشار إليها في سورة الصف[٢]. ومن هنا تلاحظ أن ابن الزبير لم يكن دقيقا في ذكر المغفلات.

وإلى هنا ينتهي بنا المقام في المقارنة بين كتب المتشابه اللفظي، راجيا أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة موفية للغرض عن كتب المتشابه اللفظي من حيث مناهجها، وأساليبها، ومصادرها العلمية، والقواعد التي اعتمد عليها أصحابها في فهم المتشابهات وتوجيهها، هذا بالإضافة الى مقاصد أولئك الأعلام في إصدار هذه المؤلفات.

(١) انظر ملاك التأويل ١/٢٩٩.

(٢) انظر درة التنزيل ص٤٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث:

القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي

ويشتمل على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول:

أقوال العلماء وشهاداتهم لهذه المؤلفات واصحابها.

المبحث الثاني:

المميزات العامة لكتب المتشابه اللفظي.

المبحث الثالث:

أهمية كتب المتشابه اللفظي واعتبارها مصادر معتمدة،

وأثرها فيمن جاء بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

تعد كتب المتشابه اللفظي من أهم الدراسات القرآنية التي يقوم عليها علم إعجاز القرآن في مجال التطبيق. فكان من الضروري أن تتجه همم الباحثين والمشتغلين في النص القرآني لدراسة ما في هذه المؤلفات من أجل إبراز قيمتها العلمية. وأرجو أن تكون هذه الدراسة لفتة ولبنة صالحة في الدراسات القرآنية تعمل على إبراز القيمة العلمية لهذه المؤلفات الجليلة. هذا وقد تمثل هذا في أهمية توجيه الآيات المتشابهات في مختلف المواقع المتشابهة في شتى السور القرآنية.

ومما يؤكد القيمة العلمية لهذه الكتب هو سلوكها خطوات جريئة ومبتكرة في إيراد الآيات ونظائرها المتشابهة ومن ثم توجيهها والجمع في ما بينها، الأمر الذي يعد بذرة حقيقية للمسلك الموضوعي في الدراسات القرآنية على مستوى ذلك العصر الذي الفت فيه هذه الكتب الثلاثة.

فمن المعلوم أن نشاط المفسرين بين القرنين الخامس والسادس الهجريين يكاد يكون منحصرا في الفهم التحليلي للآيات القرآنية ممثلا بكتب التفسير المختلفة التي ألفت في تلك الأعصر. كتفسير الزمخشري والرازي وغيرها من التفاسير حيث كانت تنشط في تفسير القرآن حسب ترتيب آياته وسوره في المصحف.

أما أصحاب كتب المتشابه فقد سلكوا خطوات أخرى في فهم هذه الآيات المتشابهات على اعتبار أنه فن مستقل من فنون التفسير، وعلم من علوم القرآن من الناحية التطبيقية. وبالتالي كان التأليف في المتشابه اللفظي في القرآن كسائر المباحث الأخرى المتعلقة بهذا القرآن العظيم كاستقصاء أسباب النزول أو الناسخ والمنسوخ كما كان يفعل علماء آخرون ممن كتبوا في هذه الموضوعات خدمة للنص القرآني الكريم. وفي ضوء ما تقدم يمكننا إجمال القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي من خلال بيان الجوانب الآتية:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الأول

أقوال العلماء وشهاداتهم لهذه المؤلفات وأصحابها.

إن من أهم ما يبرز القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي هو اشتهارها في أوساط أهل العلم على مر العصور. فلهذا لم يكن علم المتشابه اللفظي بدعا من العلوم واشتهر في أوساط أهل العلم منذ القدم.

هذا ويمكنني تسجيل مواقف العلماء من كتب المتشابه اللفظي وأصحابها من خلال تسجيل المظاهر الآتية:

١) تنبيه الزركشي والسيوطي على علم المتشابه اللفظي ومن الفوا فيه. حيث تحدثوا عن هذا العلم وجعلوه من مباحث علوم القرآن المُهِمة. هذا ولقد جعلوا أصحاب الكتب الثلاثة – الإسكافي والكرماني والغرناطي– من خيرة من صنفوا في هذا العلم ذاكرين أن كتبهم هي المعول عليها في هذا الشأن. هذا ولقد استوفيت الحديث في هذا الموضوع حين الحديث عن التأليف والتصنيف في علم المتشابه اللفظي[١].

٢) تعرض أصحاب كتب التراجم للحديث عن أصحاب كتب المتشابه اللفظي حيث بينوا فضلهم ومكانتهم العلمية وطول باعهم في العلوم المختلفة. فمثلا كان الخطيب أحد الثلاثة الذين فازوا في العلم من أهل أصبهان[٢] وكان الكرماني إماماً قارئاً فقيهاً عجباً في دقة الفهم وكان ثقة حافظا قرأ عليه عدد من العلماء واشتهر بلقب تاج القراء[٣].

أما ابن الزبير فلم يكن أقل شأناً من صاحبيه، فقد كان إماماً محدثاً وأصولياً مقرئاً ولغوياً بارعاً كما فصلت كتب التراجم ذلك من قبل وقد مر[٤].

فلما كان هؤلاء الثلاثة على هذا المستوى من المقدرة العلمية وفقا لما قالته الكتب التي ترجمت لهم كان لا بد من أن تكون أقوالهم ذات قدر واعتبار في ميزان أهل العلم، ذلك انهم إنما قالوا ما قالوه عن قدرة وإطلاع ونمو في الملكة التفسيرية المنبعثة من العلوم التي اشتهروا بتنقيح مسائلها.

٣) هذا و لم تقتصر عبارات المترجمين لأصحاب كتب المتشابه على الترجمة بل أنك قد تجد أحياناً وصفا لكتب المتشابه نفسها فمن ذلك ما قاله الحافظ ابن حجر – رحمه الله في ترجمة ابن الزبير "وجمع

---

(١) انظر ما تقدم ص٢١.

(٢) تقدم التفصيل بأكثر من هذا في ترجمة الخطيب الإسكافي انظر ص٣٥.

(٣) انظر ترجمة الكرماني المتقدمة ص٤١، ٤٢.

(٤) انظر ما تقدم في ترجمة ابن الزبير ص٤٥،٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتابا في فن من فنون التفسير سماه ملاك التأويل. نحا فيه طريق الإسكافي الخطيب في ذلك، فلخص كتابه وزاد عليه شيئا بنفسه"[١].

وهذا القول الذي قاله الحافظ ابن حجر غير دقيق من الناحية العلمية كما سبق ذكره، ولقد رأينا في فصل التطبيق أن ابن الزبير كان بحق يمثل شخصية مستقلة في توجيه كثير من المتشابهات. غير أن هذا لم يمنع من تأثره بصاحب الدرة حيث كان يوافقه في بعض الأحيان. فليس صحيحا إذن القول بأن ملاك التأويل تلخيص لما في الدرة لوجود النظرة المتباينة بين الكتابين لمعظم المتشابهات. وهذا بغض النظر عن تفاوت مادتي الكتابين من حيث المستوى والدقة العلمية.

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة ٨٩/١ ، وانظر ما تقدم ص ٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني

المميزات العامة لكتب المتشابه اللفظي

المطلب الأول: كتاب درة التنزيل للخطيب الإسكافي. وهو من أوائل ما وصل إلينا في هذا العلم ويمتاز هذه الكتاب بما يأتي:

١) التجديد في العرض، كان الخطيب أول من عرضوا الآيات المتشابهات مرتبة على وفق سور القرآن الكريم حيث استقرأ هذه النصوص من القرآن ورتبها حسب ترتيب السور. وكان يسأل عن سبب الاختلاف او سبب التكرار في كل نظيرين او اكثر من هذه النظائر المتماثلة، وكان يجيب عليها بروح علمية. وكان هذا المسلك في العرض هو عينه الذي تأثر به من جاؤوا من بعد الخطيب.

٢) الأصالة العلمية لما كان بيان الآيات المتشابهات فنا من فنون التفسير فإنك تلاحظ أن الخطيب كان يمهد لتوجيه المتشابهات بالحديث عن قضايا علمية مختلفة من علوم القرآن او علوم اللغة وغير ذلك، مما يلزم المفسر لكتاب الله، وقد تبين ذلك في فصل المصادر. ثم بعد هذا التمهيد كان يجيب على أسباب الاختلاف بين الآيات بناء على ما ذكره من المسائل العلمية التي مهد للحديث عن المتشابهات من خلالها.

ولا ريب أن هذا المسلك قد اختطه الخطيب لابن الزبير الذي جاء بعده.

٣) النظرة المتحررة إلى كثير من نصوص القرآن الكريم، وأعني بذلك التحدث عن قضايا السياق والتناسب، وأحياناً الفهم الموضوعي لمقصد السورة كاملة، الأمر الذي يعد تفردا نوعيا بالنسبة للخطيب، وذلك إذا ما قورنت حاله بحال المؤلفين الآخرين من أبناء عصره في التفسير، حيث سلك أولئك خطوات أكثر جموداً، فمنهم ممن بقي على القول بالمأثور، ومنهم من خطا بعض الخطوات اليسيرة إلى القول بالرأي.

أما الخطيب فيعد بحق من أوائل من دعوا إلى فهم السياق والتناسب ومراعاة النظرة الموضوعية لبعض المفاهيم القرآنية. وكان هذا المسلك بمثابة المفتاح لمن جاء بعد الخطيب -رحمه الله- من المفسرين وغيرهم ممن توسعوا في ذكر المناسبة والفهم الموضوعي للقرآن كما كان يفعل ابن الزبير في ملاك التأويل.

٤) يسر الأسلوب ووضوح المقصد، فقد كان كتاب الخطيب مبنيا على لغة واضحة سهلة منبعثة من روح البيان القرآني، لا سيما وان هدف هذا الكتاب هو بيان الآيات المتشابهات. ومع هذا اليسر فإننا نجد الخطيب في بعض الأحيان ذا لغة جافة لا تسهل على كثير من العامة وبخاصة حين يستطرد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ذكر بعض المسائل اللغوية والنحوية التي يرى أن فهمها أمر ضروري في توجيه المتشابه اللفظي[١].

٥) كما كان الخطيب يركز أكثر من غيره على إيراد المتشابه اللفظي. و لم يرد في كتابه من غير المتشابه إلا الشيء اليسير، ومن ذلك الآي الذي يشبه المتشابه مما كان يتعلق بقصتين مختلفتين. إلا أن الخطيب والحق يقال كان أكثرهم اعتدالا بعدم توسعه في ذكر المتشابهات.

هذا وهناك مميزات أخرى تم تفصيلها في الفصل السابق لا داعي لتكرير القول فيها.

المطلب الثاني: الكرماني وكتابه البرهان.

استقل كتاب البرهان هو الآخر بعدد من المميزات والتي يمكن إجمالها في ما يأتي:

١) إيجاز العبارة، حيث كان يورد مواضع التشابه ويجيب عنها بعبارة موجزة موفية للغرض في أغلب الأحيان. والحق أن الكرماني رزق القدرة العالية في التعبير عن المعاني الكثيرة بالعبارات القليلة، الأمر الذي لا يتأتى إلا لكل من تعمق في الفهم وأدرك العلم من جميع جوانبه، بحيث لا يحتاج إلى كبير عناء حتى يفهم مقصوده للآخرين.

٢) التأثر الواضح بصاحب الدرة في كتاب البرهان، تعهد الكرماني في مقدمته بنقل أقوال أبي عبد الله الخطيب[٢] حيث كان هذا هو الطابع العام في كتابه. وأحياناً ما كنت تجده يصرح بالنقل عن الخطيب وفي أحيان أخرى لا يفعل مثل هذا. هذا ولعل قرب الشقة بين موطن كل من الرجلين جعلت الكرماني بادي التأثر بأقوال الخطيب إذ يعتبر الاثنان من علماء المشرق.

٣) الجدة العلمية، و لم يتوقف تاج القراء عند حد الاقتباس من أقوال الخطيب إنما سلك خطوات أخرى تثبت براعته ومقدرته العلمية وانه كما قال عنه ياقوت. كان عجباً في دقة الفهم[٣]وتبدو هذه الجدة من خلال الإتيان بآراء جديدة في توجيه المتشابهات، هذا بالاضافة الى كشفه عن مواقع جديدة من الآيات المتشابهات في القرآن مما لم يتعرض له صاحب الدرة.

٤) بروز ظاهرة التكرار في كتاب البرهان اكثر من غيره. فتلحظ أن الكرماني يكثر من إعادة النظائر المتشابهة على مختلف السور التي تكرر فيها على الأغلب، وإذا ما استوفى الحديث فيها يشير إليها في المواضع اللاحقة بقوله: قد سبق. وهذا اتجاه عام يمكن ان يدرك في كتاب البرهان بوضوح اعتبارا من سورة الأعراف فما بعدها إلى آخر الكتاب.

٥) عموم نظرة الكرماني إلى المكرر في القرآن. فنجده أكثر من صاحبيه إيراداً لكل ما تكرر في القرآن من الآيات والمقاطع والجمل والعبارات وحتى بعض الكلمات والحروف. وهذا المسلك كان يسلكه

---

(١) من الأمثلة على استطراد الخطيب في بعض الفروع النحوية انظر الدرة ص١٨، ١٩. حيث يسترسل في تقرير مذهب البصريين والكوفيين وخلافهم في قضية مجيء الفاعل جملة وقد تم التعرض لهذا سابقاً (انظر ما تقدم ص ٩٨).

(٢) انظر مقدمة البرهان ص١٨.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ١٩/١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكرماني في كتابه بشكل عام. و لم يقتصر أسلوبه على هذا بل أورد بعض المتشابهات من الآيات مما يرجع الاختلاف فيه إلى رسم المصحف، وهو أثر واضح لما جاء في كتابه خط المصاحف[١].

المطلب الثالث: ابن الزبير وكتابه ملاك التأويل.

استقل هذا الكتاب أيضا بعدد من المميزات وأهمها:

١) العرض الشمولي لأسباب التماثل والاختلاف بين النظائر المتشابهة، فقد تفوق ابن الزبير في هذه الصبغة التي تتسم بالشمولية في تناول النظائر المتشابهة. فكثيراً ما كان الخطيب والكرماني يكتفون بسبب أو سببين من أسباب الاختلاف. في حين تجد ابن الزبير يعرض ما هو أبعد من ذلك.

٢) إضافته لمواقع جديدة من الآيات المتشابهة لفظا في القرآن. فقد قدم صاحب ملاك التأويل عدداً لا بأس به من الآيات المتشابهة إضافة إلى ما بينه الكرماني، هذا مع العلم أن هناك الكثير من الآيات مما تحدث عنها لم تكن في دائرة المتشابه لفظا ولكن هذا لا يلغي الأهمية العلمية لما كان يعرضه الرجل، ولا يلغي بحال القيم البيانية لهذه الآيات من غير المتشابه، والتي كان يتولى الكشف عنها.

٣) استقلالية النظرة عند ابن الزبير في توجيه المتشابهات. كان ابن الزبير ذا شخصية علمية مستقلة كل الاستقلال بنفسها، فلم يكن لينقل عن أحد إلا إذا ذكره على الأغلب، أو يرمز إليه بقوله: قال بعض الجلة. فأحياناً ما كنت تجده يورد أقوال الخطيب ناقدا أو مستحسناً أو مخطئاً وقد مر[٢]. غير أن نظرة ابن الزبير للآيات المتشابهة غالبا ما كانت تتسم بالتفرد وعدم التبعية لأحد. هذا وان كان الخطيب يفوق ابن الزبير من حيث الدقة العلمية، غير أن هذا لا يلغي ما قررته لك الآن.

هذا ولقد رأيت من خلال التطبيق أن ابن الزبير لم يتابع أقوال الخطيب والكرماني إلا في مواضع قليلة ومعدودة من الآيات المتشابهات. بالنسبة لتوجيهها[٣].

٤) كثرة الاستطراد في ذكر آلات العلوم اللازمة في توجيه المتشابهات. فقد تأثر ابن الزبير بهذا المسلك من كتاب صاحب الدرة. ولكن الأخير كان يتوسع في كثير من الأحيان مستطردا في الحديث عن هذه العلوم وذلك تمشيا مع حجم كتابه الذي بناه على البسط والإطناب في العبارة.

٥) توسع ابن الزبير في ذكر ما ليس من المتشابه اللفظي. وهذا ما يمكن ملاحظته عليه في الأجزاء الأخيرة من كتابه حيث كان ينشغل ببعض الأبحاث الاستطرادية أو في ذكر بعض النظائر المعنوية للآيات المتشابهات مما يشبهها في المعنى لا في اللفظ[٤].

---

(١) انظر ما تقدم تفصيله في هذا الموضوع ص٨٥.

(٢) انظر ما تقدم ص٧٠.

(٣) من الأمثلة على متابعة ابن الزبير للخطيب والكرماني انظر ما تقدم ص١٧٩.

(٤) انظر مثلا ملاك التأويل ٩٠٨/٢ و٩١٣ - ٩٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦) كما يمتاز كتاب ملاك التأويل بانفراده دون الكتابين الآخرين في ذكر مصادره العلمية. فغالبا ما كان يذكر المصادر التي ينقل عنها من كتب التفسير واللغة وغيرها. وهذا خلاف ما كان يفعله الخطيب والكرماني حيث لم يكونوا ليتعرضوا إلى مثل هذا إلا على الندرة كما رأيت في فصل المصادر، وهذا ديدن الأندلسيين بعامة من مفسرين وغيرهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث

أهمية كتب المتشابه اللفظي وكونها مصادر معتمدة، وأثرها في من جاء بعدها

تبرز أهمية كتب المتشابه اللفظي في أنها سلكت خطوات مبتكرة في فهم إعجاز القرآن الكريم من حيث ألفاظه ونظمه وأسلوبه وبيانه الرائق المعجز. هذا ولقد كثر حديث العلماء في تلك الأعصار عن فكرة إعجاز القرآن من حيث النظرية، فتحدث البعض عن وجوه الإعجاز، وبماذا كان التحدي وما إلى ذلك من قضايا الإعجاز المختلفة.

أما كتب المتشابه اللفظي فقد سلكت منهج التطبيق لفكرة الإعجاز على نصوص القرآن، فأخذوا يبينون مناسبة اختصاص كل سورة بما اختصت به من الوارد فيها، وانه لا تكرار في القرآن الا بغرض الحجة والبيان، وأنه لا يناسب كل سورة إلا ما ورد فيها من آي الذكر الحكيم.

وفي ظل هذا المنهج التحديدي المبتكر في أسلوب العرض، كانت كتب المتشابه اللفظي تنظر الى القرآن الكريم باعتباره وحدة موضوعية متكاملة، وذلك من خلال فهمها للآيات المتشابهات والجمع في ما بينها، وعدم إثبات التضاد واختلاف فيها.

وإذن فلا مانع من القول أن ما قدمته كتب المتشابه اللفظي يعد بحق بذرة صالحة من بذور الفهم الموضوعي للقرآن الكريم. إنها البذرة الأصيلة التي تحتمل النضج والتطوير إذا ما وجدت منبتا حسنا ومرتعا خصبا من العقول النيرة والألباب المؤمنة التي تنهض بها لتجاوز دائرة التشابه في اللفظ إلى دائرة التشابه في المعنى والمماثلة في الموضوع، الأمر الذي يمكن الباحثين إلى أن يرتقوا بدراسات قرآنية أخرى تكون أكثر إشراقاً ونضجاً وموضوعية منبعثة من روح هذا القرآن العظيم.

أثر كتب المتشابه اللفظي في من جاء بعدها.

إن من أعظم ما يبرز القيمة العلمية لكتب المتشابه اللفظي الثلاثة -الإسكافي و الكرماني و الغرناطي - هو أثرها في من جاؤوا بعدها. فقد كانت هذه الكتب بمثابة المنبع الأصيل الذي كان يرفد الدراسات القرآنية والتفسيرية في القديم والحديث. ولقد رأيت من خلال فصل التطبيق كيف عول كثير من الكاتبين من قدامى ومحدثين على فكر أصحاب كتب المتشابه اللفظي وتوجيهاتهم المختلفة للآيات المتشابهات، وخاصة ما كتبه صاحب الدرة وتابعه عليه الكرماني مضيفا عليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجملة القول أن كتب المتشابه اللفظي قد كان لها الأثر الواضح في اشكال واصناف متعددة من الكتب والمؤلفات والتي نجملها في ما يأتي:

١) كتب المتشابه اللفظي نفسها. أعنى تأثير اللاحق بالسابق فقد وجدت من خلال التطبيق كيف ان الكرماني تأثر بأقوال الخطيب. وإن ابن الزبير كان يوافق صاحبيه في حديثه عن بعض المتشابهات، هذا عدا عن تأثر ابن الزبير بالخطيب بالنسبة لطريقة عرض المتشابهات.

ولم يصلنا في علم المتشابه اللفظي من حيث التطبيق غير الكتب الثلاثة -في حدود ما نعلم- التي قمت بدراستها غير كتاب كشف المعاني للقاضي ابن جماعة. وبعد طول تأمل وتفحص لمادة هذا الكتاب فقد تبين لي بشكل واضح أن الرجل استقى مادته العملية مما كان يعرضه صاحب الدرة والكرماني، هذا بالإضافة إلى بعض الأمور اليسيرة التي أضافها ابن جماعة -رحمه الله- وتم التنبيه عليها من قبل.

فلا غضاضة إذن من القول بأن كتاب كشف المعاني يشتمل ملخصاً عاماً في توجيه الآيات المتشابهات جمعه صاحبه من كتاب الدرة والبرهان إضافة إلى مصادر أخرى كانت متداولة لديهم في تلك الآونة ككتب التفسير المختلفة. فالكتاب كما قال صاحبه جاء بقصد تلبية حاجة طلبة المدارس الذين كانوا يسألون عن المتشابهات.

ومما يؤكد هذه الحقيقة افتقار كتاب ابن جماعة لمنهج الأصالة العلمية في التقديم، ووسائل وطرق فهم المتشابهات. مثلما كان يفعل صاحب الدرة وابن الزبير والكرماني في بعض الأحيان. هذا فضلا على الاختصار الذي يوحي للقارئ انه يعتمد طريقة الإيجاز والتلخيص لأنه سبق إلى مثل هذه الأقوال[1].

هذا ولا أستطيع الجزم بتأثر ابن جماعة بصاحب ملاك التأويل، ذلك أن الاثنين عاشا في القرن السابع، فمن غير المرجح لدي أن يكون لملاك التأويل أثر في كتاب كشف المعاني، هذا مع أن وفاة ابن الزبير تقدمت على وفاة ابن جماعة بنحو من العقد ونصفه[2].

٢) كتب علوم القرآن. وأعني بذلك ما كتبه الزركشي والسيوطي فقد تحدث الاثنان في كتابي البرهان والإتقان عن علم المتشابه اللفظي من الناحية التطبيقية والنظرية. ويهمنا الآن الجانب الأول إذ من الواضح أن الإمامين قد أوردا تقولاً كثيرة في جانب التطبيق عن كتاب البرهان للكرماني. وهذا ما كنت اكشف النقاب عنه ما بين الحين والآخر في فصل التطبيق من هذه الدراسة[3].

---

(١) انظر ما تقدم ص٢٣، ٢٤.

(٢) كانت وفاة ابن الزبير في العام ٧٠٨هـ في حين توفي ابن جماعة سنة ٧٢٣هـ.

(٣) انظر مثلا ما تقدم في فصل التطبيق ص١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) كتب إعجاز وبلاغة القرآن القديمة منها والحديثة. فمن المراجع القديمة اطلعنا في ما سبق على كتاب معترك الأقران للسيوطي وما أورده من النقول عن كتاب الكرماني وكشف المعاني لابن جماعة.

كما اطلعنا على كتاب بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي وكيف انه نقل كتاب البرهان في كتاب البصائر حتى أن البعض سمى هذه الظاهرة بعملية الاستبطان بحيث يستبطن المؤلف عددا من الكتب ويجعلها في كتاب واحد، ويسميه باسمه وهذا ما رجحه من حقق كتاب البرهان حديثا[١].

هذا و لم يقتصر أثر كتاب البرهان على كتاب البصائر بل هناك علماء آخرون ممن احتووا مادته في كتبهم، ومنهم الشيخ زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري في كتابه: (فتح الرحمان في كشف ما يلتبس في القرآن): والذي عاش ما بين القرنين التاسع والعاشر من ٨٢٣-٩٢٦هـ[٢].

وممن احتووه في كتبهم أيضا الشيخ الإمام ابن عطية الاجهوري ت ١١٩٤هـ. وذلك في كتابه: (إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن). حيث ضمن هذا الكتاب أربعة من العلوم منها. علم المتشابه الذي غطى مادته كتاب الكرماني[٣].

هذا و لم يقتصر أثر كتب المتشابه اللفظي على المراجع القديمة في الإعجاز، بل تعدى الأمر ذلك إلى المراجع الحديثة حول إعجاز وبلاغة القرآن. ولقد كانت أفكار كتب المتشابه اللفظي الجندي المجهول التي تناقلها الكثيرون من المحدثين دون الإشارة إليها. وممن ضمنوا كتبهم بعض الآيات الأستاذ احمد بدوي في كتابه من بلاغة القرآن وآخرون[٤].

ومن المراجع الحديثة التي عرضت كتب المتشابه اللفظي بثوب جديد: كتاب التعبير القرآني للسامرائي وقد سبق ذكره[٥].

---

(١) انظر مقدمة البرهان للكرماني من تحقيق احمد عز الدين خلف الله ص٧٣-٧٥ من مقدمة التحقيق لكتاب البرهان حيث رجح كون الفيوزأبادي استبطن كتاب البرهان واعتبر هذه الظاهرة ظاهرة مرضية في جسم الأمة إلى آخر ما قاله في هذا الموضع. هذا وقد تقدم الحديث عن كتاب البصائر في الفصل الأول من هذه الدراسة (انظر ما تقدم ص)

(٢) من الأمثلة على المطابقة بين ما جاء في كتاب البرهان للكرماني وبين ما جاء في فتح الرحمن للأنصاري انظر مثلا ما جاء حول الآية (٨٧) من النمل: ﴿ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾، وفي الزمر [٦٨]: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾. حيث نلحظ أن كلام الرجلين متطابق (انظر البرهان ص١٤٧، فقرة ٣٦٣، وفتح الرحمن بهامش السراج المنير للشربيني ٨٥/٣. ومن الأمثلة الأخرى انظر ما قاله الكرماني ص١٤٦ فقرة ٣٦٠، ويتابعه على ذلك الأنصاري (انظر فتح الرحمن ٧٧/٣)، وكذلك الحال بالنسبة لما بينه الكرماني لبعض المتشابهات من القصص (انظر البرهان ص١٤٩، الفقرتين ٣٦٨، ٣٦٩، وما يقابل ذلك من فتح الرحمن ١١٣/٣، و١١٥، حيث النصوص محتواة بعينها من البرهان.

(٣) انظر مقدمة الأستاذ عطا على البرهان ص١٢، وكذا الأستاذ خلف الله في النسخة الأخرى ص٧٦، ٧٧.

(٤) انظر ما تقدم في التطبيق ص٢٣٦،٢٣٧ من النسخة الأم.

(٥) انظر ما تقدم ص٢٩،٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤) كتب التفسير القديمة والحديثة. وهي على اختلافها كانت متأثرة بفكر أصحاب كتب المتشابه. فقد رأينا كيف تأثر الفخر الرازي بما كان يورده من أقوال الخطيب في بعض المتشابهات من سورة البقرة[١]. كما علمنا كيف أن أبا حيان كان يتابع الكرماني وينقل أقواله في بعض الأحيان[٢].

كما تلاحظ في بعض الأحيان أثراً واضحاً لما كتبه صاحب الدرة في كتابات القاضي ابي السعود والألوسي وغيرهم فأحيانا ما كانوا ينقلون آراءهم بشكل صريح، وفي أحيان أخرى كانوا يلمحون الى مثل هذه الآراء[٣].

كما رأينا كيف أن لصاحب ملاك التأويل أثر واضح في بعض كتابات الألوسي دون أن يشير إلى اسمه -أعني الألوسي-[٤]. وممن نقلوا عن صاحب ملاك التأويل البقاعي في نظم الدرر وذلك في تحديد وجه التناسب بين سورة المرسلات والإنسان[٥].

هذا عدا عن بعض الإشارات في كتب التفسير الحديثة، فقد كان ما عند الشيخ ابن عاشور يشبه إلى حد بعيد ما عند صاحب الدرة في بعض الآيات[٦]. وكذلك الحال بالنسبة لصاحب المنار فكثيرا ما كنت تجده يناقش أقوال للخطيب الإسكافي إلى غير ذلك[٧]، الأمر الذي يؤكد أن كتب المتشابه اللفظي كانت ذات اثر عظيم في المراجع القديمة و الحديثة على السواء أيضا.

ومن الملاحظ أن أفكار الكرماني كانت أكثر رواجاً وتأثيراً في أفكار اللاحقين، ومرجع ذلك إلى إيجاز عبارته أكثر من صاحبيه بحيث كان من السهل تناقلها وتداولها بين الكتاب والمؤلفين.

وهكذا يتبين مما سبق القدر العظيم والقيمة العلمية الفضلى لكتب المتشابه اللفظي الثلاثة، الأمر الذي يجعلها بحق العمود الفقري الذي بنى عليه السابقون واللاحقون آراءهم في فهم المتشابهات. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر ما تقدم ص١٦٠،١٦٥.

(٢) انظر ما تقدم ص١٥٣،١٨٤.

(٣) من الأمثلة على ذلك انظر ما تقدم في التطبيق ص٢٦٥،٣٤٨،٣٤٩ من النسخة الأم.

(٤) انظر ما مر في التطبيق ص٣٣٧ من النسخة الأم.

(٥) انظر ملاك التأويل ٨٦٣/٢، ٨٦٤ وما قاله البقاعي في نظم الدرر ٢٨٢/٨. حيث يلحظ كيف أن البقاعي ينقل رأي ابن الزبير في وجه المناسبة بين سورتي المرسلات والإنسان.

(٦) من الأمثلة على ذلك انظر ما جاء في فصل التطبيق ص٢٠٥،٢١٤ من النسخة الأم.

(٧) انظر ما تقدم ص٢٤١،٢٥٥ من النسخة الأم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. واصلي واسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وأقول:

ذلكم هو علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بقسميه النظري والعملي.

ولا يسعني في نهاية هذا العمل إلا أن أقرر الحقائق الآتية:

أولا: الآيات المتشابهة في القران الكريم تشابها لفظياً، هي عبارة عن قصص وموضوعات قرآنية يتم تكريرها بأساليب بيانية مختلفة لحكم وأغراض بيانية.

ثانيا: أن الوقوف على فهم الآيات المتشابهات وتوجيهها هو ضرب من أضرب إعجاز القرآن في ثوبه البياني. فهو متفرع ومنبعث من روح البيان القرآني.

ومن هنا فإن هناك الكثير من الآيات مما ذكرته الكتب الثلاثة يمكن أن تندرج تحت أطر أخرى لأضرب البيان القرآني غير الآيات المتشابهات.

ثالثاً: كان الإمام الزركشي رحمه الله من أوائل من حدوا علم الآيات المتشابهات بتعريف له، وهذا ما تناقله من جاء بعده.

رابعاً: تعد كتب المتشابه اللفظي المنبع الأصيل والمنهل الأم الذي كان يرفد الدراسات القرآنية القديمة منها والحديثة على السواء. ولقد كانت كتب المتشابه اللفظي الثلاثة بمثابة العمود الفقري الذي يقوم عليه فهم الآيات المتشابهات من جانبها العملي التطبيقي.

خامساً: ثم إن من تحدثوا أو تناولوا بعض هذه المتشابهات ممن جاؤوا بعد أصحاب الكتب الثلاثة لم يقدموا شيئا يذكر حول استقراء جديد للآيات المتشابهات، فما هي إلا شذرات متفرقة كان يضيفها البعض أمثال القاضي ابن جماعة في كتابه كشف المعاني. وبعض الدراسات الحديثة حول إعجاز القرآن. ومن هنا فقد كانت كتب المتشابه اللفظي محطة تأثير قوية في المتقدمين والمتأخرين على السواء.

سادساً: والذي أود تقريره هنا هو أن ما عرضته كتب المتشابه اللفظي من المتشابهات ليس هو نهاية المطاف بالنسبة لحصر الآيات المتشابهات. فالقرآن العظيم كتاب لا تنقضي عجائبه ولا تنفد كلماته. وقد تمكنت بعون الله -من خلال هذه الدراسة- من استقراء عدد آخر من الآيات المتشابهة لفظا من خلال القرآن، وقد زاد عددها على اثنين وستين موضعا من السور المختلفة حين كنت أتحدث عن مغفل الكتب الثلاثة من كل سورة من سور القرآن. وكنت اعتمد في توجيهها على نفس الوسائل التي اعتمدها أصحاب الكتب الثلاثة في توجيه الآيات المتشابهة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعاً: أما بالنسبة لتوجيه الآيات المتشابهة لفظا فقد سلك أصحاب الكتب الثلاثة وسائل ومصادر علمية مختلفة استندوا إليها في فهم وتوجيه معاني هذه المتشابهات. أنها الأدوات والعدة نفسها التي تلزم المفسر لكتاب الله، ممثلاً ذلك في فهم التناسب والسياق واللغة والاستشهاد أو الاستئناس بالمأثور، هذا بالإضافة إلى ما وظفته من علوم القرآن المختلفة التي تلزم المفسر أن يطلع عليها.

ثامناً: كما أن أصحاب الكتب الثلاثة كانوا متفاوتين بالنسبة لقدرتهم على توجيه الآيات المتشابهات. ولا ريب في أن الخطيب قد فاق صاحبيه من حيث الجدة في العرض والعمق الفكري والدقة العلمية.

تلكم هي بعض النتائج التي أحببت تسجيلها هنا، ولا يمنع هذا من وجود ملحوظات أخرى تم التطرق إليها مفصلة في فصول هذه الدراسة المختلفة.

وقبل أن أختم حديثي أود أن أوصي بشيئين اثنين هنا هما:

الأول: أن دراسة إعجاز القرآن البياني من الجانب التطبيقي بحاجة ملحة إلى استنهاض همم الباحثين في كل زمان ومكان. فلا ينحصر الأمر على دراسة الآيات المتشابهات أو غيرها من اضرب البيان القرآني، بل إن الأمر اشمل من ذلك بكثير فالقرآن ذو بيان عجيب ولا ينحصر إدراك هذا البيان على جيل من الأجيال. هذا ولقد قدمت كتب المتشابه اللفظي ضروبا أخرى من اضرب فهم البيان القرآني وذلك في سلسلة ما عرضته من الآيات مما ليس في دائرة المتشابه اللفظي.

فلا بد من أن يركز الباحثون إذن على فهم إعجاز القرآن من حيث التطبيق لا سيما وان أمور الإعجاز من الناحية النظرية قد أشبعت من حيث الدراسة والبحث، هذا ولأن معرفة الإعجاز البياني واللغوي هي الأساس في معرفة وجوهه الأخرى.

والثاني: أن دراسة بعض الآيات المتشابهات في كثير من الأحيان يشكل بتراً واضحاً للفهم الموضوعي لآي القرآن. فقد كنت أمر من خلال فصل الدراسة التطبيقية على بعض هذه النظائر المتشابهة من حيث اللفظ ولكن بيان الفروق اللفظية بين هذه النظائر لا يعدّ كافيا في فهم الجانب الموضوعي لموضوع تلك الآيات.

ومن هنا فإنه لا بد من إن تنهض دراسات موضوعية حول القرآن الكريم تقوم بتغطية مثل هذه المفاهيم القرآنية المتشابهة من حيث اللفظ، التي لا بد من أن ينضم إليها ما يشبهها من حيث المعنى والموضوع حتى يتم بذلك فهم القرآن على الوجه الأكمل، ومن هنا فإن إدراك الفروق اللفظية لم يكن ليكفي في بعض الأحيان.

ولا بد من الاعتراف هنا بأن بعض الكتب في موضوعات القصص القرآني قد سدت فراغاً كبيراً من هذا الجانب، غير أن هذا لا يغني عن المزيد من الدراسات الموضوعية التي تجاوز فهم الآيات المتشابهة من حيث اللفظ إلى ما تماثل من حيث المعنى والموضوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وختاماً، فإني أضرع إلى العلي القدير أن يوفقنا جميعا إلى تدبر آياته وتلاوة كتابه آناء الليل وأطراف النهار، وأن يجعلنا ممن يسعون إلى تحصيل العلم النافع، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المراجع

القرآن الكريم

- الألوسي شهاب الدين محمود. ت ١٢٧٠هـ.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصحّحه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

- ابن أبي العز الحنفي، علي بن علي بن محمد.

شرح العقيدة الطحاوية، حققه مجموعة من العلماء. خرج أحاديثه الشيخ الألباني، المكتبة الإسلامية. ط: التاسعة، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

- ابن تيمية، أحمد بن تيمية. ت ٧٢٨هـ .

مقدمة في أصول التفسير، مجمع الفتاوى، جـ١٣، مطابع الرياض، ط: الأولى، ١٣٨١هـ.

- ابن الجزري، شمس الدين الخير محمد بن محمد. ٨٣٣هـ.

غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م.

- ابن الجزري شمس الدين الخير محمد بن محمد.

منجد المقرئين ومرشد الطالبين، مكتبة القدس، القاهرة، سنة ١٣٥٠هـ.

- ابن الجزري، شمس الدين الخير محمد بن محمد.

النشر في القراءات العشر، ط: التوفيق، دمشق، ١٣٤٥هـ.

-ابن جماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله. ت٧٢٣هـ.

كشف المعاني في المتشابه المثاني، تحقيق وتعليق: صديق موسى أحمد السيد، بإشراف د. إبراهيم الكيلاني، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

-ابن جني: أبو الفتح عثمان. ت ٣٩٢هـ.

الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، - القاهرة- دار الكتب المصرية، ١٣٧٤هـ و ١٩٥٥م.

- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد العسقلاني. ت ٨٥٢هـ.

تقريب التهذيب، تحقيق: أبو الأشبال الصغير أحمد الباكستاني، دار العاصمة، الرياض، ط: الأولى. ١٤١٦هـ.

- ابن حجر، شهاب الدين أحمد العسقلاني. ت ٨٥٢هـ.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، ط: الثانية، ١٣٨٥هـ. ١٩٦٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن حنبل، الإمام أحمد.
المسند، مؤسسة قرطبة.
- ابن الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم. ت ٧٢٥هـ.
لباب التأويل في معاني التنزيل، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى. ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، ت ٣٧٠هـ.
الحجة في القراءات، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم.مؤسسة الرسالة، ط الخامسة، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
- ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي ت. ٣١١هـ.
الصحيح، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
- ابن الزبير الغرناطي أحمد بن إبراهيم. ت٧٠٨هـ.
ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م. ونسخة أخرى من تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.
- ابن عاشور الشيخ محمد الطاهر.
التحرير والتنوير، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله. ت ٥٧١هـ.
أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البيجاوي، ط: الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٦هـ. ١٩٥٧م.
- ابن عطية، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي. ت ٥٤٦هـ.
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق: الرحالي الفاروق، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، الدوحة، ط: الأولى، ١٣٩٨هـ. ١٩٧٧م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. ت ٣٩٥.
معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ. ١٩٩١م.
- ابن فرحون المالكي، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري، ت ٧٩٩هـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق: د.محمد الأحمدي، دار التراث، القاهرة.

- ابن كثير الحافظ إسماعيل أبو الفداء. ت ٧٧٤هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفسير القرآن العظيم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

- ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس، ت ٢٤٥هـ.

السبعة في القراءات، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط: الثانية، دار المعارف، القاهرة.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري. ت ٧١١هـ.

لسان العرب، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.

- ابن المنير، أحمد بن محمد الإسكندري.

الإنصاف على تفسير الكشاف، دار الريان للتراث.

- ابن هشام الأنصاري، أحمد جمال الدين بن يوسف. ت ٧٦١هـ.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. ت ٧٤٥هـ.

البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.

- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. ت ٩٥١هـ.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- اجنتس جولد زيهر.

مذاهب التفسير الإسلامي، تعريب: د. عبد الحليم النجار، دار القرآن، ط: الثانية ١٩٨٣م.

- أحمد أحمد بدوي.

من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ط: الثانية.

- إسماعيل باشا البغدادي.

هداية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استانبول سنة ١٩٥٥م.

الأنصاري: أبو يحيى زكريا، ت ٩٢٨هـ.

فتح الرحمن لكشف ما يلتبس في القرآن، بهامش كتاب السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الشربيني، مكتبة الجامعة.

- امرؤ القيس.

الديوان، دار صادر- بيروت، ١٣٧٧هـ. ١٩٥٨م.

-الباقلاني، الإمام القاضي أبي بكر عمر بن الطيب، ت ٤٠٣هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إعجاز القرآن، شرح وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط: العاشرة، ١٤١١، ١٩٩١م.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. ت ٢٥٦هـ.

الجامع الصحيح، مع فتح الباري، السلفية، دار الفكر.

- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر. ت ٨٨٥هـ.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه وجمع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى. ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

- البناء، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي. ت ١١١٧هـ.

إتحاف فضل البشر في القراءات الأربع عشر، دار الندوة الجديدة - بيروت ، لبنان.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي.ت ٤٥٨هـ.

السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط: الأولى، ١٣٤٤هـ. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، بلدة حيدر آباد.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي.

شعب الإيمان، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

-الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة ت ٢٧٩هـ.

السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٧م.

- الجرجاني عبد القاهر. ت ٤٧١هـ.

دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- الجرجاني عبد القاهر. ت ٤٧١هـ.

الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: د. محمد زغلول سلام و د. محمد خلف الله - دار المعارف بمصر.

- حاجي خليفة، ت ١٠٦٧هـ.

كشف الظنون، دار الفكر - بيروت- ط: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

-الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله ت ٤٠٥هـ.

المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت.

- حميد بن ثور الهلالي.

الديوان، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة.

- الخطابي، أبو سليمان محمد بن محمد.ت ٣٨٨هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: د. محمد زغلول سلام و د. محمد خلف الله – دار المعارف بمصر.

– الخطيب الإسكافي،أبو عبد الله محمد بن عبد الله. ت ٤٢٠هـ.

درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: الأولى، ١٣٩٣هـ. ١٩٧٣م.

– خليل ياسين.

أضواء على متشابهات القرآن، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٩م.

– الداودي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد. ت ٩٤٥هـ.

طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

ديوان الهذليين، نشرة القسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ١٩٤٥– ١٩٥٠م، القاهرة.

–الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد. ت ٧٤٨هـ.

تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت.

– الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد. ت ٧٤٨هـ.

التلخيص، مع مستدرك الحاكم، دار المعرفة، بيروت.

– الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد ت ٧٤٨هـ.

سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت ط ١١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

– رائق محمد الصعيدي.

تحقيق الأنواع –من النوع الحادي والخمسين إلى النوع الثالث والستين – من الإتقان، بإشراف: د. أحمد نوفل، مكتبة الجامعة الأردنية، برقم ٢١١، ٢ –رائي–. ر جـ.

– الرازي، أبو الحسين محمد بن عمر. ت ٦٠٦هـ.

مفاتح الغيب، دار إحياء التراث العربي، ط: الثالثة.

– الراغب الأصفهاني:

مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م.

– الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن سري. ت ٣١١هـ.

معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

– الزرقاني، الشيخ محمد عبد العظيم.

مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ط: الثانية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله. ت ٧٩٤هـ.
البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط: الثانية.
-الزركلي: خير الدين.
الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: العاشرة، أيلول، ١٩٩٢م.
- الزمخشري: محمود بن عمر المعروف بجار الله. ت ٥٢٨هـ.
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار البيان للتراث.
- سليمان الجمل.
الفتوحات الإلهية لتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، مع كتاب العكبري إملاء ما منّ به الرحمن، الناشر المكتبة الإسلامية.
- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي. ت ٥٦٢هـ.
الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، ط:الأولى، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.
- سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. ت ١٨٠هـ.
الكتاب، تحقيق:عبد السلام هارون - دار الكاتب العربي ١٩٦٦-١٩٧٧م.
- السيد محمد رشيد رضا.
تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية، أعيد طبعه بالأوفست.
- سيد قطب.
التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، مصر ١٩٥٦م.
- سيد قطب.
في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية والعشرون، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- السيرافي، أبو محمد يوسف بن أبي سعيد. ت ٣٨٥هـ.
شرح كتاب سيبويه، تحقيق: ت. محمد علي سليطاني، ط: مطبعة الحجاز بدمشق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ت ٩١١هـ
الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثانية، ١٤١١هـ. ١٩٩١م.
-السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، بيروت. ط: الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق الشيخ علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي.
- شرح ديوان الخنساء/ شرح وتحقيق: عبد السلام الموفي/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط: العاشرة، ١٦٠٥هـ ١٩٨٥م.
- الشوكاني، محمد بن علي. ت ١٢٥٠هـ.
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.
الوافي بالوفيات، دار النشر: فرانس، شتآينا، شتودغرت، ط: الثالثة، ١٤١١هـ. ١٩٩١م.
- صلاح الخالدي.
البيان في إعجاز القرآن، دار عمار، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد ت٣٦٠هـ.
المعجم الأوسط، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد.
المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، مطبعة الوطن العربي، العراق.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. ت ٣١٠هـ.
جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، دار المعارف المصرية. ونسخة أخرى لما لم يكمل تحقيقه وهي نسخة دار الفكر.
- عبد القادر البغدادي.
خزانة الأدب، بولاق ١٢٩٩/القاهرة.
- عبد الكريم الخطيب.
إعجاز القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، ١٣٩٥هـ. ١٩٧٥م.
- عبد الكريم الخطيب.
التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الكريم الخطيب.
القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- عبد الوهاب عبد المجيد غزلان.
البيان في مباحث من علوم القرآن، كلية أصول الدين، الأزهر الشريف.
- العكبري: محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله.
إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، مع حاشية الجمل، الناشر المكتبة الإسلامية.
- عودة الله منيع القيسي.
تنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم بتنوع ألوان السياق والمعاني، بإشراف الأستاذ د. محمود السمرة. الجامعة الأردنية عمان، كلية الدراسات العليا، الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، مكتبة الجامعة الأردنية، د عـ ٢،٣ ر جـ عود، سنة ١٩٨٨م.
- فاضل صالح السامرائي.
التعبير القرآني، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٦، ١٩٨٧م.
- الفراء، أبو زكريا يحيا بن زياد. ت ٢٠٧هـ.
معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط: الثانية، ١٩٨٠م.
- الفرزدق.
الديوان، نشرة: محمد إسماعيل الصاوي - ١٣٥٤/ القاهرة.
- فضل حسن عباس.
إعجاز القرآن، ط: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- فضل حسن عباس.
البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- فضل حسن عباس.
القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، مجلة دراسات المجلد الرابع عشر، العدد السابع ١٩٨٧م.
- فضل حسن عباس.
القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته، دار الفرقان، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م.

- فضل حسن عباس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ط: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- مخلوف العلامة الشيخ محمد بن محمد.

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، ط: الأولى ١٣٤٩هـ. المطبعة السلفية ومكتبتها.

- المرادي: الحسن بن القاسم ت ٦٢٥هـ.

الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ.

الصحيح/ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت ط: الثانية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي. ت ٧٢٨هـ.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر، ت ٨٠٧هـ.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة.

- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. ت ٤٦٨هـ.

أسباب النزول، طبعة مصطفى الحلبي وأولاده - مصر.

- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ.

معجم الأدباء المسمى بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٩٩٣م. ونسخة أخرى من مطبوعات دار المأمون.

- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

معجم البلدان، دار صادر بيروت، طبعة قديمة.

٤٨٢٥٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Studies in the books of synonyms in the Holy Koran

AL-Askafee, AL-Karjanee,AL-GARNA

Summary

This study is about the science of synonyms in the Holy Koran. The words which is pronounced in the same way but have different meaning. These have two sides:

١- The theoretical side.

٢- The functional or practical side.

Also the study was organized within two topics:

In the first topic, briefly I explained the science of the synonyms from its theoretical context. This also came in two chapters:

In the first chapter I explained in its first subject the identification of the synonyms science especially its language and terms. While doing so I highlighted the selected identification which belongs to this noble science.

After that I have shown the subject of this science and the wisdom of its presence in the Holy Koran.

Then I uncovered the relationship between the science of synonyms and other kinds of science. Therefore, I have pinpointed the natural relationship between this synonym science and two other sciences: which are the sciences of miracles in the Koran , and the science of the fixed unchangeable , and the things that are alike.

I have found it necessary to be aware of the relationship among these sciences.

In the second topic especially in its first chapter I talked about the ancient and modern intellectuals' efforts which participated in the service and progress of the synonyms science.

I explained briefly the ancients' efforts that are represented in synonym science writings: Which came down in three books, "Dwra AL-Tanzil (AL-Askafi), AL-Bwrhan (AL-Kirmany)and Milak AL-Tawil (AL-Ghirnaty) In addition, I talked about Ibn Jama's book Kashf AL-Mani" and pointed out it characters. Also I would like to add my speeches regarding the unspecialized efforts in this science which are represented in translators activities and those who wrote in Koran's miracology. Also I discussed the modern's

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

efforts while criticizing these efforts especially when it failed to mention the Koran's Ayats which look alike. In the second chapter, first section I talked about the synonyms science three books and their authors. While we learned the three authors names:

١) Al Eskafee.

٢) Al Karamanee.

٣) Al Garnadee.

Besides talking about each author, I talked about the book and the way it was written.

In the second topic I discussed the scientific sources of the synonyms books. The entire sides of wisdom, adding to it the opinions of translators, sciences of Koran and language and other sciences.

In the third topic I explained the images or the situations which Koran's synonyms fit within, while doing so I sought the references of the Imam Al Zarkashee's toils and efforts "God be merciful on him." Also I added my own efforts toward this subject.

In the functional side that is the second volume of this study I explained the synonyms science throughout the Holy Koran, direction of meanings has been included.

Also I explained the opinions and thoughts which belong to the authors of those three books in each of similar subjects.

In addition, and at the end of each Surat I was explaining the oversight of those authors toward the pronunciation of the similar Ayats.

In the second topic, second chapter I've done some comparison among the three books synonyms science regarding its topics, its way of writing, its sources and its methods in directing the similar . In addition I compared between its purposes and goals.

In the third chapter I. highlighted the scientific value and importance of each of these books , while taking in consideration the sayings of its scientists along with their witnessing for these books.

Also I explained the general characteristics of each book, while showing its importance as a dependable references.

In addition I mentioned its impact and influence over the writing which followed.

In conclusion I have recorded major results and recommendations which I have achieved.

٤٨٢٥٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit